جامع المسانيد والسنن

الهادي لأقوم سنن

للإمام الحافظ المحدث المؤرخ الثقة
عماد الدين أبي الفداء: إسماعيل بن عمر
ابن كثير القرشي الدمشقي الشافعي
٧٠٠ - ٧٧٤ هـ

المقدمة

وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه
الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

دار الفكر
بيروت
لبنان
المكاتب : البناية المركزية - هاتف : ٦٤٣٦٨١ - ص.ب : ١١/٧٠٦١
المطابع والمعمل : حارة حريك - شارع عبد النور - هاتف : ٨٣٧٨٩٨ - ٨٦٠٩٦٢
برقياً : فكسي - تلكس : ٤٤٣١٦ فكر FIKR 44316 LE

جامع المسانيد والسنن

الهادي لأقوم سنن

المقدمة

قال الحافظ شمس الدين بن الجزري (٧٥١-٨٣٣)
تلميذ الحافظ ابن كثير،
في المصعد الأحمد ص: (٤٩-٤٠):

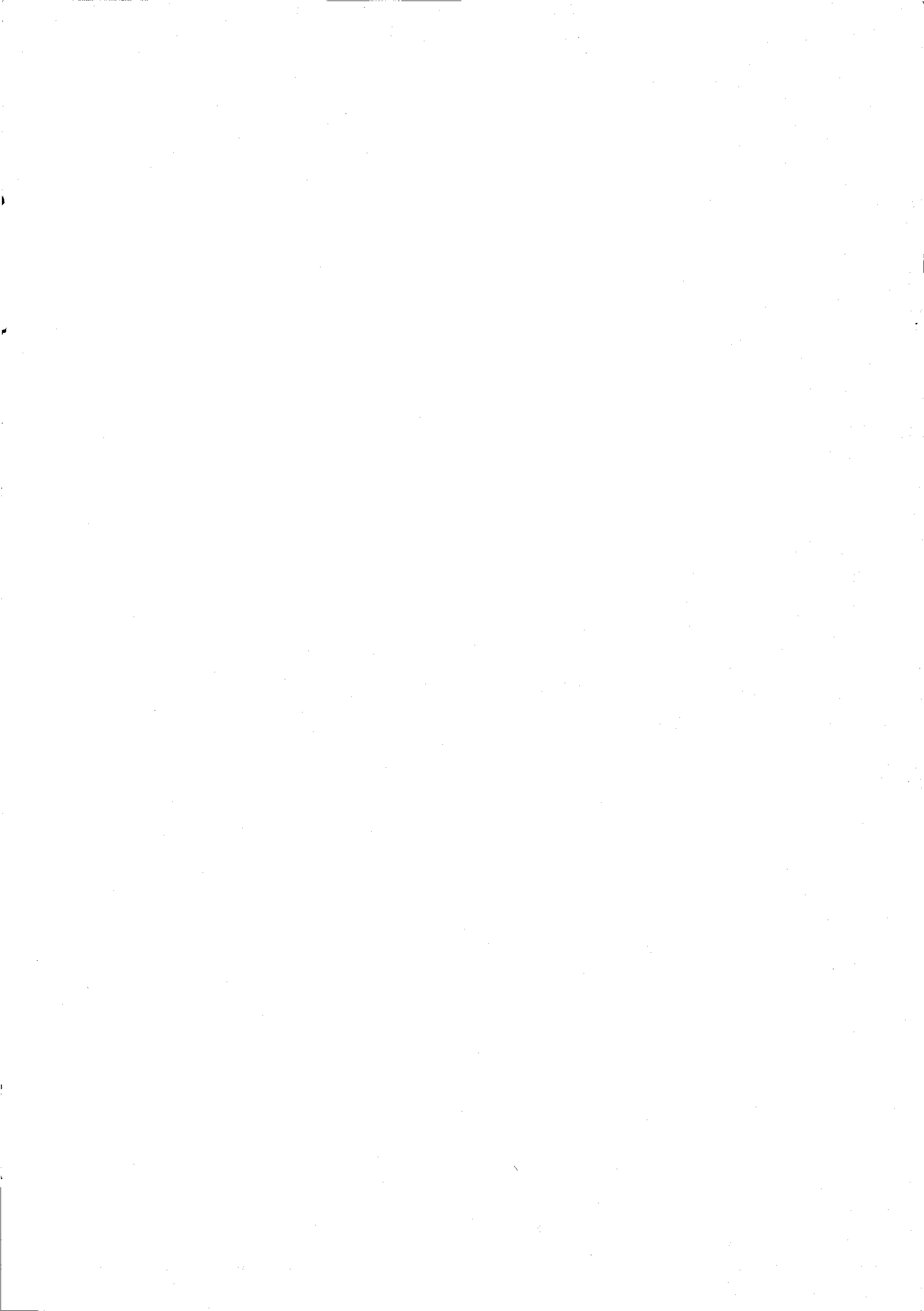
إنَّ شيخنا مؤرخ الإسلام وحافظ الشام عماد الدين أبا الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ــ رحمه الله تعالى ــ أخذ هذا الكتاب (يعني ترتيب مسند الإمام أحمد) من مؤلفه، وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير، ومسند البزار، ومسند أبي يعلى الموصلي وأجهد نفسه كثيراً وتعب فيه تعباً عظيماً، فجاء لا نظير له في العالم، وأكمله إلا بعضَ مسند أبي هريرَة، فإنه مات قبل أن يكمله، فإنه عوجل بكف بصره، وقال لي رحمه الله تعالى: لا زلت أكب فيه في الليل والسراج ينونص حتى ذهب بصري معه، ولعل الله يقيض له من يكمله، مع أنه سهل، فإن معجم الطبراني الكبير لم يكن فيه شيء من مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

الإهداء

إلى النور الوهّاج الذي فَجر الله على يديه ضوء النهار الذي أيقظ الحياة، وأفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية فانجابت أمامه كما ينجاب الغمام، محققاً فضائل النفس في قصة الهداية لهذا الكون في كلام من النور، وأشعة من الوحي هي قصة هداية الإنسان.

إلى اليتيم الهاشمي في كماله، والنجم الإنساني في نوره، الذي تلاقت فيه البشرية بالنبوة، واتصلت الأرض بالسماء، وباسمه الكريم تنطق ملايين الشفاه، وتهتز ملايين القلوب، كل يوم إلىٰ يوم الدين.

محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله، برأ الله أصوله في الدهر الأول من أكرم معادن الانسانية، واختاره لحمل أكمل رسالات السماء، وخاتمتها، وبَعَثَهُ الله ﴿ في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ [الجمعة: ٢] ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران: ٣١].



قالوا في جامع المسانيد والسنن
الهادي لأقوم سنن

قال ابن حجر:

«كتبت من جامع المسانيد عدّة نسخ».

[إنباء الغمر ١:٤٧]

وقال ابن العماد:

«من مصنفاته كتاب في جمع المسانيد العشرة».

[شذرات الذهب ٦:٢٣١]

وقال الحسيني:

«كتابه «الهدي والسنن» المعروف بجامع المسانيد، رتبه على الأبواب، وهو من أنفع كتبه».

[ذيل تذكرة الحفاظ ص ٥٧]

قال الشوكاني:

«الهدي والسنن في أحاديث المسانيد والسنن».. جمع فيه بين مسند الإمام أحمد، والبزار، وأبي يعلى، وابن أبي شيبة، إلى الكتب الستة».

[البدر الطالع ١:١٥٣]

وقال حاجي خليفة:

«جامع المسانيد والسنن: كتاب عظيم فيه أحاديث الكتب العشرة في أصول الإسلام».

[كشف الظنون ١:٥٧٣]

قالوا في الحافظ ابن كثير

«الإمام المفتي المحدّث البارع، فقيه متفنّن، محدث متقن، مفسّر نقّال».

«الذهبي» في المعجم المختص

«وسمعت مع الفقيه المفتي المحدّث، ذي الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البُصروي الشافعي... سمع من ابن الشحنة وابن الرداد وطائفة. له عناية بالرجال والمتون والفقه. خرّج وناظر وصنَّف وفسَّر وتقدَّم».

«الذهبي» في تذكرة الحفاظ

* * *

«كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بتخريجها ورجالها، وصحيحها وسقيمها. وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك. وكان يستحضر كثيراً من التفسير والتاريخ، قليل النسيان. وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح الذهن، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت. ويشارك في العربية مشاركة جيدة، وينظم الشعر. وما أعرف أني اجتمعت به ـــ على كثرة ترددي عليه ـــ إلا واستفدت منه».

تلميذه: «شهاب الدين بن حجي»
عن الدارس للنعيمي

وكان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة. سارت تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته.

«ابن حجر» في الدرر الكامنة

«وصاهر شيخنا أبا الحجاج المزّي فأكثر عنه. وأفتى ودرّس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو. وأمعن النظر في الرجال والعلل».

تلميذه «الحسيني» في ذيل التذكرة

«كان قدوة العلماء والحفّاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ. وسمع وجمع، وصنف ودرس، وحدث وألف. وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير. وله مصنفات عديدة مفيدة».

العلامة «العيني» فيما نقل عنه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة

«الشيخ الإمام العلامة الحافظ، عماد الدين، ثقة المحدّثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين».

«ابن ناصر» في الرد الوافر

«إمام ذوي التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل. سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بأقواله وشنف، وحدث وأفاد، وطارت فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير».

«ابن حبيب» فيما نقله ابن العماد في الشذرات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * ملك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين *

بسم الله الرحمن الرحيم

التقدمة

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾

[٣٣: الأحزاب: ٥٦]

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾.

[٩: التوبة: ٣٣ و٤٨: الفتح: ٢٨ و٦١ الصف: ٩]

﴿ محمد رسول الله، والذين معه أشدآء على الكفار رحمآء بينهم تريهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾.

[٤٨: الفتح: ٢٨]

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾.

[٤٧: محمد: ٢]

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾.

[٣٣: الأحزاب: ٤٠]

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾

[٢١: الأنبياء: ١٠٧]



حجية الحديث النبوي الشريف

- **حجية الحديث من آيات القرآن الكريم.**
- **فرض الله طاعة رسوله مقرونة بطاعة الله.**
- **ما أمر الله من طاعة رسوله.**
- **السنة فيما ليس فيه نصُّ كتاب.**

١ ــ السنة تدل على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله.

٢ ــ فرض الصلاة على من يزول بالعذر.

٣ ــ الدلالة في السنّة أنهم حوَّلوا من قبلة بعد قبلة.

٤ ــ صلاة الخوف من الكتاب والسنة.

٥ ــ السنة في جلد المئة وأنه ثابت.

٦ ــ المواريث ناسخة للوصايا وذلك من السنة.

٧ ــ كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سننا ليست نصاً في القرآن.

٨ ــ السنة النبوية في الوضوء.

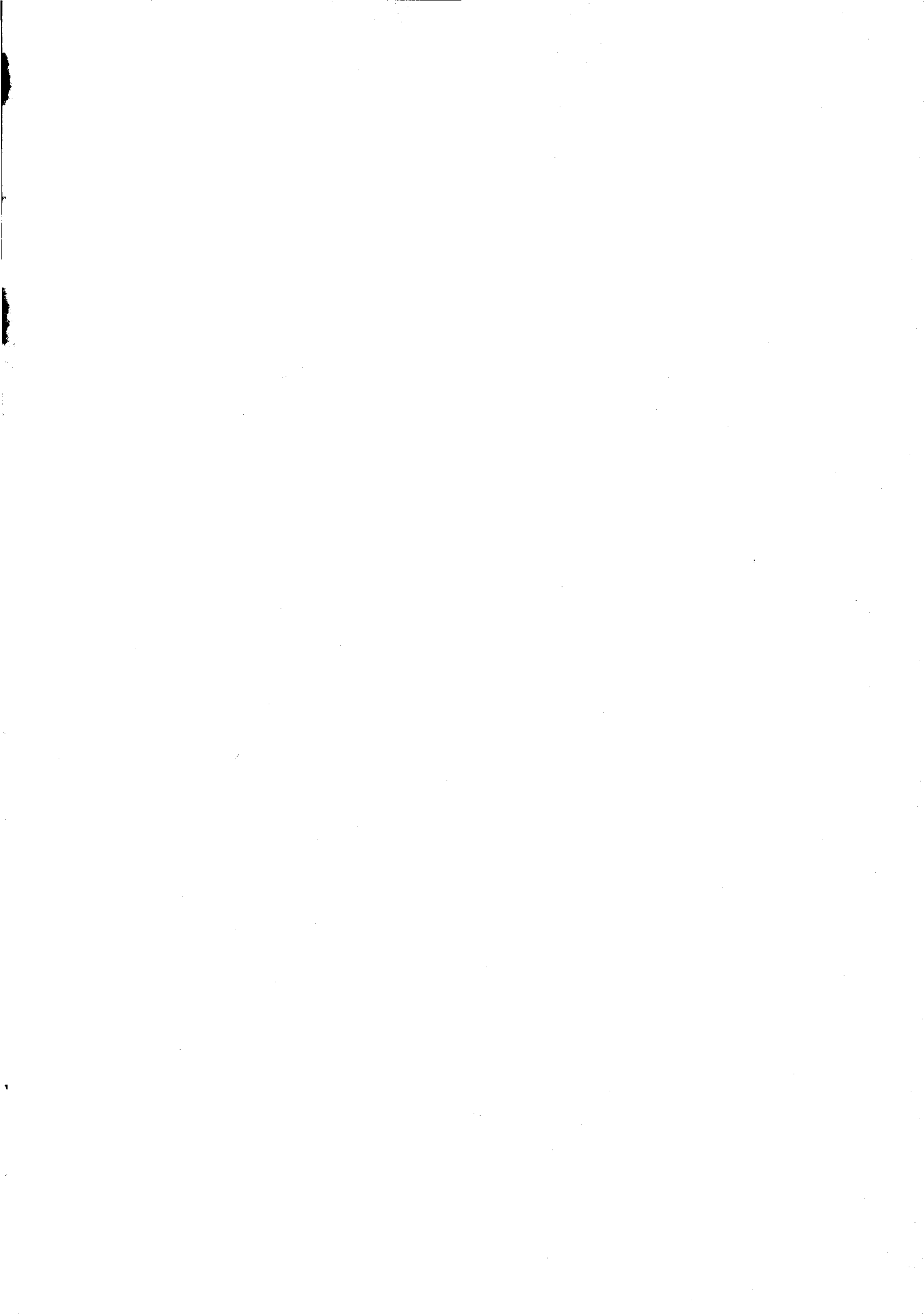
٩ ــ الرسول صلى الله عليه وسلم يخبر عن عدد الصلوات.

١٠ ــ الزكاة في السنة وتوضيحها.

١١ ــ السنة تبين مواقيت الحج وسواها.

١٢ ــ في العدة.

- **أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة تطبيق مثالي واقعي للإسلام.**



حجية الحديث

بعث النبي صلى الله عليه وسلم مبلّغاً:

﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ [المائدة: ٦٧].

ومبيناً عن الله مراده:

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ [النحل: ٤٤].

ومعلماً للكتاب والحكمة:

﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾. [آل عمران: ١٦٤].

ومحللاً لهم الطيبات، ومحرماً عليهم الخبائث:

﴿ ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقاضياً في أمورهم:

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وحكماً فيما شجر بينهم:

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾. [النساء: ٦٥].

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أريك الله ﴾ [النساء: ١٠٥].

وأسوة حسنة:
﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين شرائع الاسلام أحياناً بالقول، وأحياناً بالفعل، وأحياناً بهما معاً، فكل ما قاله عليه السلام ــ أو فعله، أو حدث أمامه وقرره حيث سكت عليه سكوت رضا ولم ينكره كان تشريعاً.

«وَجِمَاعُ ما أبان الله لخلقه في كتابه، مما تعبَّدهم به، لما مضى من حُكْمِه جلّ ثناؤه ــ من وجوه:

(فمنها):
ما أبانه لخلقه نصّاً، مثل جُمَلِ فرائضه، في أنَّ عليهم صلاة وزكاة وحجاً وصوماً، وأنه حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونصَّ الزنا، والخمر، وأكل الميتةِ، والدم، ولحمِ الخنزير، وبين لهم كيف فرضُ الوضوء، مع غير ذلك مما بين نصّاً.

(فمنه):
ما أحكم فَرْضَهُ بكتابه، وَبَيَّنَ كيف هو على لسان نبيه، مثل عدد الصلاة، والزكاة، ووقتها، وغيرِ ذلك من فرائضه التي أنزل من كتابه.

(ومنه):
ما سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس لله فيه نَصُّ حكم، وقد فرض الله في كتابه طاعةَ رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء إلى حكمه، فمن قَبِلَ عن رسول الله فَبِفَرْضِ الله قَبِلَ»(*).

وكلُّ ما سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس فيه كتاب دليل على أن الحكمةَ سُنَّةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويجمعُ القبول لِما في كتاب الله، ولسنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم القبولَ الكل واحد منهما عن الله، وإنْ تفرقتْ فروع الأسباب التي قُبلَ بها عنهما، كما أحلَّ

(*) الرسالة للشافعي (٥٥-٥٨).

وحرَّمَ، وفرضَ وحدَّ، بأسباب متفرقة كما شاء جل ثناؤه ـــ ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يُسْألون ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

قال الشافعي:

وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي أبان جل ثناؤه أنه جعله علماً لدينه، بما افترض من طاعته، وحرم من معصيته، وأبان من فضيلته، بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به.

فقال تبارك وتعالى: ﴿ فآمِنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ، وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ، انْتَهُوا خَيْراً لكم، إنما الله إلهٌ وَاحِدٌ، سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾. [النساء: ١٧١].

وقال: ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَإذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾. [النور: ٦٢].

فجعل كمال ابتداء الإيمان، الذي ما سواه تبع له: الإيمان بالله ثم برسوله.

فلو آمن عبد به ولم يؤمن برسوله: لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبداً، حتى يؤمن برسوله معه.

وهكذا سن رسول الله في كل من امتحنه للإيمان.

أخبرنا مالك عن هلال بن أسامة عن عطاء بن يسار عن عمر بن الحكم قال: «أتيت رسول الله بجارية، فقلت: يا رسول الله، علي رقبة، أفأعتقها؟ فقال رسول الله: أين الله؟ فقالت: في السماء، فقال. ومن أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: فأعتقها».

قال الشافعي: وهو «معاوية بن الحكم» وكذلك رواه غير مالك، وأظن مالك لم يحفظ اسمه.

قال الشافعي: ففرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله.

فقال في كتابه: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال جل ثناؤه: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمكُم الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾. [آل عمران: ١٦٤].

وقال جل ثناؤه: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾. [البقرة: ٢٣١].

وقال: ﴿ وَأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾. [النساء: ١١٣].

وقال: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله وَالحِكْمَةِ، إِنَّ الله كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾. [الاحزاب: ٣٤].

فذكر الله الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة: سنة رسول الله.

وهذا يشبه ما قال، والله أعلم.

لأن القرآن ذكر وأُتْبِعَتْهُ الحكمة، وذكر الله منَّهُ على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز — والله أعلم — أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله.

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقول: فرض إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله.

لما وصفنا، من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به.

وسنة رسول الله مبينة عن الله معنى ما أراد: دليلاً على خاصه وعامه. ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله.

باب
فرض الله طاعة رسول الله مقرونة بطاعة الله
ومذكورة وحدها

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمؤمِنٍ وَلا مُؤمِنَةٍ إذا قَضَى الله وَرَسُولُه أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ [الاحزاب: ٣٦].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأولي الأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤمِنُونَ بالله وَاليَوْمِ الآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأويلاً﴾. [النساء: ٥٩].

فقال بعض أهل العلم: أولوا الأمر. أمراء سرايا رسول الله. والله أعلم. وهكذا أخبرنا.

وهو يشبه ما قال، والله أعلم، لأن كل من كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة، وكانت تأنف أن يعطيَ بعضها بعضاً طاعة الإمارة.

فلما دانت لرسول الله بالطاعة لم تكن ترى ذلك يصلح لغير رسول الله.

فأمروا أن يطيعوا أولي الأمر الذين أمَّرهم رسول الله، لا طاعة مطلقة، بل طاعة مستثناة، فيما لهم وعليهم، فقال: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله﴾ يعني: إن اختلفتم في شيء.

وهذا — إن شاء الله — كما قال في أولي الأمر، إلا أنه يقول ﴿فإن تنازعتم﴾ يعني — والله أعلم — هم وأمراؤهم الذين أمروا بطاعتهم، ﴿فردوه إلى الله

والرسول﴾ يعني ــ والله أعلم ــ إلى ما قال الله والرسول إن عرفتموه، فإن لم تعرفوه سألتم الرسول عنه إذا وصلتم أو من وصل منكم إليه.

لأن ذلك الفرض الذي لا منازعة لكم فيه. لقول الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[الاحزاب: ٣٦].

ومن تنازع (ينازع) ممن بعد رسول الله رد الأمر إلى قضاء الله، ثم قضاء رسوله، فإن لم يكن فيما تنازعوا فيه قضاء، نصاً فيهما ولا في واحد منهما: ردوه قياساً على أحدهما، كما وصفت من ذكر القبلة والعدل والمثل، مع ما قال الله في غير آية مثل هذ المعنى.

وقال: ﴿ ومَنْ يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فَأولئكَ مع الَّذِينَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاء والصَّالِحينَ، وَحَسُنَ أولئكَ رَفِيقاً ﴾. [النساء: ٦٩].

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنوا أَطِيعوا الله وَرَسُولَهُ ﴾. [الأنفال: ٢٠].

باب

ما أمَرَ مِنْ طَاعَةِ رسولِ الله

قال الله جل ثناؤه: ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونكَ إنَّما يُبَايِعُونَ الله، يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾. [الفتح: ١٠].

وقال: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾. [النساء: ٨٠].

فأعلمهم أن بيعتهم رسوله بيعته؛ وكذلك أعلمهم أن طاعتهم طاعته.

وقال: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾. [النساء: ٦٥].

نزلت هذه الآية فيما بلغنا — والله أعلم — في رجل خاصم الزبير في أرض، فقضى النبي بها للزبير.

وهذا القضاء سنة من رسول الله، لا حكم منصوص في القرآن.

والقرآن يدل — والله أعلم — على ما وصفت، لأنه لو كان قضاء بالقرآن كان حكماً منصوصاً بكتاب الله، وأشبه أن يكونوا إذا لم يسلموا لحكم كتاب الله نصاً غير مشكل الأمر: أنهم ليسوا بمؤمنين، إذا ردوا حكم التنزيل، إذا لم يسلموا له.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً، قَدْ يَعْلَمُ الله الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً، فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. [النور: ٦٣].

وقال: ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ. وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، أَمِ ارْتَابُوا، أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ!؟ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ: أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ. وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ، فَأُولئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٤٨].

فأعلم الله الناس في هذه الآية أن دعاءهم إلى رسول الله ليحكم بينهم: دعاء إلى حكم الله، لأن الحاكم بينهم رسول الله، وإذا سلموا لحكم رسول الله فإنما سلموا لحكمه بفرض الله.

وأنه أعلمهم أن حكمَه حكمُه، على معنى افتراضه حكمه، وما سبق في علمه جل ثناؤه من إسعاده بعصمته وتوفيقه، وما شهد له به من هدايته واتباعه أمره.

فأحكم فرضه بإلزام خلقه طاعة رسوله، وإعلامهم أنها طاعته.

فجمع لهم أن أعلمهم أن الفرض عليهم اتباع أمره وأمر رسوله، وأن طاعة رسوله طاعته، ثم أعلمهم أنه فرض على رسوله اتباع أمره، جل ثناؤه.

باب
ما أبان الله لخلقه من فرضه على رسوله اتباع ما أوحى إليه، وما شهد له به من اتباع ما أمر به، ومن هداه، وأنه هاد لمن اتبعه

قال الشافعي: قال الله جل ثناؤه لنبيه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنافِقِينَ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً. وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾. [الأحزاب: ٢].

وقال: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، لا إِلَه إِلاَّ هُوَ، وَأَعْرِضْ عَنِ المُشْرِكِينَ ﴾. [الانعام: ١٠٦].

وقال ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾. [الجاثية: ١٨].

فأعلم الله رسوله منّه عليه بما سبق في علمه: من عصمته إياه من خلقه، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾. [المائدة: ٦٧].

وشهد له جل ثناؤه باستمساكه بما أمره به، والهدى في نفسه، وهداية من اتبعه، فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَان، وَلكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾. [الشورى: ٥٢].

وقال: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ، وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾. [النساء: ١١٣].

فأبان الله أن قد فرض على نبيه اتباع أمره، وشهد له بالبلاغ عنه، وشهد به

لنفسه، ونحن نشهد له به، تقرباً إلى الله بالإيمان به، وتوسلاً إليه بتصديق كلماته.

أخبرنا عبد العزيز عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن المطلب بن حنطب أن رسول الله قال: «ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه».

قال الشافعي: وما أعلمنا الله مما سبق في علمه وحتم قضائه الذي لا يرد، من فضله عليه ونعمته: أنه منعه من أن يهموا به أن يضلوه، وأعلمه أنهم لا يضرونه من شيء.

وفي شهادته له بأنه يهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله، والشهادة بتأدية رسالته واتباع أمره، وفيما وصفت من فرضه طاعته وتأكيده إياها في الآي ذكرت: ما أقام الله به الحجة على خلقه: بالتسليم لحكم رسول الله واتباع أمره.

قال الشافعي: وما سن رسول الله فيما ليس لله فيه حكم: فبحكم الله سنه. وكذلك أخبرنا الله في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] صِرَاطِ اللهِ.

وقد سن رسول الله مع كتاب الله، وسن فيما ليس فيه بعينه نص كتاب.

وكل ما سن فقد ألزمنا الله اتباعه، وجعل في اتباعه طاعته، وفي العنود عن اتباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقاً، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجاً، لما وصفت، وما قال رسول الله.

أخبرنا سفيان عن سالم أبو النضر مولى عمر بن عبيد الله سمع عبيد الله بن أبي رافع يحدث عن أبيه أن رسول الله قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه: فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه».

وسنن رسول الله مع كتاب الله وجهان: أحدهما: نص كتاب، فاتبعه رسول الله كما أنزل الله. والآخر: جملة، بيَّن رسول الله فيه عن الله معنى ما أراد بالجملة، وأوضح كيف فرضها: عاماً أو خاصاً، وكيف أراد أن يأتي به العباد. وكلاهما اتبع فيه كتاب الله.

قال: فلم أعلم من أهل العلم مخالفاً في أن سنن النبي من ثلاثة وجوه، فاجتمعوا منها على وجهين.

والوجهان يجتمعان ويتفرعان: أحدهما: ما أنزل الله فيه نص كتاب، فبينَ رسول الله مثل ما نص الكتاب. والآخر: مما أنزل الله فيه جملة كتاب، فبين عن الله معنى ما أراد. وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما.

والوجه الثالث: ما سن رسول الله فيما ليس فيه نص كتاب.

فمنهم من قال: جعل الله له، بما افترض من طاعته، وسبق في علمه من توفيقه لرضاه: أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب.

ومنهم من قال: لم يسن سنة قط إلا ولها أصل في الكتاب، كما كانت سنته لتبيين عدد الصلاة وعملها، على أصل جملة فرض الصلاة، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع، لأن الله قال: ﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨] وقال: ﴿وَأَحَلَّ الله البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥] فما أحل وحرم فإنما بين فيه عن الله، كما بين الصلاة.

ومنهم من قال: بل جاءته به رسالة الله، فأثبتت سنته بفرض الله.

ومنهم من قال: ألقي في روعه كل ما سن، وسنته الحكمة: الذي ألقي في روعه عن الله، فكان ما ألقي في روعه سنته.

أخبرنا عبد العزيز عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب قال: قال رسول الله: «إن الروح الأمين قد ألقى في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فأجملوا في الطلب».

فكان مما ألقي في روعه سنته، وهي الحكمة التي ذكر الله، وما نزل به عليه كتاب فهو كتاب الله، وكلٌّ جاءه من نعم الله، كما أراد الله، وكما جاءته النعم، تجمعها النعمة، وتتفرق بأنها في أمور بعضها غير بعض، ونسأل الله العصمة والتوفيق(*).

(*) الرسالة للشافعي مقتطفات منها.



السنة فيما ليس فيه نصُّ كتاب

١ ـ السنة تدلّ على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله:

إن الله أنزل فرضاً في الصلاة قبل فرض الصلوات الخمس، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلِ إلاَّ قَلِيلاً. نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمّل: ١-٤]. ثم نسخ هذا في السورة معه، فقال: ﴿ إنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائفَةٌ مِنَ الَّذينَ مَعَكَ، وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ، عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ، فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القُرْآنِ، عَلِمَ أَنْ سَيَكُونَ مِنْكُمْ مَرْضَى وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ في الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ الله وآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الله، فَاقْرؤا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ، وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [المزمّل: ٢٠].

ولما ذكر الله بعد أمره بقيام الليل نصفه إلا قليلاً أو الزيادة عليه فقال: ﴿ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَـائفَةٌ مِنَ الذِينَ مَعَكَ ﴾: فَخَفَّفَ فقال: ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى ﴾ قرأ إلى ﴿ فَاقْرَؤا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾.

واحتمل قوله: ﴿ فاقرؤا ما تيسر منه ﴾ أن يكون فرضاً ثابتاً أو منسوخاً، ودلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا واجب من الصلاة إلا الخَمْس. والأحاديث في ذلك شهيرة.

جاء في الموطأ (١:١٧٥):

حدثني يحيى عن مالك، عن عمه أبي سهيل بن مالك، عن أبيه؛ أنه سمع طلحة بن عبيد الله يقول: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد، ثائر الرأس، يسمع دوي صوته، ولا نفقه ما يقول. حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خمس صلوات في اليوم والليلة» قال: هل علي غيرهن؟ قال: «لا. إلا أن تطوع» قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: «وصيام شهر رمضان» قال: هل علي غيره؟ قال: «لا. إلا أن تطوع» قال: وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة. فقال: هل علي غيرها؟ قال: «لا. إلا أن تطوع» قال، فأدبر الرجل وهو يقول: والله! لا أزيد على هذا، ولا أنقص منه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أفلح الرجل، إن صدق».

أخرجه البخاري في: ٣ ــ كتاب الإيمان، ٣٤ ــ باب الزكاة من الإسلام.

ومسلم في: ١ ــ كتاب الإيمان، ٣ ــ باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، حديث ٨.

٢ ــ فرض الصلاة على من يزول بالعذر:

قال الله تعالى:

﴿ ويسألونك عن المحيض، قل: هو أذى، فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾. [البقرة: ٢٢٢].

ولا تكون طهارة الحائض إلا بزوال المحيض منها، وقد جاء في الحديث عن عائشة، وذكرت إحرامها مع النبي صلى الله عليه وسلم وأنها حاضت، فأمرها أن تقضي ما يقضي الحاج: «غير أنْ لا تطوفي بالبيت حتى تطهري».

ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم الحائض بقضاء الصلاة، وأمرها بقضاء الصوم.

٣ ــ الدلالة من السنة على أنهم حوَّلوا إلى قبلة بعد قبلة:

في قوله تعالى:

﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء، فلنولينك قبلة ترضاها، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾. [البقرة: ١٤٤].

وفي موطأ مالك (١:١٩٥).

حدثني يحيى عن مالك، عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر؛ أنه

قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن. وقد أمر أن يستقبل الكعبة. فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة.

أخرجه البخاري في: ٨ ــ كتاب الصلاة، ٣٢ ــ باب ما جاء في القبلة.

ومسلم في: ٥ ــ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ٢ ــ باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة، حديث ١٣.

٤ ــ صلاة الخوف بين الكتاب والسنة:

قال الله تعالى: ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ﴾ [البقرة: ٢٣٩] ولم يذكر الله أن يتوجه إلىٰ القبلة.

وفي الحديث الذي رواه مالك (١٨٤:١):

«فإن كان خوف أشد في ذلك صلّوا رجالاً وركباناً، مستقبلي القبلة، وغير مستقبليها».

رواه عبد الله بن عمر. وأخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة ــ باب ﴿فإن خفتم فرجالاً وركباناً﴾.

٥ ــ السنة تبين أن جلد المئة ثابت على البكرين الحرين، ومنسوخ عن الثيبين، وأن الرجم ثابت على الثيبين الحرين:

قال الله تعالى: ﴿وَاللاَّتي يَأتِينَ الفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهنَّ فِي البُيُوت حَتَّى يَتَوفَّاهنَّ المَوْتُ أو يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبيلاً * واللَّذان يَأتِيَانِهَا مِنْكُمْ فآذُوهمَا فَإنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فأَعْرِضُوا عَنْهُما إنَّ الله كَانَ تَوَّاباً رَحيماً﴾ [النساء: ١٥-١٦].

ثم نسخ الله الحبس والأذى في كتابه فقال: ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّانِي فَاجْلُدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مائةَ جَلْدَةٍ ﴾. [النور: ٢].

فدلت السنة على أن جلد المائة للزانيين البكرين.

أخبرنا عبد الوهاب عن يونس بن عبيد عن الحسن عن عبادة بن الصامت أن رسول الله قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعلَ الله لهن سبيلاً: البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»: الرسالة (٣٨٧).

ولما رجم النبي صلى الله عليه وسلم ماعزاً ولم يجلده، وأمر أنيساً أن يغدو على امرأة الأسلمي فإن اعترفت رجمها ــ دلّ على نسخ الجلد عن الزانيين الحرين الثيبين، وثبتَ الرجم عليهما لأن كل شيء بعد أول فهو آخر.

فدلت سنة النبي صلى الله عليه وسلم على أن الزانيين المملوكين خارجان من هذا المعنى.

٦ ــ قول الرسول صلى الله عليه وسلم لا وصية لوارث يوضح أن المواريث ناسخة للوصايا:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الوَصِيَّةُ لِلوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

قال الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ، وَالله عَزِيزٌ حكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

فأنزل الله ميراث الوالدين ومن ورث بعدهما ومعهما من الأقربين، وميراث الزوج من زوجته، والزوجة من زوجها.

فكانت الآيتان محتملتين لأن تثبتا الوصية للوالدين والأقربين، والوصية للزوج، والميراث مع الوصايا، فيأخذون بالميراث والوصايا، ومحتملة بأن تكون المواريث ناسخة للوصايا.

فلما احتملت الآيتان ما وصفنا كان على أهل العلم طلب الدلالة من كتاب الله، فما لم يجدوه نصاً في كتاب الله، طلبوه في سنة رسول الله، فإن وجدوه فما قبلوا عن رسول الله فعن الله قبلوه، بما افترض من طاعته.

ووجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنه من أهل العلم بالمغازي، من قريش

وغيرهم: لا يختلفون في أن النبي قال عام الفتح: «لا وصية لوارث، ولا يقتل مؤمن بكافر». ويأثِرونه عن من حفظوا عنه ممن لقوا من أهل العلم بالمغازي.

فكان هذا نقل عامة عن عامة، وكان أقوى في بعض الأمر من نقل واحد عن واحد. وكذلك وجدنا أهل العلم عليه مجمعين.

٧ ـ كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سُنَناً ليست نصّاً في القرآن، أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله معنى ما أراد بها:

فمنها: قول الله: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾: [البقرة: ٢٣٠].

فاحتمل قول الله ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾: أن يتزوجها زوج غيره، وكان هذا المعنى الذي يسبق إلى من خوطب به: أنها إذا عقدت عليها عقدة النكاح فقد نكحت.

واحتمل: حتى يصيبها زوج غيره، لأن اسم «النكاح» يقع بالإصابة، ويقع بالعقد.

فلما قال رسول الله لامرأة طلقها زوجها ثلاثاً ونكحها بعده رجل: «لا تحلين حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك» يعني: يصيبك زوج غيره. والإصابة النكاح.

فإن قال قائل: فاذكر الخبر عن رسول الله بما ذكرت.

قيل: أخبرنا سفيان عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة: «أن امرأة رفاعة جاءت إلى النبي فقالت: إن رفاعة طلقني فبت طلاقي، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما معه مثل هدبة الثوب؟ فقال رسول الله: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟! لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك».

قال الشافعي: فبين رسول الله أن إحلال الله إياها للزوج المطلق ثلاثاً بعد زوج بالنكاح: إذا كان مع النكاح إصابة من الزوج.

٨ ـــ الفرائض المنصوصة التي سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مَعَها:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كنتم جنباً فاطهروا ﴾. [المائدة: ٦].

وقال الله تعالى: ﴿ ولا جُنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾. [سورة النساء: ٤٣].

وسنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الوضوء كما أنزل الله: فَغَسَلَ وجهه ويديه إلى المرفقين، ومسح برأسه، وغسل رجليه إلى الكعبين.

وأخرج مالك في موطئه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بوضوء، فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين، ثم مضمض، واستنشق ثلاثاً، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح برأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردَّهما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه».

وهذا بيان السنة.

وسنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغَسْلِ من الجنابة غُسْلَ الفرج، والوضوء كوضوء الصلاة، ثم الغُسْل فكذلك أحببنا أن نفعل.

وسنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يجب منه الوضوء، وما الجنابة التي يجب بها الغُسْل إذ لم يكن بعضُ ذلك منصوصاً في الكتاب.

٩ ـــ القرآن يُحْكم الفرض في الصلاة والزكاة والحج، والرسول صلى الله عليه وسلم يخبر عن عدد الصلوات، ومقدار الزكاة، وكيفية الحج:

قال الله تعالى: ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾. [النساء: ١٠٣].

وقال في سورة البقرة الآيات [٤٣، ٨٣، ١١٠]، وفي مواضع أخرى من القرآن: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾.

وقال لنبيه: ﴿ خُذْ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾. [التوبة: ١٠٣].

فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ عدد الصلوات المفروضات خمس، وأخبر أن عدد الظهر والعصر والعشاء في الحَضَرِ: أربع أربع، وعدد المغرب ثلاث، وعدد الصبح ركعتان.

وسنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلوات كلِّها قراءة، وسنَّ أن الجهر منها بالقراءة في المغرب والعشاء والصبح، وأن المخافتة بالقراءة في الظهر والعصر.

وسنَّ أن الفرضَ في الدخول في كل صلاة بتكبير، والخروج منها بتسليم، وأنه يؤتى فيها بتكبير ثم قراءة ثم ركوع ثم سجدتين بعد الركوع وما سوى هذا من حُدودها.

وسنَّ في صلاة السفر قصراً كُلَّما كان أربعاً من الصلوات، إن شاء المسافر، وإثبات المغرب والصبح على حالها في الحضر، وأنها كلَّها إلى القبلة، مسافراً كان أو مقيماً إلا في حالٍ من الخوف واحدة.

وسنَّ أن النوافل في مثل حالها: لا تحل إلا بطهور، ولا تجوز إلاّ بقراءة، وما تجوز به المكتوبات من السجود والركوع واستقبال القبلة في الحضر وفي الأرض وفي السفر، وأن للراكب أن يصلي في النافلة حيث توجهت به دابته.

أخبرنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن عثمان بن عبد الله بن سراقة عن جابر بن عبد الله «أن رسول الله في غزوة بني أنمار كان يصلي على راحلته متوجهاً قبل المشرق».

أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر عن النبي: مثل معناه، لا أدري أسمَّى بني أنمار أو لا؟ أو قال: «صلى في سفر».

وسنَّ رسول الله في صلاة الأعياد والاستسقاء سنة الصلوات في عدد الركوع والسجود، وسن في صلاة الكسوف فزاد فيها ركعة على ركوع الصلوات، فجعل في كل ركعة ركعتين.

قال: أخبرنا مالك عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وأخبرنا مالك عن هشام عن أبيه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله.

قال: فحكي عن عائشة وابن عباس في هذه الأحاديث، صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ مختلف، واجتمع في حديثهما معاً على أنه صلى صلاة الكسوف ركعتين في كل ركعة ركعتين.

وقال الله في الصلاة: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ﴾. [النساء: ١٠٣].

فبين رسول الله عن الله تلك المواقيت. وصلى الصلوات لوقتها، فحوصر يوم الأحزاب فلم يقدر على الصلاة في وقتها، فأخرها للعذر، حتى صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء في مقام واحد.

أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال: «حبسنا يوم الخندق عن الصلاة، حتى كان بعد المغرب بهويٍّ من الليل، حتى كفينا، وذلك قول الله: ﴿ وكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ، وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فدعا رسول الله بلالاً فأمره فأقام الظهر فصلاها، فأحسن صلاتها، كما كان يصليها في وقتها، ثم أقام العصر فصلاها هكذا، ثم أقام المغرب فصلاها كذلك، ثم أقام العشاء فصلاها كذلك أيضاً، قال: وذلك قبل أن ينزل في صلاة الخوف ﴿فرجالاً أو ركباناً﴾ [البقرة: ٢٣٩].

قال: فبين أبو سعيد أن ذلك قبل أن ينزل الله على النبي الآية التي ذكرت فيها صلاة الخوف.

والآية التي ذكر فيها صلاة الخوف قول الله: ﴿ وإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾. [النساء: ١٠١]. وقال: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لهُم الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ، وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ، فَإِذَا سَجَدُوا

﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾. [النساء: ١٠٢].

أخبرنا مالك عن يزيد بن رومان عن صالح بن خوات عن من صلى مع رسول الله صلاة الخوف يوم ذات الرقاع: «أن طائفة صفت معه، وطائفة وجاه العدو، فصلى بالذين معه ركعة، ثم ثبت قائماً وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم».

أخبرني من سمع عبد الله بن عمر بن حفص يذكر عن أخيه عبيد الله بن عمر عن القاسم بن محمد عن صالح بن خوات عن أبيه خوات بن جبير عن النبي ﷺ: مثل حديث يزيد بن رومان.

وفي هذا دلالة على ما وصفت قبل هذا، في (هذا الكتاب) ـــ: من أن رسول الله إذا سنَّ سنة فأحدث الله إليه في تلك السنة نسخها أو مخرجاً إلى سعة منها ـــ: سنَّ رسول الله سنة تقوم الحجة على الناس بها، حتى يكونوا إنما صاروا من سنته إلى سنته التي بعدها.

فنسخ الله تأخير الصلاة عن وقتها في الخوف إلى أن يصلوها ـــ كما أنزل الله وسنَّ رسوله ـــ: في وقتها، ونسخ رسول الله سنته في تأخيرها بفرض الله في كتابه ثم بسنته، صلاها رسول الله في وقتها كما وصفت.

أخبرنا مالك عن نافع عن ابن عمر، أراه عن النبي، فذكر صلاة الخوف، فقال: «إن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً وركباناً، مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها».

أخبرنا رجل عن ابن أبي ذئب عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبي: مثل معناه، ولم يشك أنه عن أبيه، وأنه مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: فدلت سنة رسول الله على ما وصفت: من أن القبلة في المكتوبة على فرضها أبداً، إلا في الموضع الذي لا يمكن فيه الصلاة إليها، وذلك عند المسايفة

والهرب وما كان في المعنى الذي لا يمكن فيه الصلاة إليها.

وثبتت السنة في هذا: ألا تترك الصلاة في وقتها، كيف ما أمكنت المصلي.

١٠ ــ في الزكاة:

قال الله: ﴿ أَقِيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ ﴾. [البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠].

وقال: ﴿ والمُقِيمِينَ الصَّلاةَ والمُؤْتُونَ الزكاةَ ﴾. [النساء: ١٦٢].

وقال: ﴿ فَوَيلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءونَ * وَيَمْنَعُونَ المَاعُونَ ﴾. [الماعون: ٤-٧].

فقال بعض أهل العلم: هي الزكاة المفروضة.

قال الله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا، وَصلِّ عَلَيْهِمْ، إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ، والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾. [التوبة: ١٠٣].

فكان مخرج الآية عاماً على الأموال، وكان يحتمل أن تكون على بعض الأموال دون بعض، فدلت السنة على أن الزكاة في بعض الأموال دون بعض.

فلما كان المال أصنافاً: منه الماشية، فأخذ رسول الله من الإبل والغنم، وأمر ــ فيما بلغنا ــ بالأخذ من البقر خاصة، دون الماشية سواها، ثم أخذ منها بعدد مختلف، كما قضى الله على لسان نبيه، وكان للناس ماشية من خيل وحمر وبغال وغيرها، فلما لم يأخذ رسول الله منها شيئاً، وسن أنه ليس في الخيل صدقة: استدللنا على أن الصدقة فيما أخذ منه وأمر بالأخذ منه، دون غيره.

وكان للناس زرع وغراس، فأخذ رسول الله من النخل والعنب الزكاة بخرص، غير مختلف ما أخذ منهما، وأخذ منهما معاً العُشر إذا سقيا بسماء أو عين، ونصف العُشر إذا سقيا بغرب.

وقد أخذ بعض أهل العلم من الزيتون، قياساً على النخل والعنب.

ولم يزل للناس غراس غير النخل والعنب والزيتون كثير، من الجوز واللوز

والتين وغيره، فلما لم يأخذ رسول الله منه شيئاً، ولم يأمر بالأخذ منه: استدللنا على أن فرض الله الصدقة فيما كان من غراس: في بعض الغراس دون بعض.

وزرع الناس الحنطة والشعير والذرة، وأصنافاً سواها، فحفظنا عن رسول الله الأخذ من الحنطة والشعير والذرة، وأخذ من قبلنا من الدُّخن والسُّلت والعلس والأرز وكل ما نبَّته الناس وجعلوه قوتاً خبزاً وعصيدة وسويقاً وأدماً، مثل الحمص والقطاني فهي تصلح خبزاً وسويقاً وأدماً، اتباعاً لمن مضى، وقياساً على ما ثبت أن رسول الله أخذ منه الصدقة، وكان في معنى ما أخذ النبي، لأن الناس نبَّتوه ليقتاتوه.

وكان للناس نبات غيره، فلم يأخذ منه رسول الله، ولا من بعد رسول الله علمناه ولم يكن في معنى ما أخذ منه، وذلك مثل الثفاء والأسبيوش والكسبرة، وحب العصفر وما أشبهه، فلم تكن فيه زكاة: فدلَّ ذلك على أن الزكاة في بعض الزرع دون بعض.

وفرض رسول الله في الوَرِق صدقة، وأخذ المسلمون في الذهب بعده صدقة، إما بخبر عن النبي لم يبلغنا، وإما قياساً على أن الذهب والوَرِق نقد الناس الذي اكتنزوه وأجازوه أثماناً على ما تبايعوا به في البلدان قبل الإسلام وبعده.

وللناس تبر غيره، من نحاس وحديد ورصاص فلما لم يأخذ منه رسول الله ولا أحد بعده زكاة: تركناه، اتباعاً بتركه، وأنه لا يجوز أن يقاس بالذهب والورق، اللذين هما الثمن عاماً في البلدان على غيرهما، لأنه في غير معناهما، لا زكاة فيه، ويصلح أن يشترى بالذهب والورق غيرهما من التبر إلى أجل معلوم وبوزن معلوم.

وكان الياقوت والزبرجد أكثر ثمناً من الذهب والورق، فلما لم يأخذ منهما رسول الله، ولم يأمر بالأخذ ولا من بعده علمناه، وكانا مال الخاصة، وما لا يقوم به على أحد في شيء استهلكه الناس، لأنه غير نقد: لم يؤخذ منهما.

ثم كان ما نقلت العامة عن رسول الله في زكاة الماشية والنقد: أنه أخذها في كل سنة مرة.

وقال الله: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١] فسن رسول الله أن يؤخذ

مما فيه زكاة من نبات الأرض، الغراس وغيره، على حكم الله جل ثناؤه: يوم يحصد، لا وقت له غيره.

وسن في الركاز الخمس، فدل على أنه يوم يوجد، لا في وقت غيره.

أخبرنا سفيان عن الزهري عن ابن المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «وفي الركاز الخمس».

ولولا دلالة السنة كان ظاهر القران أن الأموال كلها سواء، وأن الزكاة في جميعها، لا في بعضها دون بعض.

١١ ـ في الحج:

وفرض الله الحج على من يجد السبيل، فذكر عن النبي: أن السبيل الزاد والمركب، وأخبر رسول الله بمواقيت الحج وكيف التلبية فيه، وما سن، وما يتقي المحرم من لبس الثياب والطيب، وأعمال الحج سواها، من عرفة والمزدلفة والرمي والحلاق والطواف، وما سوى ذلك.

فلو أن امرأ لم يعلم لرسول الله سنة مع كتاب الله إلا ما وصفنا، مما سن رسول الله فيه معنى ما أنزل الله جملة، وأنه إنما استدرك ما وصفت من فرض الله الأعمال، وما يحرم وما يحل، ويدخل به فيه ويخرج منه، ومواقيته، وما سكت عنه سوى ذلك من أعماله: قامت الحجة عليه بأن سنة رسول الله إذا قامت هذا المقام مع فرض الله في كتابه مرة أو أكثر: قامت كذلك أبداً.

واستدل أنه لا تخالف له سنة أبداً كتاب الله، وأن سنته، وإن لم يكن فيها نص كتاب: لازمة، بما وصفت من هذا، مع ما ذكرت سواه، مما فرض الله من طاعة رسوله.

ووجب عليه أن يعلم أن الله لم يجعل هذا لخلق غير رسوله.

وأن يجعل قول كل أحد وفعله أبداً: تبعاً لكتاب الله ثم سنة رسوله.

وأن يعلم أن عالماً إن روي عنه قول يخالف فيه شيئاً سن فيه رسول الله سنة:

لو علم سنة رسول الله لم يخالفها، وانتقل عن قوله إلى سنة النبي، إن شاء الله، وإن لم يفعل كان غير موسع له.

فكيف والحجج في مثل هذا لله قائمة على خلقه، بما افترض من طاعة النبي، وأبان من موضعه الذي وضعه به من وحيه، ودينه وأهل دينه.

١٢ ــ في العدة:

قال الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشراً ﴾. [البقرة: ٢٣٤].

وقال: ﴿ وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصن بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوء ﴾. [البقرة: ٢٢٨].

وقال: ﴿ وَاللائي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائكُمْ إنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أشهُرٍ وَاللائي لَمْ يَحِضْنَ، وأولاتُ الأحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾. [الطلاق: ٤].

فقال بعض أهل العلم: قد أوجب الله على المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، وذكر أن أجل الحامل أن تضع، فإذا جمعت أن تكون حاملاً متوفى عنها: أتت بالعدتين معاً، كما أجدها في كل فرضين جعلا عليها أتت بهما معاً.

قال: فلما قال رسول الله لسبيعة بنت الحارث، ووضعت بعد وفاة زوجها بأيام: «قد حللت فتزوجي»: دل هذا على أن العدة في الوفاة والعدة في الطلاق بالأقراء والشهور: إنما أريد به من لا حمل به من النساء، وأن الحمل إذا كان فالعدة سواه ساقطة.

* * *

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً كاملاً للإنسان الكامل، وكانت سيرته عظةً للمتقين، وآيات واضحة المحجة، قوية الحجة، تهدي الضال، وتنير الطريق المظلم، وتنبه الغافل، وتردع الجاهل، وتجلي الحق حقاً، والباطل باطلاً.

وفي السيرة النبوية العظات والعبر، والحكمة البالغة، والدروس العالية، التي تنير البصيرة، وتهذب النفس، وتطهر الروح، وتدعو إلى توخّي الحق، ومناصرة الفضيلة، والتضحية بالنفس والمال.



أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم

وسيرته العطرة وأفعاله

تطبيق مثالي واقعي للإسلام

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين شرائع الإسلام أحياناً بالقول وأحياناً بالفعل، وقد كان ذا شخصية قوية اختصه الله بكل خلق نبيل، وحرسه بعنايته، وحفظه برعايته، وأيده بجوامع الكلم، مع الفصاحة وقوة الحجة، وطهارة القلب، وقوة الإرادة، وثبات العزيمة، ولين الجانب، والتمسك بالحق، وإقامة العدل فكان خير قدوة للناس جميعاً.

لقد ظهرَ بين العرب وكانوا في انحلال اجتماعي، وجهلٍ مُطْبِقٍ، وشقاقٍ دائم، فكوّن منهم أمة عظيمةً، وبعثَ طاقاتهم، وحَوَّل خامات الجاهلية إلى عجائب إنسانية، وأنشأ جيلاً قوياً راسخَ العقيدة، ثابت العزيمة، شديد الإيمان، طاهر الخلق، عظيم الأمانة، خاضعاً للحق، متمسكاً بالعدل والشورى.

في خطبته الأولى بالمدينة نادى بالإحسان إلى الفقراء، والعطف على المساكين، وقال:

«من استطاعَ أن يَقِيَ وجهَهُ مِنَ النّارِ ولو بشقّ تَمْرةٍ فليفعلْ، ومن لم يجد فبكلمةٍ طيبة، فإنَّ بها تُجزَى الحسنَةُ عَشْرَ أَمْثالِها».

فالمؤمنون إخوة «ولا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه».

وهم سواسية في دين الله، أخوة فيما بينهم، ومن تصرفاته، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما نهر رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً في حياته، لقد كان ألين الناس بسّاماً ضحاكاً».

ولقد كان في سفر، فأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل:

— يا رسول الله! عليَّ ذبحها.

وقال آخر: عليَّ سلخها.

وقال ثالث: عليَّ طبخُها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، عليَّ جمع الحطب.

فقالوا: يا رسول الله، نكفيك العمل!

فقال: علمت أنكم تكفونني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، وإن الله يكره من عبدٍ أن يرام متميزاً بين أصحابه».

وقد كوَّن النبي صلى الله عليه وسلم جيلاً يعدّ مثلاً عالياً في علو النفس، وصفاء الطبع، ورقة الجانب، ورجاحة العقل، وطهارة الخلق، وإقامة العدل، والخضوع للحق.

وقد أحدث النبي صلى الله عليه وسلم هذا التطور بالتأييد الرباني، فقد نشأ يتيماً فقيراً بين قومه الفقراء، ولم يكن له مؤدب يعتني بتأديبه، أو مربٍّ يتولى تهذيبه وتثقيفه إلا طهارة العقيدة، والاعتصام بالفضيلة، وقد حدث عن نفسه، فقال:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي».

وكان صلى الله عليه وسلم — مع فقره وتقشفه وزهده وتواضعه — مثالاً للعظمة الخلقية والعقلية، والعلمية والإنسانية:

* «إنما أنا بشر مثلكم».

* «قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلا ما شاء الله».

فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَلَكاً من الملائكة، بل كان إنساناً مثالياً كاملاً، بلغ في المكارم أعلى ذراها، فكان المثل لكل فضيلة، فعرف بالايثار، ونكران الذات، والبساطة في المعيشة، يشارك كل متألم في آلامه، وكل

حزين في أحزانه، يزور المرضى، ويواسي الجرحى، ويعين المحتاج، والفقير، والمسكين، وقد استطاع أن يوجز في أربعة أحاديث المقصود من الشريعة الإسلامية، وهي:

(١) إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى.

(٢) الحلال بَيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ، وبينَهُما أمورٌ مشتبهاتٌ، ومن يَحُمْ حَوْلَ الحِمى يوشك أن يقعَ فيه.

(٣) من حُسْنِ إسْلامِ المرء تَركُه ما لا يعنيه.

(٤) دع ما يَرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ.

فهذه أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وسيرته العطرة، وما السنة النبوية إلا ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

وقد قيل: إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم.

والوسيلة الوحيدة لنيل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم هو علم الحديث.

فالأحاديث تبين معاني القرآن وترشد إلى المعرفة التامة بآثار حامل الوحي وأحواله، وبيان شرعه وأحكامه، وتاريخ دينه وأيامه، ووصف أخلاقه وآدابه، وأحوال آله وأصحابه.

ولا يمكن الوقوف على شتى نواحي الشريعة الغراء إلا بدراسته علم الحديث.

والسنة النبوية إما أن تكون بياناً للقرآن أو زيادة عليه، وقد تأيد ذلك بجملة من الأخبار والآثار، فمن ذلك حديث معاذ الذي أخرجه أبو داود والترمذي: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي».

وكتب عمر بن الخطاب إلى شريح القاضي: «إذا أتاك أمر فاقضِ بما في

كتاب الله، فإن أتاك بما ليس في كتاب الله، فاقضِ بما سنّ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وروي عن ابن مسعود: «من عرض له منكم قضاء فليقـضِ بما في كتاب الله، فإن جاءه ما ليس في كتاب الله، وكان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال به».

وكان أبو بكر وعمر بن الخطاب ــ رضي الله عنهما ــ إذا عرضت لهما حادثة نظرا في كتاب الله فإن لم يجدا حكمها فيه، نظرا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعلى ذلك كان الصحابة والتابعون والأئمة، والمجتهدون.

تدوين السنة



تدوين الحديث

- اهتمامه صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن دون كتابة الحديث.
- النهي عن كتابة الحديث كان في بدء الأمر.
- صحف من الحديث كتبت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.
- الاستشهاد بآيات من القرآن على وجوب الكتابة.
- كتابة رافع بن خديج، وغيره.
- تفاوت الصحابة في الإكثار من الرواية والإقلال.
- كتابة الحديث في عصر الصحابة.
- بدء تدوين الحديث.
- الحديث في القرن الثاني الهجري.
- الحديث في القرن الثالث الهجري.
- جمع المسانيد وأول من صنف المسند.
- الكتب الستة.



وجه اهتمامه صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن دون كتابة الحديث:

هذا ولم يدون الحديث النبوي في عهده صلى الله عليه وسلم كما دُوِّن القرآن، ولم يتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كَتَبَةً يكتبونه كما اتخذ كتبةً للقرآن الكريم يكتبون آياته عند نزوله، وما ذاك إلاَّ لأنَّ القرآن وحيٌ كله بألفاظه ومعانيه. نزل به الروح الأمين على قلبه، وأما السُّنةُ فألفاظها من عند الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كانت السنة كلها إداءة من الله تعالى كما نصَّ عليه الكتاب العزيز، وهذا أصل السِّر لاهتمامه صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن وعدم الاهتمام بكتابتها، فإن لألفاظ القرآن مدخلاً أي مدخل مكان لفظ وإن كان مرادفاً له، بخلاف الحديث فإن معظم المقصود منه معرفة حكم يتعلق به لا غير.

وكان العرب أمةً أميةً، لا يقرأون إلاَّ ما تخطه الطبيعة، ولا يكتبون إلاَّ ما يلقَّنون من معانيها، فكان الحسُّ والحفظ هو مدار إحصائهم. وكان كل عربي كتاباً أو جزءاً من كتاب، وقد فطرهم الله على الحفظ، فكانوا يعون ما يسمعون، ويستظهرون ما يلقى إليهم من الخطب والأشعار والقصص والأخبار، وإذا أردت مصداق ذلك فاعتبر ما اتسعوا فيه من التفاخر والتفاضل بالأحساب والأنساب، والتعاير بالمثالب والتنابز بالألقاب، فنشأوا على ذلك جيلاً بعد جيل، فتمكنت لهم من طول المرانة حافظة قوية، وذاكرة صافية، وبديهة حاضرة، فلم يكن أحدهم عاجزاً أن يؤدي ما وعاه متى دعت الحاجة إلى ذلك.

فلما جاء الإسلام، وكان مرجع الأحكام فيه إلى الكتاب والسنة، كان الصحابة يأخذون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذاً علمياً ليتفقهوا في الدين، وليكونوا في جهة القصد من أمرهم اختياراً للصواب، وصداً عن الخطأ، فكانت مجالسه صلى الله عليه وسلم هي الحلقات العلمية الأولى التي عرفت في التاريخ الإسلامي كله، كما كان صلى الله عليه وسلم أول من علَّم، وأول من

صدرت عنه الرسائل التي تشبه المؤلفات العلمية: كرسالة الزكاة التي أملاها، وكانت عند أبي بكر رضي الله عنه، وكان الصحابة يحفظون حديث نبيهم وهم يعلمون أن هذا الحديث تبيان لما أجمل في الكتاب، وتفصيل له، وهذا الكتاب هو الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذا النبي هو الذي نصروه وعزروه ووقروه، وبه أنقذهم الله من العمى والضلالة.

تحقيق أن النهي عن كتابة الحديث كان في بدء الأمر

لم يأذن النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة أن يكتبوا عنه غير القرآن، فقد جاء في صحيح مسلم في كتاب الزهد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدِّثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار».

لقد كان ذلك النهي في بدء الأمر مخافة أن يختلط غير القرآن بالقرآن، وعلى الأخص عند قوم أميين قد يتصور فيهم أن يفهموا أن كلاً من بابة واحدة، فخاف أن يخلطوا بين القرآن والحديث، فيدخلوا في القرآن ما ليس منه، أو ينقصوا منه شيئاً هو منه.

وقد بيَّن العلماء أن هذا النهي منسوخ بتلك الأحاديث التي أجازت الكتابة، وأن آخر الأمرين كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الإذن لأصحابه بكتابة الحديث، لأن القرآن الكريم كان قد حفظه الكثيرون من الصحابة وأمن النبي صلى الله عليه وسلم من الاختلاط بغيره، كما أن النهي كان لأشخاص معينين، وفي وقت معين، أو في شيء محدد.

صحف من الحديث كتبت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

أخرج البخاري في كتاب العلم (١:٣٨) من صحيحه «طبعة بولاق» وفي باب فكاك الأسير (٤:٨٤)، وأحمد في المسند (١:٧٩)، عن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلاّ ما في كتاب الله؟ قال: والذي فلق الحبَّة، وبرأ النسمة ما أعلمه إلاَّ في القرآن، وما في هذه

الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وأخرج البخاري في باب ذمة المسلمين (١٢٢:٤)، وباب إثم من عاهد ثم غدر (١٢٤:٤)، وأحمد في المسند (٨١:١)، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: خطبنا علي بن أبي طالب، فقال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلاّ كتاب الله، وما في هذه الصحيفة، فيها الجراحات وأسنان الإبل، والمدينة حرم ما بين عير إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى فيها محدثاً فعليه لعنة الله، والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، ومن تولّى غير مواليه فعليه مثل ذلك، وذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلماً فعليه مثل ذلك.

وقد كان الإمام علي بن أبي طالب أحد كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد قالت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأديم وعلي بن أبي طالب عنده، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُملي وعلي يكتب حتى ملأ بطن الأديم وظهره وأكارعه، وكانت لديه صحيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتفظ بها في قراب سيفه.

جاء في أسد الغابة، والاستيعاب في ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: يا رسول الله أكتب ما أسمع منك؟ قال: نعم، قلت: في الرضا والغضب؟ قال: نعم، قال: فإني لا أقول إلاّ حقاً.

وجاء في مسند أحمد (٢١٥:٢) عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قلنا: يا رسول الله إنّا نسمع منك أحاديث لا نحفظها، أفلا نكتبها؟ قال: بلى فاكتبوها.

جاء في صحيح البخاري، أنظر عمدة القاري (٥٧٣:١)، ومسند أحمد (٢٤٨:٢)، وغيرهما: عن أبي هريرة قال: ما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً عنه مني إلاّ ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب، وكنت لا أكتب.

وقد ورد في الاستيعاب عن أبي هريرة أنه قال: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلاّ عبد الله بن عمرو، فإني كنت أعي بقلبي،

ويعي بقلبه ويكتب، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن له.

وهذه الرواية مشهورة في إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص بالكتابة، وكانت تسمى هذه الصحيفة: الصادقة، صحيفة كتبتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانظر في خبر هذه الصحيفة (١:٥٧٢) نقلاً عن القاضي عياض.

قال مجاهد: أتيت عبد الله بن عمرو، فتناولت صحيفة من تحت مفرشه، فمنعني، قلت: ما كنت تمنعني شيئاً، قال: هذه الصادقة، هذه ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه أحدٌ إذا سلّمت لي هذه، وكتاب الله تبارك وتعالى والوهط، فما أبالي ما كانت عليه الدنيا.

وقد روى مجاهد أيضاً عن عبد الله بن عمرو، قال: ما يرغبني في الحياة إلاّ خصلتان: الصادقة، والوهطة، فأما الصادقة فصحيفة كتبها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الوهطة فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها.

أخرج البخاري في كتاب العلم: عمدة القاري (١:٥٦٧)، وأخرجه الترمذي، وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة، قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى حبس عن مكة الفيل وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لم تحلّ لأحدٍ كان قبلي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار وإنها لن تحلّ لأحد بعدي، فلا ينفر صيدها، ولا يختلى شوكها، ولا تحلُّ ساقطتها إلاّ لمنشدٍ ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إما أن يُفدي، وإما أن يُقتل.

فقال العباس: إلاّ الأذخر يا رسول الله، فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا، فقال: إلاّ الأذخر، فقام أبو شاه ــ رجل من أهل اليمن ــ فقال: اكتبوا لي يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتبوا لأبي شاه.

وروى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمرو، قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: تكتب كل شيء تسمعه ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا: فأمسكت عن الكتابة، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه

وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: أكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلاّ حق. سنن أبي داود ــ باب «كتاب العلم».

الاستشهاد بآيات القرآن الكريم على وجوب الكتابة

في سورة البقرة الآية (٢٨٢): ﴿ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألاّ ترتابوا﴾.

فلما أمر الله تعالى بكتابة الدَّيْن حفظاً واحتياطاً عليه وإشفاقاً من دخول الرِّيب فيه، كان العلم الذي حفظه أصعب من حفظ الدِّين أحرى أن تباح كتابته خوفاً من دخول الريب والشك فيه، ألا ترى أن الله عز وجل كتب الشهادة فيما يتعاطاه الناس من الحقوق بينهم عوناً عند الجحود وتذكرة عند النسيان. وجعل في عدمها عند الموهين بها أوكد الحجج ببطلان ما أدعوه فيها، فن ذلك أن المشركين لما ادعوا بهتاً اتخاذ الله سبحانه بنات من الملائكة، أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: ﴿ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾.

الآية (١٥٧) من «سورة الصافات».

ولما قالت اليهود: ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ الأنعام (٩١)، وقد استفاض عنه قبل ذلك للإيمان بالتوراة، قال الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم قل لهم: ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ الأنعام (٩١)، فلم يأتوا على ذلك ببرهان، فأطلع الله على عجزهم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ الأنعام (٩١):

وقال تعالى رداً على متخذي الأصنام آلهة من دونه: ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض، أم لهم شرك في السموات، ائتوني بكتاب من قبل هذا، أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ الأحقاف الآية (٤). والأثارة هو ما أثر من كتب الأولين، وكذلك سبيل من ادَّعَى علماً أو حقاً من حقوق الأملاك أن يقيم دون الاقرار برهاناً: إمّا شهادة ذوي عدلٍ، أو كتاباً غير مموه، وإلاّ فلا سبيل إلى تصديقه.

كتاب رافع بن خديج

أورد الخطابي في معالم السنن (١٨٤:٤)، وابن الأثير في أسد الغابة، والخطيب البغدادي (٢٢٨:٨) من كتاب تاريخ بغداد، ومصادر أخرى كثيرة أنَّ مروان بن الحكم خطب الناس فذكر مكة وأهلها وحرمتها، فناداه رافع بن خديج، فقال: مالي أسمعك ذكرت مكة وأهلها وحرمتها، ولم تذكر المدينة وأهلها وحرمتها؟ وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتيها، وعندنا ذلك في أديم خولاني إن شئت أقرأته، فقال: فسكت مروان، ثم قال: قد سمعت بعض ذلك.

ولو لم يكن في هذا الباب إلاَّ وقوع العلم بما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من عهود السُّعاة على الصدقات وكتابه لعمرو بن حزم لما بعثه إلى اليمن لكفى، إذ فيه الأسوة، وبه القدوة.

وروى ابن عبد البر في جامع بيان العلم عن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قيِّدوا العلم بالكتاب».

والآثار في هذا الباب كثيرة شهيرة أخرجها الدارمي في سننه، والخطيب البغدادي في تقييد العلم، وابن عبد البر في جامعه، وغيرهم.

وعلى كل حال فلم يكن تدوين الحديث شائعاً في عصره صلى الله عليه وسلم، وإنما كان جلُّ اعتمادهم على حفظه في الصدور، وضبطه في القلوب، وذلك لسرعة حفظهم وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعلمون الكتابة، ويوجد فيهم اناس كانوا يعتنون بكتابة الحديث كعبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنه ــ، وقليل ما هم.

مضى عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والأمر على ذلك، وإنما كان قصارى همهم نشر الحديث بطريق الرواية، وهي التي أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: «حدِّثوا عني ولا حرج».

وقال لوفد عبد القيس حين أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: احفظوهن عني، وأخبروا بهن من وراءكم.

وقال صلى الله عليه وسلم: «نضَّر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها، ووعاها وأدَّاها، فربَّ حامل فقه غير فقيه، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

تفاوت الصحابة في الاكثار
من الرواية والإقلال

والصحابة رضي الله عنهم قد تفاوتوا في الاكثار من الرواية، والاقلال، والاستيثاق والتثبت؛ فمن مكثر ومن مقلّ، ومن متثبتٍ في الرواية ومتحر، ومن متسع فيها غير متحرج.

فالكبار من الصحابة رضي الله عنهم كان الغالب عليهم التوقّي في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والتحري والتثبت والاقلال في الرواية، فقد أخرج ابن سعد، وابن عساكر، عن عبد الرحمن بن حاطب، قال: ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حدث أتم حديثاً ولا أحسن من عثمان بن عفان إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث.

وأخرج البخاري في صحيحه في باب «إثم من كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم» عن عبد الله بن الزبير، قال: قلت للزبير: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان، قال: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار.

وروى البخاري في صحيحه ـــ في باب «الفهم في العلم» عن مجاهد، قال: صحبت عبد الله بن عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديثاً واحداً.

قال الذهبي في تذكرة الحفاظ في ترجمة عبد الله بن مسعود: إنه الامام الرباني أبو عبد الرحمن عبد الله بن أم عبد الهذلي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه، وأحد السابقين الأولين، ومن كبار البدريين، ومن نبلاء الفقهاء المقربين، وكان ممن يتحرى في الأداء ويشدّد في الرواية ويزجر تلاميذه عن التهاون في ضبط الألفاظ، وكان يقلُّ من رواية الحديث، ويتورع في الألفاظ، ويروي الذهبي أيضاً، عن أبي عمرو الشيباني، قال: كنت أجلس إلى عبد الله ابن مسعود حولاً، لا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم استعلته الرعدة، وقال: هكذا، أو نحو ذا، أو قريب من ذا، أو، أو، وما كان ذلك إلا لخشية أن ينتشر الكذب والخطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان بعضهم مولعين بكثرة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى لو استطاعوا أن يعدوا عليه أنفاسه لفعلوا، وكان من هذا الفريق أبو هريرة رضي الله عنه، فقد أكثر من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى تحدث الناس عنه، وحتى اضطر أن يعتذر عن كثرة ما حدث.

أخرج البخاري في صحيحه في باب «حفظ العلم» من طريق الأعرج، عن أبي هريرة، قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً، ثم يتلو: ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى... ﴾ إلى قوله: ﴿ الرحيم ﴾، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن أخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشبع بطنه، ويحضر مالا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون.

هذا وقد كان بعض انتقادات من الصحابة على بعض مرويات المولعين بكثرة التحديث الذين يسردون الحديث سرداً، فقد روى ابن ماجة في سننه، باب «الوضوء مما غيرت النار» عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: توضؤوا مما غيرت النار، فقال ابن عباس: أتوضأ من الحميم؟ فقال له: يا ابن أخي إذا سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فلا تضرب له الأمثال.

وأخرج الامام أحمد في مسنده (٦:٢٤٦) عن أبي حسّان الأعرج: أن رجلين دخلا على عائشة، فقالا: إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار، قال: فطارت شقة منها في السماء، وشقة في الأرض، فقالت: والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم، ما هكذا كان يقول، ولكن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: كان أهل الجاهلية يقولون: الطيرة في المرأة والدار والدابة، ثم قرأت عائشة: ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب... ﴾ إلى آخر الآية.

والعذر لأبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع آخر الحديث ولم يسمع أوله، فأداه كما سمع.

أخرج الطيالسي في مسنده عن مكحول: قيل لعائشة: إن أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشؤم في ثلاث: في الدار، والمرأة والفرس، فقالت عائشة: لم يحفظ أبو هريرة لأنه دخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قاتل الله اليهود، يقولون: إن الشؤم في ثلاث في الدار والمرأة والفرس، فسمع آخر الحديث، ولم يسمع أوله.

وأخرج الطيالسي أيضاً، عن علقمة، قال: كنا عند عائشة، فدخل عليها أبو هريرة، فقالت يا أبا هريرة: أنت الذي تحدث أن امرأة عذبت في هرة لها، ربطتها، ولم تطعمها، ولم تسقها؟ فقال أبو هريرة: سمعته منه يعني النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا، قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذب في هرة، فإذا حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانظر كيف تحدث.

كتابة الحديث في عصر الصحابة

أحجم الصحابة عن كتابة الحديث النبوي في كتاب، خوفاً من أن تختلط بالقرآن، أخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١:٦٤): أن عمر بن الخطاب فكر في جمع السنة، ثم لم يلبث أن عدل عن ذلك، عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً، وقد عزم الله له، فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً.

وفي رواية من طريق مالك بن أنس أن عمر بن الخطاب قال عندما عدل عن كتابة السنة: لا كتاب مع كتاب الله.

وأخرج الخطيب البغدادي في تقييد العلم تحت عنوان: عمر يعدل عن كتب السنن ويحرق الكتب لذلك... عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له، فقال: إنِّي كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبُّوا عليها، وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً.

وعن عبد الله بن عمر، عن عمر بن الخطاب، أنه أراد أن يكتب السنن، فاستخار الله شهراً، ثم أصبح، فقال: إني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه، وتركوا كتاب الله عز وجل.

وعن عرفطة، قال: كنت جالساً عند عمر، إذ أتي برجل من عبد القيس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي، قال: فضربه بقناة معه، فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس، فجلس، فقرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿الر، تلك آيات الكتاب المبين، إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ إلى ﴿لمن الغافلين﴾ [يوسف: ١-٣]، فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دنيال؟ قال: مرني بأمرك أتبعه، قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أحداً من الناس. لأنهكنك عقوبة، ثم قال له اجلس، فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا في يدك يا عمر قال: يا رسول الله كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم صلى الله عليه وسلم السلاح، السلاح، فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أيها الناس إني أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختُصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تتهوكوا، ولا يقربكم المتهوكون»، فقال عمر: فقمت فقلت:

رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، تقييد العلم صفحة (٥٢).

وقد أورد الخطيب البغدادي مثل ذلك عن عبد الله بن مسعود، وعن غيرهما، ثم قال فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأول إنما هي لئلا يضّاهى بكتاب الله تعالى غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه، ونهي عن الكتب القديمة أن تتخذ لأنه لا يعرف حقها من باطلها، وصحيحها من فاسدها مع أن القرآن كفى منها، وصار مهيمناً عليها.

ونُهي عن كتب العلم في صدر الإسلام وجدته لقلة الفقهاء في ذلك الوقت والمميزين بين الوحي وغيره، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا في الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن.

وهكذا انقضى القرن الأول الهجري، والأحاديث مروية على الألسنة محفوظة في الصدر، والمسلمون يعتنون بها أشد العناية، ولم يوضع لها نظام خاص لتدوينها فإنما كان يدون لنفسه، وكانوا يروونها شفاهاً وحفظاً ومنهم من هو مكثر في الرواية غير متحرج لأنه على ثقة واطمئنان من أنه يحدث كما سمع، راجياً أن يدخل في زمرة من دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «نضَّر الله امرءاً سمع منّا شيئاً فبلغه كما سمعه، فربَّ مبلغ أوعى من سامع» أخرجه الترمذي، في باب «ما جاء في الحث على تبليغ السماع» من حديث عبد الله بن مسعود، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ومن الصحابة من كان مُقلاً متورعاً مخافة أن يبدل كلمة بكلمة فيدخل في عموم قوله صلى الله عليه وسلم: «من كذب عليَّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النّار».

بدء تدوين الحديث النبوي الشريف

مضى القرن الأول من الهجرة وشأن الحديث قد حفظ في الصدور، ودون بعض الصحابة لنفسه ما أراد أن يدون، ولم يكن من المعقول أن يترك الحديث

فوضى لا يدون في كتاب، فإن الخاطر يغفل، والذكر يهمل، والذهن يغيب، والقلم يحفظ ولا ينسى، والعرب وإن كانوا نشأوا جيلاً بعد جيل على قوة الحفظ وشدة الوعي، ودأبهم نقل العلم وروايته شفاهاً وحفظاً، لكن الإسلام قد عم البلاد، ودخل فيه طوائف من العجم لا يحصيهم إلا الله، ولم يكن دأبهم الحفظ في الصدور والضبط في القلوب، بل كانوا يحملون ما يحملون من العلم في صحف يقرؤونها وكتب يدرسونها، فلما انتشر الاسلام وكثرت الفتوح، وتفرقت الصحابة في الأمصار، ومات معظمهم، وتفرق أتباعهم، وقل الضبط شيئاً فشيئاً احتاج العلماء إلى تدوين الحديث وتقييده بالكتابة.

الحديث في القرآن الثاني الهجري

تتفق جميع المصادر على أن عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين رضي الله عنه أول من تنبه لتدوين السنة، وكان رحمه الله إماماً فقيهاً مجتهداً عارفاً بالسنن كبير الشأن قانتاً لله أواهاً منيباً، فخشي رحمه الله وهو أحق الناس بذلك دروس العلم، وذهاب العلماء، فكتب إلى الآفاق يأمرهم بجمع السنن.

روى عمر بن عبد العزيز أن الحديث متعلق بأفراد الرجال، وقد أسرع الموت فيهم، وأن أحدهم ربما طويت معه طائفة من الخبر إذا هو مات، وخشي تزيد الناس وشيوع الكذب إذا قل الصحيح، وكانت قد فشت في زمنه أشياء مما يتعمد فيه الكذب لغير مصلحة يتأول عليها، كالأحاديث التي كان يكذب فيها على عكرمة مولى عبد الله بن عباس المتوفى (١٠٥)، وبرد مولى سعيد بن المسيب المتوفى (٩٤)، وغيرهما.

وقبل ذلك تكلم معبد الجهني، ثم غيلان الدمشقي في القدر، وجعلا الكلام في القدر نُحلةً يناظر فيها، وقد وضعا شيئاً من الأحاديث، وفي هذا القرن ظهرت الخوارج، وحدثت الشيعة، ودخل في الإسلام أمم لا يحصون، وفيهم من لا يجاوز إيمانهم تراقيهم، وقد وجد الخبيث في كل فرقة من هؤلاء، والمسلمون إذ ذاك لا يقبلون من العلم إلا ما ثبت من الكتاب والسنة، وأراد هؤلاء الخبثاء أن يفسدوا على المسلمين دينهم ولم يتمكنوا أن يزيدوا في كتاب الله حرفاً أو ينقصوا منه شيئاً، ففتحوا باب الجدل والمراء في القرآن، ووجدوا الحديث لم يدون في كتاب خاص

يرجع إليه المسلمون، فدخلوا منه على الناس فوضعوا كثيراً من الأحاديث، وأذاعوها بينهم، ولكن الله عز وجل قد حفظ حوزة الدين من أن يُسلط عليه كل مسرف كذاب، فيحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

فخشي عمر بن عبد العزيز عاقبة ذلك، وما أشبهه، فكتب إلى أبي بكر بن حزم نائبه في الإمرة والقضاء على المدينة «توفي سنة ١٢٠» أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء.

جاء في تنوير الحوالك للسيوطي (١:٤-٥): أخرج الهروي في ذم الكلام من طريق يحيى بن سعيد، عن عبد الله بن دينار، قال: لم يكن الصحابة، ولا التابعون يكتبون الحديث، إنما كانوا يؤدونه لفظاً، ويأخذونه حفظاً، إلا كتاب الصدقات، والشيء اليسير الذي يقف عليه الباحث بعد الاستقصاء، حتى خيف عليه الدروس، وأسرع في العلماء الموت، فأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمي فيما كتب إليه أن انظر ما كان من سنةٍ أو حديث عمر، فاكتبه.

ويروي الامام العالم الرباني الفقيه محمد بن الحسن الشيباني في موطئه: أخبرنا مالك، أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سنته، أو حديث عمر ونحو هذا فاكتبه لي، فإني خشيت دروس العلم وذهاب العلماء.

يعني من أحاديث بقية الخلفاء ونحوهم، كذا قال الشيخ محمد عبد الحي اللكنوي في التعليق الممجد على موطأ الامام محمد، وعلقه البخاري في صحيحه — باب «كيف يقبض العلم»، فقال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر ابن عمرو بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء، ولا يقبل إلا حديث النبي صلى الله عليه وسلم وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً.

وأخرج الدارمي في سننه ـ باب «من رخَّص في كتابة العلم» عن عبد الله ابن دينار ـ قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم أن اكتب إلي بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبحديث عمر، فإني قد خشيت دروس العلم، وذهاب العلماء.

وأخرج ابن عبد البر في التمهيد من طريق ابن وهب، قال: سمعت مالكاً يقول: كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلمهم السنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسألهم عن ماضي، وأن يعلموا بما عندهم، ويكتب إلى أبي بكر بن عمرو بن حزم أن يجمع السنن ويكتب إليه بها، فتوفي عمر بن عبد العزيز، وقد كتب ابن حزم كتباً قبل أن يبعث بها إليه. تنوير الحوالك (١:٥).

وذكر ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب (١٢:٣٩): قال أبو ثابت، عن ابن وهب، عن مالك: لم يكن عندنا أحد بالمدينة عنده علم القضاء، ما كان عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وكان ولاه عمر بن عبد العزيز، وكتب إليه أن يكتب إليه من العلم من عند: عمرة، والقاسم بن محمد، ولم يكن بالمدينة أنصاري أميرٌ غير أبي بكر بن حزم، وكان قاضياً.

وجاء في فتح الباري: أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب أيضاً إلى علماء الآفاق، انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه.

كما أمر عمر بن عبد العزيز محمد بن مسلم الزهري عالم الحجاز والشام، وصاحب اليد البيضاء على فن الرواية، لأنه أول من قرر شروطها (المتوفى سنة ١٢٤ هجرية) فدون الحديث تدويناً مراعياً فيه شروط الرواية الصحيحة.

وأخرج ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١:٢٣)، عن سعيد بن زياد مولى الزبير، قال: سمعت ابن شهاب يحدث سعد بن إبراهيم: أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً.

قال ابن عبد البر، عن مالك بن أنس، أول من دون العلم ابن شهاب الزهري.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن الشعبي أيضاً قد جمع الأحاديث الواردة في باب واحد، فانه روى عنه أنه قال: هذا باب من الطلاق جسيم، وساق فيه أحاديث.

وقد اختلف في وفاة الشعبي من سنة ثلاث إلى عشرة ومائة، ويكون بذلك قد توفي قبل الزهري بأربعة عشر عاماً، وقبل أبي بكر الحزمي بعشرة أعوام.

قال ابن معين: قضى الشعبي لعمر بن عبد العزيز، وكان قد ولي قضاء الكوفة، وأدرك خمسمائة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني في «ما تمس إليه الحاجة لمن يطالع سنن ابن ماجه»: ثم — يجيء بعد هؤلاء سراج الأمة، فقيه الملّة، حافظ السنة الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه، فيغلب الناس بالحفظ والفقه والصيانة وشدة الورع، فقد روى الحافظ الذهبي في مناقب أبي حنيفة عن مسعر بن كدّام، قال: طلبت مع أبي حنيفة الحديث، فغلبنا وأخذنا في الزهد، فبرع علينا، وطلبنا معه الفقه فجاء منه ما ترون.

وقد صنف الامام أبو حنيفة كتاب الآثار، التي رواها محمد بن الحسن عنه، ويوجد في تصانيف محمد بن الحسن، وأبي يوسف قبله من حديث أبي حنيفة أشياء أخرى.

قال النعماني: وصفوة القول إن كتاب الآثار جمع إمام عظيم، طبق علمه الشرق والغرب. وجمعه بعد أن أخذ الحديث عن خيار التابعين العدول الثقات الذين هم من خير القرون بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الامام السيوطي الشافعي في تبييض الصحيفة (١٤٤): ومن مناقب أبي حنيفة التي انفرد بها أنه أول من دون علم الشريعة، ورتبه أبواباً، ثم تبعه مالك بن أنس في ترتيب الموطأ، ولم يسبق أبا حنيفة أحد.

وكذلك الحال في مؤلفات أصحاب مالك رضي الله عنه، فهذا عبد الله بن وهب الامام الحافظ من كبار أصحابه يذكر فيه الذهبي وغيره أنه وجد في تصانيفه مئة ألف وعشرون حديثاً من رواياته، ومع هذه لا يوجد في أحاديثه منكر فضلاً

عن ساقطٍ وموضوع، ومن تصانيفه كتاب مشهور بجامع ابن وهب وكتاب المغازي، وكتاب تفسير الموطأ، وكتاب القدر.

وكان الإمام مالك أول من دون الحديث ورتبه على أبواب الفقه، وجاء به مع ذلك على شروط الرواية، فقد رواه عن ثلاثمائة شيخ من التابعين، وستمئة شيخ من تابعيهم ممن اختاره وارتضى فهمه ودينه وقيامه بحق الرواية وشروطها، وأنه ترك الرواية عن أهل دين وصلاح كانوا لا يعرفون الرواية، وكان بذلك أول من فعل ذلك، وقيل ان عبد الملك بن جريج سبقه إليه.

ودون محمد بن إسحاق المتوفى (١٥١) بالمدينة المنورة، وصنف محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب المتوفى (١٥٨) موطأ أكبر من موطأ مالك، كما دون الربيع بن صُبيح المتوفى (١٦٠)، وسعيد بن أبي عروبة (م-١٥٦) وحماد بن سلمة (م-١٦٧) بالبصرة، وسفيان الثوري (م-١٦١)، ومعمر بن راشد (١٥٣) باليمن، والامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (م-١٥٧) بالشام، وعبد الله بن المبارك (م-١٨١) بخراسان، وهشيم بن بشير (م-١٨٣) بواسط، وجرير بن عبد الحميد (١٨٨) بالري، وعبد الله بن وهب (١٩٧) بمصر، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم، في النسج على منوالهم، وقد كان التصنيف بالنسبة إلى جمع الأبواب وضمها إلى بعضها في مؤلِف أو جامع، وأما جمع حديث إلى مثله في باب واحد، فقد قلنا إنه قد سبق إليه التابعي الجليل عامر الشعبي.

وكان معظم هذه المصنفات والمجاميع يضم الحديث الشريف، وفتاوى الصحابة والتابعين، كما يبرز لنا ذلك في موطأ الامام مالك بن أنس، ثم رأى بعضهم أن تفرد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في مؤلفات خاصة، فألفت المسانيد، وهي كتب تضم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسانيدها خالية من فتاوى الصحابة والتابعين، تجمع فيها أحاديث كل صحابي تحت اسم مسند فلان، ومسند فلان، وهكذا.

تدوين الحديث النبوي في القرن الثالث

ظهر على رأس المئتين أمورٌ كبحت عنان المحدثين عن الجريان في طريق الأقدمين:

١ — منها أن الأسانيد لم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها، لقرب العصر وممارسة النقلة وخبرتهم بهم، وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلدهم؛ فمنهم بالحجاز، ومنهم بالعراق، ومنهم بالشام، ومصر، والجميع معروفون مشهورون في أعصارهم، فكانوا يعتمدون في معرفة الرجال وعدالتهم على ما يخلص إليهم من مشاهدة الحال، وتتبع القرائن، فلما انقرض السلف، وذهب الصدر الأول أمعن من جاء بعدهم من أهل القرن الثالث في معرفة الرجال ومراتب هؤلاء النقلة وتفاوتهم في ذلك، وتميزهم فيه واحداً واحداً جرحاً وتعديلاً وحفظاً واتقاناً، حتى جعلوه علماً، دونوا فيه مدونات، وبحثوا، وناظروا في الحكم بالصحة والضعف والاتصال والانقطاع، وغير ذلك.

٢ — ومنها أنه قد عني الحفاظ في هذا القرن بمعرفة طرق الأحاديث، وأسانيدها، فرحلوا إلى أقطار الأرض، وبحثوا عن حملة العلم، وجمعوا الكتب، وتتبعوا النسخ، وأمعنوا في التفحص عن غريب الحديث، ونوادر الأثر، وربما وقع اسناد الحديث من طرق متعددة عن رواة مختلفين حتى كان يكثر عندهم من الأحاديث مئة طريق فما فوقها، فكثير عندهم من الأحاديث التي لا يرويها إلاَّ أهل بلد خاص، كأفراد الشاميين والمصريين، والحجازيين والعراقيين أو أهل بيت خاص كنسخة بريد عن أبي بردة، عن أبي موسى، ونسخة بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، أو لا يرويها عن الصحابة إلا رجل أو رجلان مع كون الصحابي مقلاً غير معروف بالرواية، ولا يرويها عنه إلا رجل أو رجلان ولم يعرف بتلك الرواية إلا أفراد قليلون، ولم يعمل عليها علماء الصحابة والتابعين ممن وسد إليهم الفتيا، فهؤلاء ظنوها أحاديث صحيحة، ولم يكن عندهم في التشريع أصول عامة يرجع إليها المجتهد، ولا أصول خاصة بالأبواب المختلفة، فكانوا لا يعتمدون في ذلك على قواعد من الأصول كاعتماد الفقهاء الذين مضوا قبلهم، ولكن إلى ما يخلص إليه الفهم، ويثلج به الصدر، فظهر الاختلاف في صنيع هؤلاء، وصنع من قدمنا ذكرهم من الأئمة الماضين في القرن الثاني، فأخذ هؤلاء بهذه الروايات التي جمعوها ودونوها، حرروها ونسخوها، وصفحوها على ميزان الرجال دون تلقي الأئمة الفقهاء من الصحابة والتابعين، ولم يكن عندهم فرق في ذلك سواء عمل بها الصحابة

والفقهاء أم لم يعمل بها، فعضوا عليها بالنواجذ، وخصوا بها عام الكتاب، وطرحوا قول كل صحابي، وفتوى كل تابعي يخالف مروياتهم، حتى جرهم ذلك إلى القول فيهم: بأنهم رجال ونحن رجال.

٣ ـ ومنها أن السلف فعلوا هذا وهذا، وكان كلا الفعلين مشهوراً بينهم، كان يصلون على الجنازة بقراءة وغير قراءة، كما يصلون تارة بالجهر بالبسملة، وتارة بغير الجهر بها، وتارة باستفتاح وتارة بغير استفتاح، وتارة برفع اليدين في المواطن الثلاثة، وتارة بغير رفع اليدين، وتارة يسلمون تسليمتين، وتارة يسلمون تسليمة واحدة، وتارة يقرأون خلف الإمام بالسر، وتارة لا يقرأونها، وتارة يكبرون على الجنازة أربعاً، وتارة خمساً، وتارة سبعاً، كان فيهم من يفعل هذا، وفيهم من يفعل هذا، كل ذلك ثابت عن الصحابة، كما ثبت عنهم أن منهم من كان يرجع في الأذان ومنهم من لم يرجع، فهذه الأمور كان أحدها أرجح من الآخر، فمن فعل المرجوح فقد فعل جائزاً، وقد كان الاختلاف في أولى الأمرين، ولم يكن في أصل المشروعية.

٤ ـ ومنها انقسام العلماء على قسمين: قسم حفاظ معتنون بالضبط والحفظ والأداء كما سمعوا، ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه، وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها، فالأول كأبي زرعة وأبي حاتم وابن وارة، وقبلهم كبندار محمد بن بشار، وعمرو الناقد، وعبد الرزاق، وقبلهم كمحمد بن جعفر غندر، وسعيد بن أبي عروبة وغيرهم من أهل الحفظ والاتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص، والقسم الثاني كمالك والشافعي والأوزاعي وإسحاق والإمام أحمد بن حنبل، والبخاري وأبو داود، وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية.

على أن أكثر الرواة النقلة كانوا يكرهون الخوض في المسائل ويهابون الفتيا، وكان أكبر همهم رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لهم كبير فقه فلم يطلعوا على دقة مدارك الأئمة المجتهدين.

كل هذه الأمور كان لها أثر خاص في تدوين الحديث، فوقع تدوينه بهذه الميزات، وأهمها العناية بنقد الأسانيد أكثر من العناية بنقد المتون.

ولعل أول خطوة حدثت في هذا الباب هي إفراد الحديث عن الفقه، فقد أفردت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجردت الصحف من أقوال الصحابة، وفتاوى التابعين، ورتبت المسانيد وتركت المراسيل، وروعي فيها الحديث بقطع النظر عن موضوعه وما يستنبط منه من الفقه.

جمع المسانيد وأول من صنف المسند

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في مقدمة فتح الباري:

إلى أن رأى بعض الأئمة منهم أن يفرد حديث النبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وذلك على رأس المائتين، فصنف عبيد الله بن موسى العبسي الكوفي مسنداً، وصنف مسدد بن مسرهد البصري مسنداً، وصنف أسد بن موسى الأموي مسنداً، وصنف نعيم بن حماد الخزاعي مسنداً وكان نزيلاً بمصر، ثم اقتُفي بعد ذلك أثرهم، فقل إمام من الحفاظ إلا وصنف حديثه على المسانيد، كالإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعثمان بن أبي شيبة، وغيرهم من النبلاء، ومنهم من صنف على الأبواب، وعلى المسانيد معاً كأبي بكر بن أبي شيبة.

وطريقة المسانيد أن ترتب الأحاديث على حسب الرواة من الصحابة، ثم على ترتيب من روى عن ذلك الصحابي مهما اختلفت موضوعاتها من صلاة أو صوم أو صدقة أو جهاد، فأساس التقسيم في الأبواب وحدة الموضوع، وأساس التقسيم في هذه الطريقة هو وحدة الصحابي.

«الكتب الستة»
ومسند الإمام أحمد

ثم جاء من بعد هذه الطبقة طبقة أخرى رأت ما أمامها من هذه الثروة العظيمة، ورأى أن هؤلاء قد كفوا مؤنة جمع الأحاديث، ففتح أمامها باب الاختيار، وتفرغ لفنون أخرى، وفي طليعة هذه الطبقة الأئمة الستة المعروفون، والإمام أحمد بن حنبل.

مسند الإمام أحمد وخصائصه

١ ــ الإمام أحمد بن حنبل هو أبو عبد الله بن محمد بن حنبل، أصله من بني شيبان، ولد في بغداد (١٦٤ هـ)، تعلم هناك اللغة والحديث، وبعد فترة من الزمن بدأ رحلاته العلمية إلى الشام، حتى وصل اليمن، واستمع إلى عبد الرزاق ابن همام، وتأثر بدروس سفيان بن عيينة الذي كان حجة مدرسة الحجاز في الفقه.

وكان قد درس على أبي يوسف المتوفى (١٨٢)، وحضر في بغداد بعض دروس الشافعي في الفقه وأصوله.

ومن شيوخه:

هشيم، وسفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعد، وجرير بن عبد الحميد، ويحيى القطان، والوليد بن مسلم، وإسماعيل بن علية، وعلي بن هاشم بن البريد، ومعتمر بن سليمان، وعماز بن محمد ابن أخت الثوري، ويحيى بن سليم الطائفي، وغندر، وبشر بن المفضل، وزياد البكائي، وأبو بكر بن عياش، وأبو خالد الأحمر، وعباد بن عباد المهلبي، وعباد بن العوام، وعبد العزيز بن عبد الصمد العمي. وعمر بن عبيد الطنافسي، والمطلب بن زياد، ويحيى بن أبي زائدة، والقاضي أبو يوسف، ووكيع، وابن نمير، وعبد الرحمن بن مهدي، ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق، والشافعي وخلق كثير.

كان للإمام أحمد شغف كبير بالعلم، فلم يتزوج إلا بعد الأربعين، وكان يحفظ الأسانيد والمتون على ظهر قلبه، وقد وفقه الله، وجمع له علم الأولين والآخرين، وبينما كان يقف بعض معاصريه من الشيوخ وهم في المذاكرة إذا سئلوا عن تفسير آية، أو فقه حديث، ولا يقف الإمام أحمد.

وقد قال فيه الشافعي: خرجت من بغداد فما خلفتُ بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وكان إذا حدث ببغداد، قال الناس كلهم صدق.

- وقال فيه علي بن المديني (شيخ البخاري): هو أفضل من سعيد بن جبير في زمانه، لأنَّ سعيداً كان له نظراء، وإن هذا ليس له نظير.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: «جعلت أحمد بن حنبل إماماً فيما بيني وبين الله»(٥).

٢ ــ كان الإمام أحمد لا يرى وضع الكتب، وينهى عن كِتْبَةِ كلامه ومسائله، ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة.

٣ ــ وصنف المسند، وهو أصل كبير، ومرجع وثيق لأصحاب الحديث انتُقيَ من أكثر من سبع مئة ألف حديث، ومسموعات وافرة، فجعله إماماً ومعتمداً، وعند التنازع ملجأ ومستنداً.

وقال: جمعت المسند من أكثر من سبع مئة ألف وخمسين ألفاً، فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارجعوا إليه، فإن وجدتموه فيه، وإلا فليس بحجة.

ولما سأله ابنه عبد الله: لم كرهت وضع الكتب، وقد عملت المسند؟!

فقال:

عملتُ هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم رُجع إليه.

---

(٥) مناقبه جمة، وفضائله كثيرة، لا تحصر، وقد ذكر الذهبي طرفاً منها في تاريخ الإسلام بترجمة وافية عن الإمام أحمد، وأعاده في سير أعلام النبلاء (١١:١٧٧-٣٥٨). وله ترجمة في: طبقات ابن سعد (٣٥٤:٧)، التاريخ الكبير (٥:٢:١)، الجرح والتعديل (١:١:٢٩٢-٣١٣)، حلية الأولياء (١٦١:٩)، تاريخ بغداد (٤١٢:٤)، طبقات الحنابلة (١:٤-٢٠)، وفيات الأعيان (٦٣:١)، تذكرة الحفاظ (٤٣١:٢)، العبر (٤٣٥:١)، النجوم الزاهرة (٣٠٤:٢)، الوافي للصفدي (٣٦٣:٦)، طبقات الشافعية للسبكي (٢٧:٢)، البداية والنهاية (٣٢٥:١٠)، المنهج الأحمد (١:٤-٠٠٠)، تاريخ التراث العربي (١٩٦:٢)، معجم المؤلفين (٩٦:٢) وغير ذلك من المراجع الكثيرة.

٤ ــ كتبه الإمام أحمد وانتقاه من حفظه، قال ابنه عبد الله:

«كتب أبي عشرة آلاف ألف حديث، ولم يكتب سواداً في بياض إلا قد حفظه»(٥).

٥ ــ عدد أحاديث المسند أكثر من ثلاثين ألفاً، وقد لا يبلغ الأربعين ألفاً.

٦ ــ أما عدد الصحابة المروي عنهم فنحو من ثمان مئة رجل، وأكثر من مئة من النساء (يدخل في ذلك من لم يعرف اسمه، وغير ذلك من الأبناء والمبهمات، وغيرهم).

٧ ــ اجتهد الإمام أحمد في أن لا يروي إلا عن ثقة، ولذلك ضرب على بعض الأحاديث في مسنده لأنه أراد أن لا يكون في المسند إلا الثقات.

٨ ــ نجد أحاديث صحاحاً ليست في المسند كحديث أم زرع، رواه البخاري ومسلم، وغيرهما، وهو عند عبد الله بن أحمد، كما رواه الطبراني في كتاب العشرة.

وأجيب عن ذلك بأن الإمام أحمد شرع في جمع هذا المسند، فكتبه في أوراق مفردة، وفرقه في أجزاء منفردة، على نحو ما تكون المسودة. ثم جاء حلول المنية قبل حصول الأمنية، فبادر بإسماعه لأولاده وأهل بيته، ومات قبل تنقيحه وتهذيبه، فبقي على حاله، ثم إن ابنه عبد الله ألحق به ما يشاكله، وضم إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله، فسمع القطيعي من كتبه من تلك النسخة على ما يظفر به منها، فوقع الاختلاط من المسانيد والتكرار من هذا الوجه قديماً، فبقي كثير من الأحاديث في الأوراق والأجزاء لم يظفر بها، فما لم يوجد فيه من الأحاديث الصحاح من هذا القبيل.

قلت: أما أحديث أم زرع، سمعت شيخنا الحافظ الحجة عماد الدين

---

(٥) خصائص المسند (٢٢)، وهذه الأحاديث الألوف مكررة السند، فقد يروى الحديث الواحد بعشرات الأسانيد، فيختار المؤلف كالإمام أحمد، أو البخاري أوثق الطرق ويدع المرسل والمنقطع، وما في إسناده ضعف كثير، ومن هذه الألوف آثار الصحابة والتابعين وغيرهم.

إسماعيل بن عمر بن كثير يقول: إنما لم يخرجه أحمد في المسند لأنه ليس من قول النبي صلى الله عليه وسلم، بل هو حكاية من عائشة رضي الله عنها. والله أعلم.

٩ ــ قال الذهبي: لنا أحاديث قوية في الصحيحين والسنن والأجزاء ما هي في المسند، وقدر الله تعالى أنَّ الإمامَ قطع الرواية قبل تهذيب المسند، وقبل وفاته بثلاث عشرة سنة، فتجد في الكتاب أشياء مكررة، ودخول مسند في مسند، وسند في سند، وهو نادر.

وفيه جملة من الأحاديث الضعيفة مما يَسُوغ نقلُها، ولا يجبُ الاحتجاجُ بها.

وفيه أحاديثُ معدودة شبه موضوعة، ولكنها قطرة في بحر(*).

١٠ ــ توفي الإمام أحمد قبل ترتيبه وتهذيبه.

١١ ــ اشتمل على:

مسند بني هاشم: خمسة وسبعون حديثاً.
مسند أهل البيت: خمسة وأربعون حديثاً.
مسند عائشة: ألف حديث وثلاثمائة وأربعون حديثاً.
مسند النساء: تسعمائة وستة وثلاثون حديثاً.
مسند ابن مسعود: ثمانمائة وخمسة وسبعون حديثاً.
مسند أنس: ألفان وثمانمائة وثمانون حديثاً.

آخر ما رأيته، وجملته سبع آلاف ومائة وأحد وسبعون حديثاً(**).

وبقي مسند العشرة، ومسند أبي هريرة، ومسند أبي سعيد الخدري، ومسند جابر بن عبد الله، ومسند عبد الله بن عمر، ومسند عبد الله بن عباس، ومسند عبد الله بن عمرو بن العاص، وفي آخره مسند أبي رِمْثة، ومسند الأنصار رضي

(*) الذهبي في المصعد الأحمد (٣١)، وسير أعلام النبلاء (١١:٣٢٩)، وقد ردّ الحافظ ابن حجر على ذلك برسالته النفيسة «القول المسدد في الذَّبّ عن مسند أحمد».

(**) هذا العدد تقريب وقد أحصى الشيخ أحمد شاكر في طبعته للمسند، فكان هذا الرقم (٦١٥١)، ومسند ابن مسعود (٩٠٠) حديث، ومسند أنس (٢١٩٢).

الله عنهم، ومسند المكيين والمدنيين، ومسند الكوفيين، ومسند البصريين، ومَسند الشاميين، فهذه جميع مسانيد مسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى ورضي عنه.

١٢ ــ شيوخه الذين روى عنهم في المسند (٢٨٣) شيخاً، وشيوخه الذين سمع منهم يزيدون عن الأربعمئة.

١٣ ــ شيوخ ابنه (٧٣) رجلاً.

١٤ ــ شرطه: لم يخرج أحمد في مسنده إلا عمن ثبت عنده صدقه وديانته دون من طعن في أمانته.

فقال شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية ــ رحمه الله تعالى:

«وقد تنازع الناس هل في مسند أحمد حديث موضوع، فقال طائفة من حفاظ الحديث كأبي العلاء الهمداني ونحوه: ليس فيه موضوع، وقال بعض العلماء، كأبي الفرج بن الجوزي: فيه موضوع. قال أبو العباس: ولا خلاف بين القولين عند التحقيق، فإن لفظ «الموضوع» قد يُراد به المختلق المصنوع الذي يتعمد صاحبه الكذب، وهذا مما لا يعلم أن في المسند منه شيئاً، بل شرط المسند أقوى من شرط أبي داود في سننه، وقد روى أبو داود في سننه عن رجال أعرض عنهم في المسند قال: ولهذا كان الإمام أحمد في المسند لا يروي عمن يُعرف أنه يكذب، مثل محمد بن سعيد المصلوب ونحوه، ولكن يروي عمن يضعف لسوء حفظه، فإن هذا يكتب حديثه. ويعتضد به ويعتبر به، قال: ويراد بالموضوع ما يعلم انتفاء خبره، وإن كان صاحبه لم يتعمد الكذب، بل أخطأ فيه، وهذا الضرب في المسند منه».

وقال ابن الجوزي بشأن المسند في صيد الخاطر:

كان قد سألني بعض أصحاب الحديث: هل في مسند أحمد ما ليس بصحيح؟ فقلت: نعم. فعظم ذلك جماعة ينسبون إلى المذهب، فحملت أمرهم على أنهم عوام، وأهملت فكر ذلك. وإذا بهم قد كتبوا فتاوى، فكتب فيها جماعة من أهل خراسان، منهم أبو العلاء الهمداني، يعظمون هذا القول، ويردونه، ويقبحون قول من قاله! فبقيت دهشاً متعجباً، وقلت في نفسي: واعجبا! صار المنتسبون إلى

العلم عامة أيضاً، وما ذاك إلا أنهم سمعوا الحديث ولم يبحثوا عن صحيحه وسقيمه، وظنوا أن من قال ما قلته قد تعرض للطعن فيما أخرجه أحمد. وليس كذلك، فإن الإمام أحمد روى المشهور والجيد والرديء، ثم هو قد رد كثيراً مما روى ولم يقل به، ولم يجعله مذهباً له. أليس هو القائل في حديث الوضوء بالنبيذ: مجهول؟ ومن نظر في كتاب العلل الذي صنفه أبو بكر الخلال رأى أحاديث كثيرة كلها في المسند، وقد طعن فيها أحمد. ونقلت من خط القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء في مسألة النبيذ، قال: إنما روى أحمد في مسنده ما اشتهر ولم يقصد الصحيح ولا السقيم، ويدل على ذلك أن عبد الله قال: قلت لأبي: ما تقول في حديث ربعي بن خراش عن حذيفة؟ قال الذي يرويه عبد العزيز بن أبي رواد؟ قلت: نعم، قال: الأحاديث بخلافه، قلت: فقد ذكرته في المسند؟ قال: قصدت في المسند المشهور، فلو أردت أن أقصد ما صح عندي لم أرو من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير، ولكنك يا بني تعرف طريقتي في الحديث: لست أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه».

الكتب الستة

أولاً: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه للإمام: محمد بن إسماعيل البخاري:

١ ــ هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري الجعفي، ولد سنة (١٩٤) هـ، = ٨١٠ م، في بخارى، وكانت ولادته يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، قال المستنير بن عتيق: أخرج لي ذلك محمد بن إسماعيل بخط أبيه.

مات إسماعيل، ومحمد صغير فنشأ في حجر أمه، ثم حج مع أمه وأخيه أحمد ــ وكان أسنّ منه ــ فأقام هو بمكة مجاوراً يطلب العلم، ورجع أخوة أحمد إلى بخارى فمات بها.

٢ ــ وقد بدأ البخاري دراسة الحديث في وقت مبكر.وقد قال عن نفسه:

«فلما طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك، ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء ــ يعني أصحاب الرأي ــ ثم خرجت مع أمي وأخي إلى الحج.

فلما طعنت في ثماني عشرة وصنفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ في المدينة عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وكنت أكتبه في الليالي المقمرة قال وقلّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة إلا أني كرهت أن يطول الكتاب.

وقال سهل بن السري:

قال البخاري: دخلتُ إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين وإلى البصرة أربع مرات وأقمتُ بالحجاز ستة أعوام ولا أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدثين.

وقال حاشد بن إسماعيل: كان البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فلمناه بعد ستة عشر يوماً فقال: قد أكثرتم عليّ فاعرضوا عليّ ما كتبتم فأخرجناه فزاد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه.

وقال أبو بكر بن أبي عياش الأعين: كتبنا عن محمد بن اسماعيل وهو أمْرد على باب محمد بن يوسف الفريابي. وكان موت الفريابي سنة اثنتي عشرة ومائتين وكان سن البخاري إذ ذاك نحواً من ثمانية عشر عاماً أو دونها.

وقال محمد بن الأزهر السجستاني: كنت في مجلس سليمان بن حرب والبخاري معنا يسمع ولا يكتب فقيل لبعضهم ماله لا يكتب فقال: يرجع إلى بخارى ويكتب من حفظه، وقال محمد بن أبي حاتم عن البخاري: كنت في مجلس الفريابي فقال: حدثنا سفيان عن أبي عروة عن أبي الخطاب عن أبي حمزة فلم يعرف أحد في المجلس من فوق سفيان فقلت لهم: أبو عروة هو معمر بن راشد وأبو الخطاب هو قتادة بن دعامة وأبو حمزة هو أنس بن مالك قال: وكان الثوري فعولاً لذلك يكني المشهورين.

٣ ــ وقد رتب أبو الحجّاج المزي شيوخ البخاري وأصحابه على المعجم كعادته، وتقسم مراتب شيوخه الذين كتب عنهم وحدث عنهم إلى خمس طبقات:

(الطبقة الأولى) من حدثه عن التابعين مثل محمد بن عبد الله الأنصاري حدثه عن حميد، ومثل مكي بن إبراهيم حدثه عن يزيد بن أبي عبيد، ومثل أبي عاصم النبيل حدثه عن يزيد بن أبي عبيد أيضاً، ومثل عبيد الله بن موسى حدثه عن اسماعيل بن أبي خالد، ومثل أبي نعيم حدثه عن الأعمش، ومثل خلاد بن يحيى حدثه عن عيسى بن طهمان، ومثل علي بن عياش وعصام بن خالد حدثاه عن حريز بن عثمان وشيوخ هؤلاء كلهم من التابعين.

(الطبقة الثانية) من كان من عصر هؤلاء لكن لم يسمع من ثقات التابعين كآدم بن أبي إياس وأبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر وسعيد بن أبي مريم وأيوب بن سليمان بن بلال وأمثالهم.

(الطبقة الثالثة) هي الوسطى من مشايخه وهم من لم يلق التابعين بل أخذ عن كبار تبع الأتباع كسليمان بن حربٍ وقتيبة بن سعيد ونعيم بن حماد وعلي بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي بكر وعثمان ابني أبي شيبة وأمثال هؤلاء، وهذه الطبقة قد شاركه مسلم في الأخذ عنهم.

(الطبقة الرابعة) رفقاؤه في الطلب ومن سمع قبله قليلاً كمحمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة وعبد بن حميد وأحمد بن النضر وجماعة من نظرائهم، وإنما يخرج عن هؤلاء ما فاته عن مشايخه أو ما لم يجده عند غيرهم.

(الطبقة الخامسة) قوم في عداد طلبته في السن والإسناد سمع منهم للفائدة كعبد الله بن حماد الآملي وعبد الله بن أبي العاص الخوارزمي وحسين بن محمد القباني وغيرهم، وقد روي عنهم أشياء يسيرة وعمل في الرواية عنهم بما روى عثمان بن أبي شيبة عن وكيع قال: لا يكون الرجل عالماً حتى يحدث عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه، وعن البخاري أنه قال: لا يكون المحدث كاملاً حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه.

٤ ــ رغم أنه ورث عن أبيه مالاً جليلاً، فقد كان زاهداً متقشفاً، ومن كثرة ورعه أنه لم يتول شراء شيء قط ولا بيعه، كان يأمر إنساناً فيشتري له، لما في البيع والشراء من الزيادة والتخليط والنقصان، وقام مرة يصلي فلسعه زنبور وورّمه في سبعة عشر موضعاً ولم يقطع صلاته.

وللبخاري في كلامه على الرجال توق زائد، وتحرٍّ بليغ يظهر لمن تأمل كلامه في الجرح والتعديل، فإن أكثر ما يقول: سكتوا عنه، فيه نظر، تركوه، ونحو هذا، وقلّ أن يقول: كذاب، أو وضاع، وقد قال: إني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً.

وكان كثير الإحسان، قليل الأكل جداً، مفرط الكرم، كثير الصلاة والعبادة، وكان يختم القرآن كل ثلاث.

وأخرج الحاكم في تاريخه من شعره قوله:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع ... فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح رأيتُ من غير سقم ... ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

ولما نعي له عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي الحافظ، قال:

إن عشت تفجع بالأحبة كلهم ... وبقاء نفسك ــ لا أبالك ــ أفجع

٥ ــ تشهد جميع المصادر للإمام البخاري بطول الباع في سعه حفظه، لقد كتب عن أكثر من ألف شيخ، عن كل واحد منهم عشرة آلاف حديث وأكثر، ما عنده حديث إلا يذكر إسناده(٥).

وقال محمد بن أبي حاتم الورَّاق: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام، فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يوماً بعد ستة عشر يوماً: إنكما قد أكثرتما علي وألححتما، فاعرضا علي ما كتبتما. فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر القلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه. ثم قال: أترون أني أختلف هدراً، وأضيع أيامي؟! فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

وقال أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد ابن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وعمدوا إلى مئة حديث، فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد هذا، وإسناد هذا المتن هذا، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس، فاجتمع الناس، وانتدب أحدهم، فسأل البخاري عن حديث من عشرته، فقال: لا أعرفه. وسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه. وكذلك حتى فرغ من عشرته. فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: الرجل فهم. ومن كان لا يدري قضى على البخاري بالعجز، ثم انتدب آخر، ففعل كما فعل الأول.

---

(٥) تاريخ بغداد (٢:١٠)، وطبقات الحنابلة (١:٢٧٥)، وسير أعلام النبلاء (١٢:٤٠٧).

والبخاري يقول: لا أعرفه. ثم الثالث وإلى تمام العشرة أنفس، وهو لا يزيدهم على: لا أعرفه. فلما علم أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأول منهم، فقال: أما حديثك الأول فكذا، والثاني كذا، والثالث كذا إلى العشرة، فرد كل متن إلى إسناده. وفعل بالآخرين مثل ذلك. فأقر له الناس بالحفظ. فكان ابن صاعد إذا ذكره يقول: الكبش النطاح.

وبهذه العقلية الواعية، التي منحه الله إياها استطاع أن يضع كتابه في الرجال، ومصنفه في الصحيح، وغير ذلك.

٦ ـ أثنى عليه كل الأئمة الأعلام حتى شيوخه وأقرانه، وحتى كانوا يعرضون عليه مصنفاتهم لينظر هل فيها من خلل، أو سقط... ونحن نورد هنا بعض هذه الأخبار بإيجاز من أقوال المحدثين:

قال أحمد بن الضوء: سمعت أبا بكر بن أبي شيبة ومحمد بن عبد الله بن نمير يقولان: ما رأينا مثل محمد بن إسماعيل.

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

وقال محمد بن إبراهيم البوشنجي: سمعت بنداراً محمد بن بشار سنة ثمان وعشرين ومئتين يقول: ما قدم علينا مثل محمد بن إسماعيل.

وقال حاشد بن إسماعيل: كنت بالبصرة، فسمعت قدوم محمد بن إسماعيل، فلما قدم قال بندار: اليوم دخل سيد الفقهاء.

وقال محمد: سمعت أبا عبد الله يقول: قال لي محمد بن بشار: إن ثوبي لا يمس جلدي مثلاً، ما لم ترجع إلي، أخاف أن تجد في حديثي شيئاً يُسَقِّمُني. فإذا رجعت فنظرت في حديثي طابت نفسي، وأمنت مما أخاف.

وقال محمد بن أبي حاتم: سمعت إبراهيم بن خالد المروزي، يقول: رأيت أبا عمار الحسين بن حريث يثني على أبي عبد الله البخاري، ويقول: لا أعلم أني رأيت مثله، كأنه لم يخلق إلا للحديث.

وقال محمد: سمعت محمود بن النضر أبا سهل الشافعي يقول: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة، ورأيت علماءها، كلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل فضلوه على أنفسهم.

وقال: سمعت محمد بن يوسف يقول: لما دخلت البصرة صرت إلى بندار، فقال لي: من أين أنت؟ قلت: من خراسان. قال: من أيها؟ قلت: من بخارى، قال: تعرف محمد بن إسماعيل؟ قلت: أنا من قرابته. فكان بعد ذلك يرفعني فوق الناس.

قال محمد: وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: لما دخلت البصرة صرت إلى مجلس بندار، فلما وقع بصره علي، قال: من أين الفتى؟ قلت: من أهل بخارى فقال لي: كيف تركت أبا عبد الله؟ فأمسكت، فقالوا له: يرحمك الله هو أبو عبد الله، فقام، وأخذ بيدي، وعانقني، وقال: مرحباً بمن أفتخر به منذ سنين.

قال: وسمعت حاشد بن إسماعيل، سمعت محمد بن بشار يقول: لم يدخل البصرة رجل أعلم بالحديث من أخينا أبي عبد الله. قال: فلما أراد الخروج ودعه محمد بن بشار، وقال: يا أبا عبد الله، موعدنا الحشر أن لا نلتقي بعد.

وقال أبو قريش محمد بن جمعة الحافظ: سمعت محمد بن بشار: يقول: حفّاظ الدنيا أربعة: أو زرعة بالري، والدارمي بسمرقند، ومحمد ابن إسماعيل ببخارى، ومسلم بنيسابور.

وقال محمد بن عمر بن الأشعث البيكندي: سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل، سمعت أبي يقول: انتهى الحفظ إلى أربعة من أهل خراسان: أبو زرعة الرازي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، والحسن بن شجاع البلخي.

٧ ـــ كان البخاري في طليعة الأئمة الستة المعروفين، فجمع كتاباً مختصراً في الصحيح حسبما اقتضاه نظره في ذلك وسمّاه «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم سننه وأيامه».

وروى الحافظ أبو بكر الحازمي في شروط الأئمة الخمسة بسنده إلى البخاري،

قال: كنت عند إسحاق بن راهويه فقال لنا بعض أصحابنا: لو جمعتم كتاباً مختصراً لسنن النبي صلى الله عليه وسلم فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هذا الكتاب.

قال الحازمي: فقد ظهر أن قصد البخاري كان وضع مختصر في الحديث وإن لم يقصد الاستيعاب لا في الرجال ولا في الحديث.

وروى أيضاً بسنده إلى البخاري أنه قال: لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً وما تركت من الصحيح أكثر.

وقد روى نادراً في كتابه عمن ذكره في الضعفاء كأيوب بن عائذ ومحمد بن ثابت الكوفي وزهير بن محمد التميمي وزياد بن الربيع وسعيد بن عبيد الله الثقفي وعباد بن راشد ومحمد بن يزيد ومقسم مولى ابن عباس ولعل ذلك لاختلاف اجتهاده فيهم فتارة يضعفهم وتارة يحتج بهم أو يكون الحديث عنده ثابتاً وله طرق بعضها أرفع من بعض غير أنه يحيد أحياناً عن الطريق الصحيح لنزوله أو غير ذلك من الوجوه.

٨ ـ كان لا يصنف حديثاً إلا بعد أن يغتسل ويصلي ركعتين، ثم يستخير الله تعالى في وضعه.

ولم يخرج فيه إلا ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسند المتصل الذي توفر في رجال العدالة والضبط واللقيا، ولم يكن يكتفي بإمكان معاصرة التلميذ للشيخ، بل لا بد من ثبوت سماعه منه ولقياه له.

وبهذه الصفات التي توفرت له كان أول كتاب في السنة على هذه الشروط الدقيقة، فتجرد من الأحاديث الضعيفة والحسنة، واقتصر على الأحاديث الصحيحة فقط، وقد بوبه على أبواب العلم والفقه، إلا أنه دقيق النظر جداً، بعيد الغور في الاستنباط، فجاءت تراجم أبوابه وموافقة الأحاديث للترجمة غامضة أحياناً، وقد أورد فيه المعلق والموقوف وفتاوى الصحابة والتابعين وآراء العلماء، كما جرى على تقطيع الحديث إلى أقسام يذكر في كل باب القسم الذي يناسبه.

٩ ـ ولما أتمّ تأليفه وتصنيفه دَقَّقَهُ، ومحصه، ثم عرضه على الإمام أحمد، وابن

معين، وعلي بن المديني، وغيرهم من الأئمة الحفاظ، فشهدوا له بالصحة إلا في أربعة أحاديث، قال العقيلي: «القول فيها قول البخاري».

ولما أخرج الصحيح للناس طار في الآفاق ذكره، واشتهر بين الناس أمره، وهرع إليه الناس من كل فج يتلقونه عنه حتى بلغ من أخذه نحو من مئة ألف، وانتشرت نسخه في الآفلق والأمصار، وعكف عليه الناس حفظاً ودراسة وشرحاً وتلخيصاً، وكان شغف أهل العلم به عظيماً.

قال الذهبي: «وأما جامع البخاري الصحيح فأجل كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى، فلو رحل الشخص لسماعه من ألف فرسخ لما ضاعت رحلته».

١٠ ــ جملة ما في الصحيح (٧٢٧٥) حديثاً بالمكررة، وقد قيل: إنها بإسقاط المكررة أربعة آلاف حديث إلا أن هذه العبارة يندرج تحتها عندهم آثار الصحابة والتابعين، وربما عُدَّ الحديث الواحد المروي بإسنادين، حديثين.

١١ ــ «تاريخ» البخاري يشتمل على نحو من أربعين ألفاً وزيادة، وكتابه في «الضعفاء» دون السبع مئة نفس. ومن خرَّج لهم في «صحيحه» دون الألفين. قال ذلك أبو بكر الحازمي فـ«صحيحه» مختصر جداً. وقد نقل الإسماعيلي عمن حكى عن البخاري، قال: لم أخرج في الكتاب إلا صحيحاً. قال: وما تركت من الصحيح أكثر.

١٢ ــ لبعضهم:

صحيح البخاري لو أنصفوه ... لما خط إلا بماء الذهب
هو الفرق بين الهدى والعمى ... هو السد بين الفتى والعطب
أسانيد مثل نجوم السماء ... أمام متون كمثل الشهب
به قام ميزان دين الرسول ... ودان به العجم بعد العرب
حجاب من النار لا شك فيه ... تميز بين الرضى والغضب
وستر رقيق إلى المصطفى ... ونص مبين لكشف الريب

فيا عالماً أجمع العالمون | على فضل رتبته في الرُّتَبْ
سبقت الأئمة فيما جمعت | وفزت على رغمهم بالقصب
نفيت الضعيف من الناقلين | ومن كان متهماً بالكذب
وأبرزت في حسن ترتيبه | وتبويبه عجباً للعجب
فأعطاك مولاك ما تشتهيه | وأجزل حظك فيما وهب (*)

* * *

(*) مصادر ترجمة البخاري كثيرة منها:
طبقات الحنابلة (١:٢١٧)، تاريخ بغداد (٢:٤). وفيات الأعيان (٤:١٨٨)، تذكرة الحفاظ (٢:٥٥٥)، الوافي بالوفيات (٢:٢٠٦) طبقات الشافعية للسبكي (٢:٢١٢)، البداية والنهاية (١١:٢٤)، تهذيب التهذيب (٩:٤٧) سير أعلام النبلاء (١٢:٣٩١)، مقدمة فتح الباري (٤٤٧-٤٩٢).



ثانياً: صحيح مسلم بن الحجاج:

١ ــ هو مسلم بن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النسب، النيسابوري الدار والموطن، وعربي صليبة، عاش في القرن الهجري الثالث إلى العقد السادس منه، فقد ولد سنة أربع ومائتين، وعاصر تسعة خلفاء من العصر العباسي، هم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، وكان العصر العربي الذي نبغ فيه المفكرون والعظماء، والعلماء المشهورون في مختلف البقاع.

٢ ــ رحل الإمام مسلم بن الحجاج في طلب العلم رحلة واسعة، فسمع بخراسان يحيى بن يحيى التميمي، وإسحاق بن راهويه وغيرهما وبالري محمد بن مهران الجمال وأبا غسان محمد بن عمرو، زنيجا وغيرهما وبالعراق: أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وغيرهما، وبالحجاز سعيد بن منصور، وأبا مصعب الزهري، وغيرهما، وبمصر عمر بن سواد، وحرملة بن يحيى، وغيرهما في خلق كثير، والله أعلم، وقد استقصى الذهبي في سير أعلام النبلاء [١٢:٥٥٨-٥٦١] شيوخه على حروف المعجم.

٣ ــ روى عنه من الأكابر: أبو حاتم الرازي، وموسى بن هارون، وأحمد ابن سلمة، وأبو بكر بن خزيمة، ومحمد بن عبد الوهاب الفرّاء، ومكي بن عبدان، وأبو حامد بن الشرقي، وإبراهيم بن أبي طالب، وأبو عوانة الإسفراييني، وأبو العباس السراج، وسعيد بن عمرو البردعي الحافظ، وغيرهم، وقد استقصاهم الذهبي في سير أعلام النبلاء [١٢:٥٦٢-٥٦٣].

٤ ــ قال أحمد بن سلمة: رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلماً في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما.

وقال الحسين بن منصور: سمعت إسحاق بن راهويه، ذكر مسلماً، فقال: أي رجل يكون هذا.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: كان مسلم ثقة من الحفاظ، كتبت عنه بالري، وسئل أبي عنه، فقال: صدوق.

وقال أبو قريش الحافظ: سمعت محمد بن بشار يقول: حفاظ الدنيا أربعة: أبو زرعة بالري، ومسلم بنيسابور وعبد الله الدارمي بسمرقند، ومحمد بن إسماعيل ببخارى.

وقد اعترف له معاصروه بالحفظ حتى لقب بالحافظ.

ووصفه اليافعي، فقال: أحد أركان الحديث، وصاحب الصحيح، وغيره، ومناقبه مشهورة، وسيرته مشكورة.

قال أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن الأخرم الحافظ: إنما أخرجت نيسابور ثلاثة رجال: محمد بن يحيى، ومسلم بن الحجاج، وابراهيم بن أبي طالب.

٥ ــ ذكر البيهقي: قال: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ عن أبي الفضل محمد ابن إبراهيم، قال: سمعت أحمد بن سلمة، يقول:

رأيت أبا زرعة، وأبا حاتم، يقدّمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما.

ورُوي عن الحاكم، قال: قرأت بخط أبي عمرو المستملي، أملى علينا إسحاق ابن منصور بن بهرام الكوسج التميمي سنة إحدى وخمسين ومائتان، ومسلم بن الحجاج ينتخب عليه، وأنا أستملي، فنظر إسحاق بن منصور إلى مسلم، فقال: لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين.

٦ ــ مات مسلم رحمه الله سنة إحدى وستين ومئتين، بنيسابور ــ وهذا مشهور، فذكر الحاكم أبو عبد الله بن البيّع الحافظ في كتاب «المزكين لرواة الأخبار» أنه سمع أبا عبد الله بن الأخرم الحافظ يقول: توفي مسلم بن الحجاج رحمه الله عشية يوم الأحد، ودفن يوم الاثنين لخمس بقين من رجب سنة إحدى وستين

ومئتيـن، وهو ابن خمس وخمسين سنة، وهذا يتضمن أن مولده كان في سنة ست ومئتين، والله أعلم، وكان لموته سبب غريب، نشأ عن غمرة فكرية علمية، فقال أحمد بن سلمة: عقد لأبي الحسين مسلم بن الحجاج مجلس للمذاكرة، فذكر له حديث لم يعرفه، فانصرف إلى منزله، وأوقد السراج، وقال لمن في الدار: لا يدخلن أحد منكم هذا البيت، فقيل له: أهديت لنا سلة فيها تمر، فقال: قدموها إليّ، فقدموها، فكان يطلب الحديث، ويأخذ تمرة تمرة، يمضغها، فأصبح، وقد فنى التمر، ووجد الحديث.

قال الحاكم: زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مرض ومات[*].

(*) ترجمته في:

١ ــ الجرح والتعديل (١٨٢:١:٢).

٢ ــ الفهرست لابن النديم: (٢٨٦).

٣ ــ تاريخ بغداد (١٣: ١٠٠-١٠٤).

٤ ــ الفهرست لابن خير: (٢١٢).

٥ ــ طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (٣٣٧:١).

٦ ــ وفيات الأعيان (١١٩:٢).

٧ ــ اللباب (٣٨:٣).

٨ ــ جامع الأصول (١٨٧:١).

٩ ــ المنتظم (٣٢:٥).

١٠ ــ تهذيب الأسماء واللغات (٨٩:٢).

١١ ــ تذكرة الحفاظ (٥٨٨:٢).

١٢ ــ العبر (٢٣:٢).

١٣ ــ سير أعلام النبلاء (٥٥٧:١٢).

١٤ ــ الكاشف (١٤٠:٣).

١٥ ــ مرآة الجنان (١٧٤:٢).

١٦ ــ تهذيب التهذيب (١٢٦:١٠).

١٧ ــ البداية والنهاية (٣٣:١١).

١٨ ــ النجوم الزاهرة (٣٣:٣).

١٩ ــ شذرات الذهب (١٤٤:٢).

٢٠ ــ مقدمة فتح الملهم صفحة (٢٤٧).

٢١ ــ صيانة صحيح مسلم من الاخلال والغلط لابن الصلاح صفحة (٥٦-٦١).

٧ ــ صحيح مسلم هو ثاني كتاب صنف في صحيح الحديث، ووسم به، ووضع له خاصة، سبقه البخاري إلى ذلك، ثم لم يلحقهما لاحق، وكتاباهما أصح ما صنفه المصنفون.

قال الإمام مسلم: لو أن أهل الحديث يكتبون مائتي سنة الحديث فمدارهم على هذا المسند يعني مسنده الصحيح.

وقال: عرضت كتابي هذا المسند على أبي زرعة الرازي، فكل ما أشار أن له علة تركته، وكل ما قال إنه صحيح وليس له علة أخرجته.

وورد عن مسلم أنه قال: ما وضعت شيئاً في هذا المسند إلا بحجة، وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة.

وكان الحسين بن علي النيسابوري يقول: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم بن الحجاج في علم الحديث.

٨ ــ وقد شرط مسلم في صحيحه أن يكون الحديث متصل الإسناد بنقل الثقة عن الثقة من أوله إلى منتهاه سالماً من الشذوذ ومن العلة، وهذا هو حد الحديث الصحيح في نفس الأمر، فكل حديث اجتمعت فيه هذه الأوصاف فلا خلاف بين أهل الحديث في صحيحه، وما اختلفوا في صحته من الأحاديث فقد يكون سبب اختلافهم انتفاء وصف من هذه الأوصاف بينهم خلاف في اشتراطه، كما إذا كان بعض رواة الحديث مستوراً، أو كما إذا كان الحديث مرسلاً.

وقد يكون سبب اختلافهم في صحته، اختلافهم في أنه هل اجتمعت فيه هذه الأوصاف أو انتفى بعضها، وهذا هو الأغلب في ذلك، وذلك كما إذا كان الحديث في رواية من اختلفوا في ثقته، وكونه من شرط الصحيح، فإذا كان الحديث قد تداولته الثقات غير أن في رجاله أبا الزبير المكي مثلاً، أو سهيل بن أبي صالح، أو العلاء بن عبد الرحمن، أو حماد بن سلمة، قالوا فيه: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، وليس بصحيح على شرط البخاري لكون هؤلاء عند مسلم ممن اجتمعت فيهم الأوصاف المعتبرة ولم يثبت عند البخاري ذلك فيهم.

وكذا حال البخاري فيما خرّجه من حديث عكرمة مولى ابن عباس، وإسحاق ابن محمد الفروي، وعمرو بن مرزوق، وغيرهم ممن احتج بهم البخاري، ولم يحتج بهم مسلم.

٩ — وعدد من أخرجهم البخاري في الجامع الصحيح، ولم يخرجهم مسلم أربعمائة وأربعة وثلاثون شيخاً، وعدد من احتج بهم مسلم في المسند الصحيح، ولم يحتج بهم البخاري في الجامع الصحيح ستمائة وخمسة وعشرون شيخاً، وقد روينا عن مسلم في باب «صفة صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم» من صحيحه أنه قال: ليس كل شيء عندي صحيح وضعته هاهنا، يعني في كتابه الصحيح، وإنما وضعت هاهنا ما أجمعوا عليه.

وهذا مشكل جداً، فإنه قد وضع فيه أحاديث قد اختلفوا في صحتها لكونها من حديث من ذكرناه ومن لم نذكره ممن اختلفوا في صحة حديثه، ولم يجمعوا عليه.

وقد أجاب الحافظ ابن الصلاح بمعرفة علوم الحديث على ذلك بجوابين.

«**أحدهما**»: أنه أراد بهذا الكلام أنه لم يضع في كتابه إلاَّ الأحاديث التي وجد عنده فيها شرائط المجمع عليها، وإن لم يظهر اجتماعها في بعضها عند بعضهم.

«**والثاني**»: أنه أراد أنه ما وضع فيه ما اختلفت الثقات فيه في نفس الحديث متناً أو إسناداً، ولم يورد ما كان اختلافهم إنما هو في توثيق بعض رواته، وهذا هو الظاهر من كلامه، فإنه ذكر ذلك لما سئل عن حديث أبي هريرة: «وإذا قرأ فانصتوا» هل هو صحيح؟ فقال: هو عندي صحيح، فقيل له: لم لم تضعه ها هنا؟ فأجاب بالكلام المذكور، ومع هذا قد اشتمل كتابه على أحاديث اختلفوا في إسنادها أو متنها عن هذا الشرط لصحتها عنده، وفي ذلك ذهول منه رحمنا الله وإياه عن هذا الشرط، أو سبب آخر والله تعالى أعلم.

١٠ — جميع ما حكم مسلم بصحته من هذا الكتاب فهو مقطوع بصحته، والعلم النظري حاصل بصحته في نفس الأمر، وهكذا ما حكم البخاري بصحته في كتابه، وذلك لأن الأمة تلقت ذلك بالقبول، سوى من لا يعتد بخلافه ووفاقه في الاجماع.

قال ابن الصلاح: والذي نختاره أن تلقي الآمة للخبر المنحط عن درجة التواتر بالقبول يوجب العلم النظري بصدقه خلافاً لبعض محققي الأصوليين، حيث نفى ذلك بناء على أنه لا يفيد في حق كل واحد منهم إلاَّ الظن، وإنما قبله لأنه يجب عليه العمل بالظن، والظن قد يخطىء.

وهذا مندفع لأن ظن من هو معصوم من الخطأ لا يخطىء، والأمة في إجماعها معصومة من الخطأ.

قال أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني: لوحلف إنسان بطلاق امرأته أن ما في كتابي البخاري ومسلم مما حكما بصحته من قول النبي صلى الله عليه وسلم لما ألزمته الطلاق، ولا حنثته لإجماع علماء المسلمين على صحتهما.

١١ ــ ثبت أن صحيح البخاري يتفوق على صحيح مسلم فيما يتعلق بأمر الصحة، وأما ما يتعلق بغير ذلك فربما كان في صحيح مسلم ما يرجح به على صحيح البخاري.

فإنه لم يتصدَّ لما تصدى له البخاري من استنباط الأحكام ليبوِّب عليها حتى لزم من ذلك تقطيعه للحديث في أبوابه بل جمع مسلم الطرق كلها في مكان واحد، واقتصر على الأحاديث دون الموقوفات، فلم يعرج عليها إلاَّ في بعض المواضع على سبيل الندرة تبعاً لا مقصوداً، وهذه الفائدة الحسنة التي انفرد بها، جعلته أسهل تناولاً من حيث إنه جعل لكل حديث موضعاً واحداً يليق به، جمع فيه طرقه التي ارتضاها واختار ذكرها، واختار فيه أسانيده المتعددة وألفاظه المختلفة، فيسهل على الطالب النظر في وجوهه واستثمارها ويحصل له الثقة بجميع ما أورده مسلم من طرقه.

ومن تحري مسلم رحمه الله اعتناؤه بالتميز بين حدثنا وأخبرنا، وتقييده ذلك على مشايخه، وفي روايته، كان من مذهبه رحمه الله الفرق بينهما، وأن حدثنا لا يجوز إطلاقه إلا لما سمعه من لفظ الشيخ خاصة، وأخبرنا لما قرىء على الشيخ.

وهذا الفرق هو مذهب الشافعي، وأصحابه وجمهور أهل العلم بالمشرق.

وقال محمد بن الحسن الجوهري المصري:

وهو مذهب أكثر أصحاب الحديث الذين لا يحصيهم أحد.

وروي هذا المذهب أيضاً عن ابن جريج والأوزاعي، وابن وهب، والنسائي.

وصار هو الشائع الغالب على أهل الحديث.

ومن ذلك اعتناؤه بضبط اختلاف لفظ الرواة، كقوله: حدثنا فلان وفلان، واللفظ لفلان، قال: أو قالا: حدثنا فلان.

كما إذا كان بينهما اختلاف في حرف من متن الحديث أو صفة الراوي أو نسبة أو نحو ذلك فإنه يبينه، وربما كان في بعضه بعض لا يتغير به معنى، وربما كان في بعضه اختلاف في المعنى، ولكن خفياً لا يتفطن له إلاَّ ماهر في العلوم التي ذكرتها مع اطلاع على دقائق الفقه ومذاهب الفقهاء، وينبغي أن ندقق النظر في فهم غرض مسلم من ذلك.

ومن ذلك تحريه في رواية صحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة كقوله: حدثنا محمد بن رافع، قال: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر أحاديث منها: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا توضأ أحدكم فليستنشق... الحديث».

وذلك لأن الصحائف والأجزاء والكتب المشتملة على أحاديث بإسناد واحد إذا اقتصر عند سماعها على ذكر الاسناد في أولها ولم يجدد عند كل حديث منها، وأراد إنسان ممن سمع ذلك أن يفرد حديثاً منها غير الأول بالاسناد المذكور في أولها فهل يجوز له ذلك؟ قال وكيع بن الجراح، ويحيى بن معين، وأبو بكر الاسماعيلي الشافعي الامام في الحديث والفقه والأصول: يجوز ذلك.

وهذا مذهب الأكثرين من العلماء. لأن الجميع معطوف على الأول، فالإسناد المذكور أولاً في حكم المعاد في كل حديث.

فسلم رحمه الله سلك هذا الطريق ورعاً واحتياطاً وتحرياً واتقاناً رضي الله عنه.

ومن ذلك احتياطه في تلخيص الطرق وتحويل الأسانيد مع ايجاز العبارة وكمال حسنها.

ومن ذلك حسن ترتيبه وترصيفه الاحاديث على نسق يقتضيه تحقيقه، وكمال معرفته بمواقع الخطاب ودقائق العلم، وأصول القواعد، وخفيات علم الأسانيد، ومراتب الرواة، وغير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر في التهذيب: حصل لمسلم حظ عظيم مفرط في كتابه لم يحصل لأحد مثله بحيث إن بعض الناس كان يفضله على صحيح البخاري وذلك لما اختص به من جمع الطرق، وجودة السياق والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع، ولا رواية بمعنى، وقد نسج على منواله خلق من النيسابوريين فلم يبلغوا شأوه.

ولنعم ما قيل:

تنازع قوم في البخاري ومسلم ... لديَّ فقالوا أي دين يقدم

فقلت لقد فاق البخاري صحة ... كما فاق في حسن الصناعة مسلم

١٢ ــ هل استوعب كتاب مسلم الأحاديث الصحيحة كلها؟

يرد الامام مسلم على هذا السؤال فيقول:

«صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمئة ألف حديث».

ثم يقول:

«ليس كل شيء عندي صحيح وضعته ههنا، إنما وضعت ههنا ما أجمعوا عليه».

«وقيل لأبي زرعة: إن مسلماً جمع أربع آلاف حديث في الصحيح، فقال: لمن ترك الباقي؟!».

١٣ ــ جملة ما في صحيح مسلم من الأحاديث:

ترد أقوال في دراسات الأقدمين ورواياتهم لصحيح مسلم على أن جملة أحاديثه بإسقاط المكرر تبلغ أربعة آلاف حديث.

قال العراقي: «وهو يزيد على البخاري بالمكرر لكثرة طرقه».

قال: «ورأيت عن أبي الفضل «أحمد بن سلمة» أنه قال: إنها اثنا عشر ألف حديث».

وقال أبو حفص الميانجي: إنها ثمانية آلاف.

قال بعض الباحثين في ذلك: «ولعل هذا أقرب إلى الواقع مما قبله».

وفي تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف للحافظ المزي تبلغ أحاديث صحيح مسلم (٧٣٦٠) حديثاً.

وفي مفتاح كنوز السنة بلغت هذه الأحاديث (٧٥٨١) حديثاً.

والحق أن أحاديث صحيح مسلم بقرب هذين الرقمين الأخيرين أي حوالي (٧٥٠٠) حديث بالمكرر.

ثالثا: سنن النسائي:

١ ــ هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شُعَيْب بن علي بن سِنان بن بَحْر الخُراسانيّ النسائي، ولد سنة (٢١٥ هـ = ٨٣٠ م) بِنَسَا، وطلب العلم في صِغَره، فارتحل إلى قتيبة بن سعيد بن جميل البغلاني [وهو المحدث المشهور في الشرق والغرب]، فأَقام عنده ببَغْلان سنةً، فأكثر عنه.

ورحل أيضاً طلباً للعلم فسمع في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر، وأقام بها وقتاً طويلاً، ثم استقر في دمشق.

ومن شيوخه: إسحاق بن راهويه، وهشام بن عمار، وأبي الطاهر بن السرح، وأحمد بن عَبْدة الضبي، وبشر بن هلال الصوّاف، وعبد الرحمن بن عبيد الله الحلبي، وعلي بن حجر، ومحمد بن بشار، وخلق كثير سواهم.

كان من بحور العلم، مع الفهم والإتقان، والبصر، ونقد الرجال، وحسن التصنيف، حتى رحل الحفاظ إليه، ولم يبق له نظير في هذا الشأن.

قال الطبراني في معجمه (١:٢٣): حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي القاضي بمصر، فذكر حديثاً، وقال أبو عوانة في «صحيحه»: حدثنا أحمد بن شعيب النسائي قاضي حمص: حدثنا محمد بن قدامة، فذكر حديثاً.

وكان ورعاً متحرياً، بارعاً في علوم الحديث حافظاً متقناً، حتى نقل الذهبي أنه كان أحفظ من الإمام مسلم، خرج من مصر في شهر ذي القعدة من سنة اثنتين وثلاث مئة، وتوفي بفلسطين في يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من صفر، سنة ثلاث وثلاث مئة.

٢ ــ ولم يكن أحد في رأس الثلاث مئة أحفظ من النسائي، وهو أحذق

بالحديث وعلله ورجاله(*).

٣ ـ والذي عُدَّ من الأصول الستة هو «المجتبى» المعروف بسنن النسائي الصغير رواية ابن السني، أما رواية ابن الأحمر، وابن قاسم، فيقال لها: النسائي الكبير، وفيها الصحيح والمعلول.

٤ ـ ويضم هذا الكتاب بعد اختصاره في المجتبى تلخيصاً لكتب الحديث التي وجدت في عصره، على غرار ما فعل البخاري ومسلم، بالإضافة إلى فروع في العبادات أكثر مما عند سابقيه، ولكنه سلك مسلكهما في جمع السنن.

٥ ـ وكتابه أبدع الكتب المصنفة في السنن تصنيفاً، وأحسنها ترصيفاً، وجاء كتابه جامعاً بين طريقي البخاري ومسلم.

٦ ـ قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر في «شروط الأئمة الستة»:
(أخبرنا أبو بكر الأديب أنبأنا محمد بن عبد الله البيّع اجازة قال: سمعت أبا الحسن أحمد بن محبوب الرملي بمكة يقول: سمعت أبا عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي يقول: لما عزمت على جمع كتاب السنن استخرت الله تعالى في الرواية عن شيوخ كان في القلب منهم بعض الشيء فوقعت الخيرة على تركهم فنزلت في جملة من الحديث كنت أعلو فيهم.

سألت الإمام أبا القاسم سعد بن علي الزنجاني بمكة عن حال رجل من الرواة فوثقه فقلت إن أبا عبد الرحمن النسائي ضعفه، فقال: يا بني إن لأبي عبد الرحمن شرطاً أشد من شرط البخاري ومسلم).

٧ ـ قال الحافظ أبو الفضل بن طاهر في شروط الأئمة: كتاب أبي داود والنسائي ينقسم على ثلاثة أقسام.

(الأول) الصحيح المخرج في الصحيحين.

(*) المنتظم لابن الجوزي (٦:١٣١)، الكامل (٨:٩٦) وفيات الأعيان (١:٧٧)، تذكرة الحفاظ (٢:٦٩٨)، العبر (٢:١٢٣)، سير أعلام النبلاء (١٤:١٢٥)، الوافي بالوفيات (٦:٤١٦)، طبقات الشافعية للسبكي (٣:١٤-١٦)، البداية والنهاية (١١:١٢٣)، تهذيب التهذيب (١:٣٦)، النجوم الزاهرة (٣:١٨٨).

(الثاني) صحيح على شرطهما وقد حكى أبو عبد الله بن منده أن شرطهما اخراج أحاديث أقوام لم يجمع على تركهم إذا صح الحديث باتصال الإسناد من غير قطع ولا إرسال فيكون هذا القسم من الصحيح إلا أنه طريق دون طريق ما أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما بل طريقه طريق ما ترك البخاري ومسلم من الصحيح لما بينا أنهما تركا كثيراً من الصحيح الذي حفظاه.

(القسم الثالث) أحاديث أخرجاها من غير قطع منهما بصحتها وقد أبانا علتها بما يفهمه أهل المعرفة وإنما أودعا هذا القسم في كتابيهما لأنه رواية قوم لها واحتجاجهم بها فأورداها وبينا سقمها لتزول الشبهة وذلك إذا لم يجدا له طريقاً غيره لأنه أقوى عندهما من رأي الرجال.

وقال ابن الصلاح حكى أبو عبد الله بن منده أنه سمع محمد بن سعد الباوردي بمصر يقول: كان من مذهب أبي عبد الله النسائي أن يخرج عن كل من لم يجمع على تركه.

قال الحافظ أبو الفضل العراقي وهذا مذهب متسع قال الحافظ أبو الفضل بن حجر في نكته على ابن الصلاح ما حكاه عن الباوردي أن النسائي يخرج أحاديث من لم يجمع على تركه فإنه أراد بذلك إجماعاً خاصاً وذلك أن كل طبقة من نقاد الرجال لا تخلو من متشدد ومتوسط.

فمن الأولى شعبة وسفيان الثوري وشعبة أشد منه.

ومن الثانية يحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي ويحيى أشد من عبد الرحمن.

ومن الثالثة يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ويحيى أشد من أحمد.

ومن الرابعة أبو حاتم والبخاري وأبو حاتم أشد من البخاري فقال النسائي: لا يترك الرجل عندي حتى يجتمع الجميع على تركه فأما إذا وثقه ابن مهدي وضعفه يحيى القطان مثلاً فإنه لا يترك لما عرف من تشديد يحيى ومن هو مثله في النقد.

قال الحافظ ابن حجر: وإذا تقرر ذلك ظهر أن الذي يتبادر إلى الذهن من أن مذهب النسائي في الرجال مذهب متسع ليس كذلك فكم من رجل أخرج له

أبو داود والترمذي تجنب النسائي إخراج حديثه بل تجنب النسائي إخراج حديث جماعة من رجال الصحيحين.

فحكى أبو الفضل بن طاهر قال سعد بن علي الزنجاني عن رجل فوثقه فقلت له: إن النسائي لم يحتج به فقال: يا بني إن لأبي عبد الرحمن شرطاً في الرجال أشد من شرط البخاري ومسلم.

وقال أحمد بن محبوب الرملي: سمعت النسائي يقول: لما عزمت على جمع السنن استخرت الله في الرواية عن شيوخ كان في القلب منهم بعض الشيء فوقعت الخيرة على تركهم فتركت جملة من الحديث كنت أعلو فيها عنهم.

قال الحافظ أبو طالب أحمد بن نصر شيخ الدارقطني: من يصبر على ما يصبر عليه النسائي كان عنده حديث ابن لهيعة ترجمة ترجمة فما حدث عنه بشيء.

قال الحافظ ابن حجر: وكان عنده عالياً عن قتيبة عنه ولم يحدث به لا في السنن ولا في غيرها.

وقال أبو جعفر بن الزبير: أولى ما أرشد إليه ما اتفق المسلمون على اعتماده وذلك الكتب الخمسة والموطأ الذي تقدمها وضعاً ولم يتأخر عنها رتبة وقد اختلفت مقاصدهم فيها وللصحيحين فيها شفوف وللبخاري لمن أراد التفقه مقاصد جميلة ولأبي داود في حصر أحاديث الأحكام واستيعابها ما ليس لغيره وللترمذي في فنون الصناعة الحديثية ما لم يشاركه غيره وقد سلك النسائي أغمض تلك المسالك وأجلها.

وقال أبو الحسن المعافري: إذا نظرت إلى ما يخرجه أهل الحديث فما خرجه النسائي أقرب إلى الصحة مما خرجه غيره.

٨ — ومن ثم صرّح بعض المغاربة بتفضيل كتاب النسائي على كتاب البخاري كما ينقله الحافظ السخاوي في فتح المغيث.

وقال الحافظ ابن حجر في «نكته على ابن الصلاح»: (تجنب النسائي إخراج حديث جماعة من رجال الشيخين).

وقال أبو الحسن المعافري: (إذا نظرت إلى ما يخرجه أهل الحديث فما خرجه النسائي أقرب إلى الصحة مما خرّجه غيره).

وقال محمد بن مغاوية الأحمر الراوي عن النسائي: (قال النسائي: كتاب السنن كله صحيح وبعضه معلول إلا أنه يبين علته والمنتخب المسمى بالمجتبى صحيح كله).

٩ ــ قال الدارقطني: أبو عبد الرحمن مقدَّم على كلِّ من يُذْكر بهذا العلم من أهل عصره.

١٠ ــ قال الحافظ ابن طاهر: سألت سعد بن علي الزنجاني عن رجل فوثَّقَه، فقلت: قد ضعَّفه النسائي، فقال: يا بني! إنَّ لأبي عبد الرحمن شرطاً في الرجال أشد من شرط البخاري ومسلم.

رابعاً: سنن أبي داود:

١ ــ هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأسدي السجستاني، ولد سنة (٢٠٢ هـ = ٨١٧ م)، وقد بدأ رحلاته العلمية في وقت مبكر، ففي سنة (٢٢٠) كان في بغداد، ورحل إلى الشام، ومصر، وخراسان، وكتب عن شيوخها، كما أخذ عن مشايخ البخاري ومسلم، كالإمام أحمد، وابن أبي شيبة، وقتيبة بن سعيد، وغيرهم، وعنه أخذ النسائي، والترمذي، وأبو عوانة، وعرف بمحدّث البصرة.

٢ ــ وقد أثنى عليه العلماء، وكانوا يذكرونه بما لا يذكرون أحداً في زمانه مثله، ويرفعون من قدره.

٣ ــ وقد كان أحد حفاظ الإسلام لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلمه، وعلله، وسنده، في أعلى درجة النسك والصلاح والورع، من فُرسان الحديث.

٤ ــ قال أبو بكر محمد بن إسحاق الصاغاني، وإبراهيم الحربي: لما صنف أبو داود كتاب «السنن» أُلين لأبي داود الحديث، كما أُلين لداود، عليه السلام، الحديد.

الحاكم: سمعت الزبير بن عبد الله بن موسى، سمعت محمد بن مخلد يقول: كان أبو داود يفي بمذاكرة مئة ألف حديث، ولما صنف كتاب «السنن»، وقرأه على الناس، صار كتابه لأصحاب الحديث كالمصحف، يتبعونه ولا يخالفونه، وأقر له أهل زمانه بالحفظ والتقدم فيه.

وقال الحافظ موسى بن هارون: خلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنّة.

وقال علان بن عبد الصمد: سمعت أبا داود، وكان من فرسان الحديث.

قال أبو حاتم بن حبان: أبو داود أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وحفظاً، ونسكاً وورعاً وإتقاناً جمع وصنف وذب عن السنن.

قال الحافظ أبو عبد الله بن مندة: الذين خرجوا وميزوا الثابت من المعلول، والخطأ من الصواب أربعة: البخاري، ومسلم، ثم أبو داود، والنسائي.

وقال أبو عبد الله الحاكم: أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة، سمع بمصر والحجاز، والشام والعراقين وخراسان. وقد كتب بخراسان قبل خروجه إلى العراق، في بلده وهراة. وكتب ببغلان عن: قتيبة، وبالري عن إبراهيم بن موسى، إلا أن أعلى إسناده: القعنبي، ومسلم بن إبراهيم.. وسمى جماعة. قال: وكان قد كتب قديماً بنيسابور، ثم رحل بابنه أبي بكر إلى خراسان.

روى أبو عبد الآجري، عن أبي داود، قال: دخلت الكوفة سنة إحدى وعشرين، وما رأيت بدمشق مثل أبي النضر الفراديسي، وكان كثير البكاء، كتبت عنه سنة اثنتين وعشرين.

قال القاضي الخليل بن أحمد السجزي، سمعت أحمد بن محمد بن الليث قاضي بلدنا يقول: جاء سهل بن عبد الله التستري إلى أبي داود السجستاني، فقيل: يا أبا داود: هذا سهل بن عبد الله جاءك زائراً — فرحب به، وأجلسه، فقال سهل: يا أبا داود! لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: حتى تقول: قد قضيتها مع الإمكان. قال: نعم. قال: أخرج إلي لسانك الذي تحدث به أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أقبله. فأخرج إليه لسانه فقبله.

روى إسماعيل بن محمد الصفار، عن الصاغاني، قال: لين لأبي داود السجستاني الحديث، كما لين لداود الحديد.

وقال موسى بن هارون: ما رأيت أفضل من أبي داود.

قال ابن داسة: سمعت أبا داود يقول: ذكرت في «السنن» الصحيح وما يقاربه، فإن كان فيه وهن شديد بينته.

وقد توفي أبو داود في سادس عشر من شوال، سنة (٢٧٥)(٥).

٥ ــ انتقى أبو داود سننه من خمس مئة ألف حديث، فبلغت (٤٨٠٠) حديث، وقصرها على أحاديث الأحكام، وبذلك كان أول من صنف في الأحكام من أصحاب السنن والصحاح بجمع الأحاديث التي استدل بها الفقهاء ودارت فيهم، وبنى عليها الأحكام فقهاء الأمصار.

٦ ــ جمع في كتابه الصحيح، والحسن، والصالح للعمل.

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣: ٢١٤):

فقد وفّى ــ رحمه الله ــ بذلك بحسب اجتهاده، وبين ما ضعفه شديد، ووهنه غير محتمل، وكاسر عن ما ضعفه خفيف محتمل، فلا يلزم من سكوته ــ والحالة هذه ــ عن الحديث أن يكون حسناً عنده، ولا سيا إذا حكمنا على حد الحسن باصطلاحنا المولد الحادث، الذي هو في عرف السلف يعود إلى قسم من أقسام الصحيح، الذي يجب العمل به عند جمهور العلماء، أو الذي يرغب عنه أبو عبد الله البخاري، ويمشّيه مسلم، وبالعكس، فهو داخل في أداني مراتب الصحة، فإنه لو انحط عن ذلك لخرج عن الاحتجاج، ولبقي متجاذباً بين الضعف والحسن، فكتاب أبي داود أعلى ما فيه من الثابت ما أخرجه الشيخان، وذلك نحو من شطر الكتاب، ثم يليه ما أخرجه أحد الشيخين، ورغب عنه الآخر، ثم يليه ما رغبا عنه، وكان إسناده جيداً، سالماً من علة وشذوذ، ثم يليه ما كان إسناده صالحاً، وقبله العلماء لمجيئه من وجهين لينين فصاعداً، يعضد كل إسناد منها الآخر، ثم يليه ما ضعف إسناده لنقص حفظ راويه، فمثل هذا يمشيه أبو داود، ويسكت عنه غالباً، ثم يليه ما كان بين الضعف من جهة راويه، فهذا لا يسكت عنه، بل يوهنه غالباً، وقد يسكت عنه بحسب شهرته ونكارته، والله أعلم.

---

(٥) تاريخ بغداد (٩: ٥٥)، طبقات الحنابلة (١: ١٥٩)، المنتظم (٥: ٩٧)، وفيات الأعيان (٢: ٤٠٤)، تذكرة الحفاظ (٢: ٥٩١)، العبر (٢: ٥٤)، سير أعلام النبلاء (١٣: ٢٠٣)، طبقات الشافعية للسبكي (٢: ٢٩٣)، البداية والنهاية (١١: ٥٤)، تهذيب التهذيب (٤: ١٦٩)، تهذيب تاريخ دمشق (٦: ٢٤٦).

٧ ـــ ولأبي داود «رسالة إلى أهل مكة» وصف فيها تأليفه لكتاب السنن وهي مطبوعة بمصر وقد لخصها شيخ الهند محمود حسن الديوبندي والشيخ فخر الحسن الكنكوهي فيما كتباه على سنن أبي داود، قال فيها:

(لا أعرف أحداً جمع على الاستقصاء غيري) وقال: (أما هذه المسائل، مسائل الثوري، ومالك، والشافعي، فهذه الأحاديث أصولها، ويعجبني أن يكتب الرجل مع هذه الكتب من رأي أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويكتب أيضاً مثل «جامع سفيان الثوري» فإن أحسن ما وضع الناس في الجوامع.

والأحاديث التي وضعتها في كتاب السنن أكثرها مشاهير وهي عند كل من كتب شيئاً من الحديث إلا أن تمييزها لا يقدر عليه كل الناس والفخر بها أنها مشاهير فإنه لا يحتج بحديث غريب ولو كان من رواية مالك ويحيى بن سعيد والثقات من أئمة العلم، ولو احتج رجل بحديث غريب وجدت من يطعن فيه ولا يحتج بالحديث الذي قد احتج به إذا كان الحديث غريباً شاذاً، فأما الحديث المشهور المتصل الصحيح فليس يقدر أن يرده عليك أحد، وقال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الغريب من الحديث، وقال يزيد بن أبي حبيب: إذا سمعت الحديث فأنشده كما تنشد الضالة فإن عرف وإلا فدعه).

وقال في صدر رسالته: (إنكم سألتم أن أذكر لكم الأحاديث التي في كتاب السنن أهي أصح ما عرفت في الباب ووقفت على جميع ما ذكرتم، فاعلموا أنه كذلك كله إلا أن يكون قد روي من وجهين صحيحين، فأحدهما أقدم إسناداً والآخر صاحبه قُدم في الحفظ فربما كتبت ذلك، ولا أرى في كتابي من هذا عشرة أحاديث، ولم أكتب في الباب إلا حديثاً أو حديثين وإن كان في الباب أحاديث صحاح لأنه يكثر) وقال: (وليس في كتاب السنن الذي صنفته عن رجل متروك الحديث شيء وإذا كان فيه حديث منكر بينت أنه منكر وليس على نحوه في الباب غيره).

وقال أيضاً: (وما كان في كتابي من حديث فيه وهن شديد فقد بينته وفيه ما لا يصح سنده وما لم أذكر فيه شيئاً فهو صالح وبعضها أصح من بعض، وهذا

لو وضعه غيري لقلت أنا فيه أكثر، وهو كتاب لا يرد عليك سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صالح إلا وهي فيه... ولا أعلم شيئاً بعد القرآن ألزم للناس أن يتعلموا من هذا الكتاب ولا يضر رجلاً أن لا يكتب شيئاً من العلم بعدما يكتب هذه الكتب، وإذا نظر فيه وتدبره وتفهمه حينئذ يعلم مقداره).

٨ ــ ولقد صدق رحمه الله فيما قال وكان أفقه الستة ولذا يذكره الشيرازي في طبقات الفقهاء دون غيره من أصحاب الأصول، واختياره هذا المنهج أيضاً من فقهه رضي الله عنه رضى الأبرار، وقد رزق هذا الكتاب القبول من أئمة أهل العلم من جميع الطوائف، فنرى الإمام المجتهد الجصاص أبا بكر الرازي في تصانيفه كأنّ أحاديث أبي داود على طرف لسانه.

ويقول الإمام الخطابي في «معالم السنن»:

(واعلموا رحمكم الله أن كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنف في علم الدين مثله وقد رزق القبول من الناس كافة فصار حكماً بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم، فلكل فيه ورد ومنه شرب وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب وكثير من مدن أقطار الأرض، فأما أهل خراسان فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل ومسلم بن الحجاج ومن نحا نحوهما في جمع الصحيح على شرطهما في السبك والانتقاد إلا أن كتاب أبي داود أحسن رصفاً وأكثر فقهاً وكتاب أبي عيسى أيضاً حسن والله يغفر لجماعتهم ويحسن على جميل النية فيما سعوا له مثوبتهم برحمته).

قلت:

«وللناس فيما يعشقون مذاهب»

فأما الفقهاء فعندهم للأحاديث المشاهير وما جرى عليها العمل شأن وان كان في إسنادها مقال، قال السيوطي في «التعقيبات على الموضوعات» بعد ذكره حديث حنش وهو ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما: «من جمع بين الصلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من الكبائر».

(أخرجه الترمذي وقال: والعمل على هذا عند أهل العلم، فأشار بذلك إلى أن

الحديث اعتضد بقول أهل العلم وقد صرح غير واحد بأن من دليل صحة الحديث قول أهل العلم به وان لم يكن له إسناد يعتمد على مثله).

وقال السخاوي في «فتح المغيث بشرح الفية الحديث»:

(وكذا إذا تلقت الأمة الضعيف بالقبول يعمل به على الصحيح حتى أن ينزل منزلة المتواتر في أن ينسخ المقطوع به ــ ولهذا قال الشافعي رحمه الله في حديث: «لا وصية لوارث» ان لا يثبته أهل الحديث ولكن العامة تلقته بالقبول وعملوا به حتى جعلوه ناسخاً لآية الوصية).

وأما الرواة النقلة الذين يسردون الحديث سرداً من دون تفقه فيه ولا تدبر فقصارى همهم صحة الاسناد فاذا صح الاسناد لا يوازيه عندهم شيء وان كان الحديث شاذاً كما قدمنا قول الحاكم والذهبي في هذا الباب.

خامساً: جامع الترمذي:

١ ــ هو أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي، ولد سنة (٢١٠ هـ = ٨٢٥ م) في بوغ من أعمال ترمذ على نهر جيحون.

٢ ــ كان رحلته إلى خراسان، والعراق، والحرمين، ولم يرحل إلى مصر والشام.

يعتبر البخاري أحد شيوخه فقد أكثر عنه، وأخذ أيضاً عن إسحاق بن راهويه، ومحمود بن غيلان، وعمرو بن علي الفَلاّس، ومحمد بن حُميد الرازي، وسويد بن نصر، وغيرهم، حتى غدا إماماً في الحديث جمع إلى الدين والورع والحفظ والثقة.

قال أبو يعلى الخليلي: ثقة متفق عليه، ويكفي في توثيقه أن إمام المحدثين: محمد ابن إسماعيل البخاري كان يعتمده ويأخذ عنه.

قال أبو سعد الإدريسي: كان أبو عيسى يُضرب به المثل في الحفظ.

٣ ــ وجامعُه قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه، ولكنه يترخَّص في قبول الأحاديث ولا يشدّد، ونَفَسه في التضعيف رخوٌ وقد سلك طريق أبي داود حيث عمد إلى ما أخذ به أهل العلم من أئمة الفقهاء إلا أن أبا داود اقتصر في كتابه على أحاديث الاحكام والترمذي لم يقتصر عليها بل استحسن طريق البخاري في جمعه الحديث في سائر الابواب وزاد عليها مذاهب الصحابة والتابعين وفقهاء الامصار واختصر طرق الحديث فذكر واحداً وأومأ إلى ما عداه وبين أمر كل حديث من أنه صحيح أو حسن أو ضعيف أو منكر وبين وجه الضعف أو انه مستفيض أو غريب وسمى من يحتاج إلى التسمية وكنى من يحتاج إلى التكنية، قال الترمذي في «كتاب العلل» من جامعه: (جميع ما في هذا الكتاب من الحديث هو معمول به

وبه أخذ بعض أهل العلم ما خلا حديثين) وقال الحافظ محمد بن طاهر المقدسي في كتابه شروط الأئمة الستة:

(سمعت الإمام أبا إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري بهراة وجرى بين يديه ذكر أبي عيسى الترمذي وكتابه فقال كتابه عندي أنفع من كتاب البخاري ومسلم لأن كتابي البخاري ومسلم لا يقف على الفائدة منهما إلا المتبحر العالم، وكتاب أبي عيسى يصل إلى فائدته كل أحد).

٤ ـ ويبلغ عدد أحاديث الترمذي حوالي (٤٠٠٠) حديث وقد ألفه على أبواب الفقه، واشتمل على الصحيح والحسن والضعيف، مع بيان درجة كل حديث في موضعه وبيان وجه ضعفه، وبيَّن مذاهب الصحابة وعلماء الأمصار في كل المسائل التي عقد لها أبواباً، ومن ميزاته أنه أفرد في آخره فصلاً للعلل جمع فيه قواعد هامة.

توفي رحمه الله بترمذ سنة (٢٧٩) هـ[*].

(*) وفيات الأعيان (٤:٢٧٨)، تذكرة الحفاظ (٢:٦٣٣)، الميزان (٣:٦٧٨)، العبر (٢:٦٢)، السير (١٣:٢٧٠)، الوافي (٤:٢٩٤)، البداية والنهاية (١١:٦٦)، التهذيب (٩:٣٨٧)، مرآة الجنان (٢:١٩٣)، شذرات الذهب (٢:١٧٤)، تاريخ التراث العربي (١:٢٤٢).

سادساً: سنن ابن ماجة:

١ ــ هو محمد بن يزيد، الحافظ الكبير، الحجة، المفسر، أبوعبد الله ابن ماجة القزويني ولد سنة (٢٠٩ هـ=٨٢٤ م).

قال الشاه عبد العزيز في كتابه «عجالة نافعة» إن ماجة لقب أبيه لا جده ولا اسم أمه وهو بالتخفيف لا بالتشديد ووقع في ذلك أغلاط كثيرة هكذا قال رحمه الله.

وقال المجد الفيروزبادي في «القاموس» (ماجه لقب والد محمد بن يزيد لا جده اهـ) وقال السيد مرتضى الزبيدي في «شرح القاموس» (أي لا لقب جده كما زعمه بعض، قال شيخنا (يريد الشيخ أبا الطيب الفاسي) وما ذهب إليه المصنف فقد جزم به أبو الحسن بن القطان، ووافقه على ذلك هبة الله بن زاذان وغيره قالوا وعليه فيكتب «ابن ماجة» بالالف لا غير اهـ).

وكذا قال الشيخ أبو الحسن السندي في «تعليقه على سنن ابن ماجة» ونقل الحافظ ابن كثير عن الخليلي أيضاً (ان يزيد يعرف بماجة ا هـ) وذكر الرافعي في «تاريخ قزوين» في ترجمته أنه (محمد بن يزيد وأن ماجة لقب يزيد وأنه بالتخفيف اسم فارسي، قال، وقد يقال محمد بن يزيد بن ماجة والأول: أثبت ا هـ).

والقزويني نسبة إلى قزوين، قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»:

(«قزوين» بالفتح ثم السكون وكسر إلواو وياء مثناة من تحت ساكنة ونون، مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخاً إلى ابهر اثنا عشر فرسخاً وهي في الاقليم الرابع طولها خمس وسبعون درجة وعرضها سبع وثلاثون درجة قال ابن الفقيه أول من استحدثها سابور ذو الأكتاف ا هـ).

٢ ــ مولده، قال جعفر بن إدريس في تاريخه، سمعت ابن ماجه يقول ولدت في سنة ٢٠٩ تسع ومائتين، قاله ياقوت في «معجم البلدان»، ويوافق هذا سنة ٨٢٤ أربع وعشرين وثمانمائة الميلادي.

٣ ــ رحلته في طلب الحديث وشيوخه، قال ابن خلكان (ارتحل إلى العراق والبصرة والكوفة وبغداد ومكة والشام ومصر والرّي لكتب الحديث اهـ) وقال ابن حجر في «التهذيب» سمع بخراسان والعراق والحجاز ومصر والشام وغيرها من البلاد اهـ، وقال ياقوت في «معجم البلدان».

(سمع بدمشق هشام بن عمار ودحيماً والعباس بن الوليد الخلال وعبد الله ابن أحمد بن بشير بن ذكوان ومحمود بن خالد العباس بن عثمان وعثمان بن اسماعيل بن عمران الذهلي وهشام بن خالد وأحمد بن أبي الحوارى، وبمصر أبا طاهر بن سرح ومحمد بن رويح ويونس بن عبد الأعلى، وبحمص محمد بن مصفى وهشام بن عبد الملك اليزني وعمراً ويحيى ابني عثمان، وبالعراق أبا بكر بن أبي شيبة وأحمد بن عبدة وإسماعيل بن أبي موسى الفزاري وأبا خيثمة زهير بن حرب وسويد بن سعيد وعبد الله بن معاوية الجمحي وخلقا سواهم اهـ).

وقال الذهبي في «التذكرة» (سمع محمد بن عبد الله بن نمير وجبارة بن المغلس وإبراهيم بن المنذر الحزامي وعبد الله بن معاوية وهشام بن عمار ومحمد بن رمح وداود بن رشيد وطبقتهم اهـ) وقال الشيخ ولي الدين الخطيب في «الإكمال» (سمع أصحاب مالك والليث اهـ) وصنف الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ أحد وسبعين وخمسمائة «معجماً» يشتمل على ذكر أسماء شيوخ الأئمة الستة، وهو من محفوظات دار الكتب الظاهرية بدمشق.

٤ ــ تلاميذه، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب:

(روى عنه علي بن سعيد بن عبد الله الغداني العسكري وإبراهيم بن دينار الجرشي الهمداني وأحمد بن إبراهيم القزويني جد الحافظ أبي يعلى الخليلي وأبو الطيب أحمد بن روح الشعراني وإسحاق بن محمد القزويني وجعفر بن إدريس والحسين بن

علي بن برانياد وسليمان بن يزيد القزويني ومحمد بن عيسى الصفار وأبو الحسن علي ابن إبراهيم بن سلمة القزويني الحافظ وأبو عمرو أحمد بن محمد بن حكيم المدني الأصبهاني وآخرون اهـ).

٥ ــ ثناء أهل العلم عليه، قال أبو يعلى الخليلي (ابن ماجة ثقة كبير متفق عليه محتج به، له معرفة وحفظ ارتحل إلى العراقين ومكة والشام ومصر، قال وكان عارفاً بهذا الشأن اهـ) وقال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» (ابن ماجة الحافظ الكبير المفسر... صاحب السنن والتفسير والتاريخ ومحدث تلك الديار اهـ) وقال في «العبر» (الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة، الكبير الشأن القزويني اهـ) وقال ابن ناصر الدين (هو أحد الأئمة الاعلام وصاحب السنن أحد كتب الإسلام، حافظ ثقة كبير اهـ) كذا في «شذرات الذهب» لابن العماد، وقال ابن الأثير في «الكامل» في ترجمته (كان عاقلاً إماماً عالماً اهـ) وقال المؤرخ العلامة جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى بردي الأتابكي في «النجوم الزاهرة» محمد بن يزيد ابن ماجة الإمام الحافظ الحجة الناقد أبو عبد الله القزويني... سمع الكثير وكان صاحب فنون اهـ) وقال ياقوت في «معجم البلدان» (ومن أعيان الأئمة من أهل قزوين، محمد بن يزيد بن ماجة أبو عبد الله القزويني الحافظ صاحب كتاب السنن اهـ) وقال ابن خلكان في «وفياته» (ابن ماجة الربعي بالولاء القزويني الحافظ المشهور مصنف كتاب السنن في الحديث كان اماماً في الحديث عارفاً بعلومه وجميع ما يتعلق به اهـ).

٦ ــ وفاته، قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي في كتابة «شروط الأئمة الستة» (ورأيت بقزوين له (أي لابن ماجة) تاريخاً على الرجال والأمصار من عهد الصحابة إلى عصره وفي آخره بخط جعفر بن إدريس صاحبه، مات أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة المعروف يوم الإثنين ودفن يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر رمضان من سنة ٢٧٣ ثلاث وسبعين ومائتين وسمعته يقول ولدت في سنة ٢٠٩ تسع ومائتين ومات وله أربع وستون سنة، وصلى عليه أخوه أبو بكر وتولى دفنه أبو بكر وأبو عبد الله أخواه وابنه عبد الله اهـ) ويوافق ذلك سنة ٨٨٦ ست

وثمانين وثمانمائة الميلادية، وقال الرافعي في «تاريخ قزوين» ورثاه محمد بن الأسود بأبيات أولها:

لقد أوهى دعائم عرش علم ... وضعضع ركنه فقْدُ ابن ماجة

ورثاه يحيى بن زكريا الطرائفي بقوله:

أيا قبر ابن ماجة غثت قطرا ... مساء بالغداة وبالعشي

نقله الحافظ في التهذيب.

٧ ـ مصنفاته، قد ذكروا منها التفسير والتاريخ وكتاب السنن.

أما **التفسير**، فقال ابن كثير في «البداية»: لابن ماجة تفسير حافل، وقال السيوطي في «الإتقان» بعد ذكر قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين.

(ثم بعد هذه الطبقة ألفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين كتفسير سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ويزيد بن هارون وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس وإسحاق بن راهوية وروح بن عبادة وعبد بن حميد وسعيد وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرين وبعدهم ابن جرير الطبري وكتابه أجل التفاسير وأعظمها ثم ابن أبي حاتم وابن ماجة والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ وابن حبان وابن المنذر في آخرين وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين واتباعهم وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط فهو يفوقها بذلك ثم ألف في التفسير خلائق فاختصروا الاسانيد ونقلوا الأقوال تترى فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل اهـ).

وأما **التاريخ** فقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (لابن ماجة تفسير وتاريخ كامل من لدن الصحابة إلى عصره اهـ) وقال ابن خلكان (له تفسير القرآن الكريم وتاريخ مليح اهـ) وقد رآه الحافظ أبو الفضل المقدسي كما مر ذكره في وفاته.

وأما **كتاب السنن**، فهو أحد دواوين الستة المشهورة، قال الذهبي في «تذكرة

الحفاظ» (عن ابن ماجة، قال عرضت هذه السنن على أبي زرعة فنظر فيه وقال أظن أن وقع هذا في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع وأكثرها اهـ) وقال أبو القاسم الرافعي في تاريخ قزوين المسمى «بالتدوين» (والحفاظ يقرنون كتابه بالصحيحين وسنن أبي داود والنسائي ويحتجون بما فيه اهـ).

وقال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (ابن ماجة صاحب السنن المشهورة وهي دالة على عمله وعلمه وتبحره واطلاعه واتباعه السنة في الأصول والفروع ويشتمل على اثنين وثلاثين كتاباً وألف وخمسمائة باب وعلى أربعة آلاف حديث كلها جياد سوى اليسيرة اهـ).

وقال في «اختصاره لعلوم الحديث لابن صلاح» (هو كتاب مفيد قوي التبويب في الفقه اهـ) وقال الذهبي في التذكرة (سنن أبي عبد الله (ابن ماجة) كتاب حسن لولا ما كدره من أحاديث واهية ليست بالكثيرة اهـ) وقال ابن حجر في التهذيب (وكتابه في السنن جامع جيد كثير الأبواب والغرائب) قال ابن خلكان (وكتابه في الحديث أحد الصحاح الستة اهـ) وقال الحافظ ابن كثير في اختصاره لعلوم الحديث وهو المسمى «بالباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث».

(أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني صاحب السنن التي كمل بها الكتب الستة والسنن الأربعة بعد الصحيحين التي اعتنى بأطرافها الحافظ ابن عساكر وكذلك شيخنا الحافظ المزي اعتنى برجالها وأطرافها اهـ).

وقال السيد صديق حسن خان في «الحطة بذكر الصحاح الستة».

(قال الشيخ عبد الحق الدهلوي، كتابه واحد من الكتب الإسلامية التي يقال لها الأصول الستة والكتب الستة والصحاح الستة، قلت والأمهات الستة، وإذا قال المحدثون رواه الجماعة يريدون بهذه الرجال الستة في تلك الكتب الستة، وإذا قالوا رواه الأربعة فرادهم هذه الأربعة غير البخاري ومسلم وله عدة أحاديث ثلاثيات أوردها في سننه، انتهى، وهذه الثلاثيات من طريق جبارة بن المغلس وله حديث في فضل قزوين منكر بل موضوع ولهذا طعنوا فيه وفي كتابه، وواضعه رجل اسمه ميسرة اهـ).

قلت كذا قال السيد المذكور وليس في سنده ميسرة بل المتهم به أماً داود بن المحبر وأما يزيد بن أبان وقال الشيخ محمد بن يحيى الشهير بالحسن التيمي ثم البكري الترهتي ثم الفريني في كتابه «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني».

(ولابن ماجة رحمه الله خمسة أحاديث من الثلاثيات من طريق جبارة بن المغلس الحماني قد تكلموا فيه أوردها في سننه هذا ولكتابه منافع، وله مناقب، رضي الله عنه وأرضاه اهـ).

وقال العلامة ابن حجر الهيتمي في «الفهرسة».

قال المزي ان الغالب فيما انفرد به ابن ماجة الضعف ولذا أجرى كثير من القدماءا على اضافة الموطأ أو غيره إلى الخمسة، قال الحافظ أول من أضاف ابن ماجة إلى الخمسة أبو الفضل بن طاهر حيث أدرجه معها في «الأطراف» وكذا في «شروط الأئمة الستة» ثم الحافظ عبد الغني في كتابه في أسماء الرجال الذي هذبه الحافظ المزي وسبب تقديم هؤلاء له على الموطأ كثرة زوائده على الخمسة بخلاف الموطأ وممن اعتنى بأطرافها الحافظ ابن عساكر ثم المزي مع رجالها اهـ)(*).

(*) من كتاب ما تمس إليه الحاجة لمحمد عبد الرشيد النعماني، وانظر أيضاً: المنتظم (٥:٩٠)، وفيات الأعيان (٤:٢٧٩)، تذكرة الحفاظ (٦٣٦)، العبر (٢:٥١)، الوافي بالوفيات (٥:٢٢٠)، البداية (١١:٥٢)، التهذيب (٩:٥٣٠)، النجوم الزاهرة (٣:٧٠)، معجم المؤلفين (١٢:١١٥)، تاريخ التراث العربي (١:٢٢٩).

بقية موارد ابن كثير في جامع المسانيد والسنن

المعجم الكبير للطبراني

١ ــ الطبراني هو الإمام الحافظ الثقة، الرّحال الجوال، محدّث الإسلام، علم المعمّرين، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللّخمي الشامي الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة.

مولده بمدينة عكا في صفر سنة (٢٦٠).

أول ارتحاله في طلب الحديث كان سنة (٢٧٥)، ثم بقي في الارتحال ولقيّ الرّجال ستة عشر عاماً، كتب فيها عمن أقبل وأدبر، وبرع في هذا الشأن، وجمع وصنف، وعُمِّر دهراً طويلاً، وازدحم عليه المحدثون، ورحلوا إليه من الأقطار.

٢ ــ أخذ عن أكثر من ألف شيخ في الأعوام التي قضاها في أسفاره طلباً للعلم، ولما عاد ثانية إلى أصبهان استقر به المقام هناك، وعد محدثاً ثقة، وكان كثير التصانيف، وتوفي سنة (٣٦٠) هـ[٥].

٣ ــ قال أبو نُعيم: قدم الطبرانيُّ أصبَهان سنة تسعين ومئتين، ثم خرجَ، ثم قدمها فأقام بها محدِّثاً ستّين سنة.

قال سليمان بن ابراهيم الحافظ: قال أبو أحمد العسّال القاضي: إذا سمعتُ من الطبراني عشرين ألف حديث، وسمع منه أبو إسحاق بن حمزة ثلاثين ألفاً، وسمع منه أبو الشيخ أربعين ألفاً، كملنا.

---

(٥) أخبار أصبهان لأبي نعيم (١:٣٣٥)، طبقات الحنابلة (٢:٤٩)، المنتظم (٧:٥٤)، معجم البلدان (٤:١٨)، وفيات الأعيان (٢:٤٠٧)، تذكرة الحفاظ (٣:٩١٢)، ميزان الاعتدال (٢:١٩٥)، العبر (٢:٣١٥)، سير أعلام النبلاء (١٦:١١٩)، البداية (١١:٢٧٠)، النجوم الزاهرة (٤:٥٩)، تهذيب تاريخ دمشق (٦:٢٤٢)، معجم المؤلفين (٤:٢٥٣)، تاريخ التراث العربي (١:٣١٧).

قال الذهبي: هؤلاء كانوا شيوخَ أصبهان مع الطبراني.

قال أبو نُعيم الحافظ: سمعتُ أحمد بن بندار يقول: دخلت العسكر سنة ثمانٍ وثمانينَ ومئتين، فحضرتُ مجلسَ عبدان، وخرج ليملي، فجعل المُستملي يقول له: إنْ رأيتَ أن تُملي؟ فيقول: حتى يحضر الطبراني. قال: فأقبل أبو القاسم بعد ساعة متَّزراً بإزار مُرتدياً بآخر، ومعه أجزاء، وقد تبعَهُ نحو من عشرين نفساً من الغرباء من بلدان شتى حتى يُفيدهم الحديث.

قال أبو بكر بن مَرْدويه في «تاريخه»: لما قدم الطبرانيُّ قدمته الثانية سنة عشر وثلاث مئة إلى أصبهان قَبِلَهُ أبو علي أحمد بن محمد بن رستم العامل، وضمَّه إليه، وأنزله المدينة، وأحسن معونته، وجعل له معلوماً من دار الخراج فكان يَقْبِضُه إلى أن مات. وقد كنى ولده محمداً أبا ذر، وهي كنيةُ والده أحمد.

٤ ــ ومن تواليفه «المعجم الصغير» في مجلد، عن كلِّ شيخ حديث و «المعجم الكبير» وهو معجم أسماء الصَّحابة وتراجمهم وما رَوَوْه، لكن ليس فيه مُسند أبي هريرة، ولا استوعبَ حديث الصَّحابة المُكثرين، في ثماني مجلدات، و «المعجم الأوسط» على مشايخه المُكثرين، وغرائب ما عندَه عن كلِّ واحد، يكون خمس مجلدات. وكان الطبرانيُّ ــ فيما بلغنا ــ يقول عن «الأوسط»: هذا الكتاب رُوحي.

وقال أبو بكر بن أبي علي: سأل أبي أبا القاسم الطبراني عن كثرة حديثه، فقال: كنتُ أنامُ على البواري ثلاثينَ سنة.

٥ ــ سئل العلامة محمد بن إسماعيل الأمير عن الوجه في تسمية الطبراني لمعاجمه الثلاثة بالكبير، والأوسط، والصغير، فأجاب رحمه الله بقوله الذي ذكره الحافظ الحجة أبو القاسم الطبراني ما لفظه:

«أنه صنف المعجم الكبير وهو سوى مسند أبي هريرة، فكأنه أفرده في مصنف، والمعجم الأوسط في ست مجلدات كبار، يأتي عن كل شيخ بما له من الغرائب والعجائب فهو نظير كتاب الأفراد للدارقطني، وقد تعب فيه، وفيه كل نفيس وعزيز ومنكر، وصنف الصغير وهو عن كل شيخ له حديث واحد».

٦ ــ أفادت هذه العبارة وجه التسمية المسؤول عنها، وأفادت أن في الأوسط مناكير.

أما تسمية الثلاثة بالمعاجم فالظاهر أنها كلها مرتبة على حروف المعجم، ثم ما يكون حال الحديث المنقول عن أي هذه الثلاثة المعاجم في أي كتاب مجرد عن الإسناد، كما يوجد في جامع الحافظ أبي بكر عبد الرحمن السيوطي (رحمه الله تعالى) «الجامع الكبير» و «الصغير» و «ذيله»، ولم يعثر الناظر على كلام لأحد من أئمة الحديث على صفة الحديث من صحة ولا تحسين ولا تضعيف وأنه هل يحتج به في الحلال والحرام، ويتوقف فيه، وأنه إذا عارضه قياس راجح أيهما يكون أرجح، وهذه الأطراف الأخرى ليست خاصية بالطبراني. بل علامة في كل كتاب ينقل منه متن الحديث التي لم تعرف قاعدة مؤلفه، ولا عرف الناظر مسنده حتى يبحث عن رجاله وهذا منوال جيد جداً يحتمل الإطالة ولكن نذكر ما يرشد إلى المراد فنقول: إن الحافظ السيوطي (رحمه الله تعالى) ذكر في ديباجة الجامع ثلاث قواعد:

الأولى: أن أحاديث معاجم الطبراني الثلاثة، وكتاب النسائي، وابن ماجة، الموطأ ومسند أحمد ورواية ابنه عبد الله، وكتاب عبد الرزاق، وكتاب سعيد بن منصور، وكتاب ابن أبي شيبة، وكتاب أبي يعلى، والدارقطني، وأبي نعيم، والبيهقي، فهذه خمسة عشر كتاباً ذكر أن فيها الصحيح والحسن والضعيف قال: وإنه قد بيّن ذلك في «الجامع الكبير» غالباً إلاَّ أنه قال: إن كل ما في مسند أحمد فإنه مقبول فإن الضعيف الذي فيه يقرب من الحسن.

والقاعدة الثانية: أن ما كان في البخاري ومسلم وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم و«المختارة» للضياء فإنه صحيح والعزو إليه مسلّم بالصحة.

القاعدة الثالثة: أن ما كان في «الضعفاء» للعقيلي و«الكامل» لابن عدي و«تاريخ الخطيب» و«تاريخ ابن عساكر» و«تاريخ ابن الجارود» و«نوادر الأصول للحكيم الترمذي» وفي «مسند الفردوس» للديلمي فكل ما في هذه ضعيف، وأنه يستغنى بالعزو إليها أو إلى بعضها عن بيان صفة.

٧ ـ يشتمل المعجم الكبير للطبراني على حوالي (٢٥٠٠٠) حديث بالمكرر.

٨ ـ نقل الهيثمي زوائده إلى «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» وعلق على إسنادها.

مسند البزار

١ ــ هو الشيخ، الإمام، الحافظ الكبير، أبو بكر، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، البصري، البزار، صاحب «المسند» الكبير، الذي تكلم على أسانيده.

٢ ــ ولادته حوالي سنة (٢١٠) هـ، ووفاته سنة (٢٩٢) هـ.

٣ ــ من شيوخه: هُدبة بن خالدو وعبد الأعلى بن حماد، وسعيد بن يحيى الأموي، وابن المثنى، وبندار، وعبد الله بن شبيب، وغيرهم.

وقد حدث عنه الطبراني و وابن قانع، وأبو الشيخ، ومحمد بن أحمد بن يعقوب، وأحمد بن جعفر السمسار، وعبد الرحمن بن محمد بن جعفر الكسائي.

٤ ــ وقد ارتحل في الشيخوخة ناشراً لحديثه، فحدَّث بأصبهان عن الكبار، وببغداد، ومصر، ومكة، والرَّملة.

وأدركه بالرَّملة أجله، فمات في سنة اثنتين وتسعين ومئتين.

٥ ــ وقد ذكره أبو الحسن الدارقطني، فقال: ثقة، يُخطىء ويتكل على حفظه.

وقال أبو أحمد الحاكم: يُخطىء في الإسناد والمتن.

وقال الحاكم أبو عبد الله: سألت الدارقطني عن أبي بكر البزار، فقال: يخطىء في الإسناد والمتن، حدث بالمسند بمصر حفظاً، ينظر في كتب الناس، ويحدث من حفظه، ولم يكن معه كتب، فأخطأ في أحاديث كثيرة[*].

(*) سير أعلام النبلاء (١٣:٥٥٤)، تاريخ بغداد: (٤:٣٣٤-٣٣٥)، المنتظم: (٦:٥٠)، تذكرة الحفاظ: (٢:٦٥٣-٦٥٤)، العبر: (٢:٩٢)، الوافي بالوفيات: (٧:٢٦٨)، لسان الميزان: (١:٢٣٧-٢٣٩)، النجوم الزاهرة: (٣:١٥٧-١٥٨)، طبقات الحفاظ: (٢٨٥)، شذرات الذهب: (٢:٢٠٩)، تاريخ أصبهان (١:١٠٤)، معجم المؤلفين (٢:٣٦)، تاريخ التراث العربي (١:٢٥٦).

٦ ـ وقد جرده الهيثمي فأورد زوائده في «كشف الأستار عن زوائِد البزار»، فبلغت أحاديثه الزوائد (٣٦٩٨) حديثاً.

مسند أبي يعلى الموصلي

١ ـ هو الإمام الحافظ، شيخ الإسلام، أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنّى ابن يحيى بن عيسى بن هلال التميميُّ الموصليّ، محدث الموصل، وصاحب المسند والمعجم.

٢ ـ ولد في ثالث شوّال سنة عشر ومئتين، فهو أكبر من النسائي بخمس سنين، وأعلى إسناداً منه.

٣ ـ لقي الكبار، وارتحل في حداثته إلى الأمصار باعتناء أبيه وخاله محمد ابن أحمد بن أبي المثنى، ثم بهمَّته العالية.

وقد بدأت رحلته وهو في الخامسة عشرة في عمره طلباً للعلم، فسمع في بغداد من أحمد بن حاتم الطويل، ويحيى بن معين، وعلي بن الجعد، وسمع أيضاً من زهير ابن حرب، وشيبان بن فروخ، وخليفة بن خياط، وغيرهم.

٤ ـ ويعتبر أبو يعلى محدثاً ثقة، شهد له العلماء الحفاظ، وأثنوا عليه.

قال ابن حبان: هو من المتقنين المواظبين على رعاية الدين وأسباب الطاعة.

وقال ابن عدي: ما سمعت «مسنداً» على الوجه إلاّ «مسند» أبي يعلى، لأنه كان يحدث لله عز وجل.

قال ابن المقرىء: سمعت أبا إسحاق بن حمزة يثني على «مسند» أبي يعلى ويقول: من كتبه قل ما يفوته من الحديث.

٥ ـ قال ابن المقرىء: سمعت أبا يعلى يقول: عامة سماعي بالبصرة مع أبي زرعة.

٦ ـ وقال الحافظ عبد الغني الأزدي: أبو يعلى أحد الثقات الأثبات، كان

على رأي أبي حنيفة
قال الذهبي: نعم، لأنه أخذ الفقه عن أصحاب أبي يوسف.

قال ابن مندة: أحمد بن علي بن المثنى بن عيسى بن هلال بن دينار التميمي، أبو يعلى، أحد الثقات، مات سنة سبع وثلاث مئة(٥).

وقال أبو أحمد بن عديٍّ في «كامله» في ذكر محمد الطفاوي: سمعت أبا يعلى يقول: عندي عن أبي خيثمة المسند والتفسير والموقوفات، حديثه كله.

وقد وصف أبو حاتم البستي أبا يعلى بالإتقان والدين، ثم قال: وبينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أنفس.

وقال أبو عبد الله الحاكم: كنت أرى أبا عليّ الحافظ معجباً بأبي يعلى الموصلي وحفظه وإتقانه، وحفظه لحديثه، حتى كان لا يخفى عليه منه إلا اليسير. ثم قال الحاكم: هو ثقة مأمون.

٧ ــ قال اسماعيل بن الفضل التميمي الحافظ: «قرأت المسانيد: كمسند العدني، ومسند أحمد بن منيع، وهي الأنهار، ومسند أبي يعلى كالبحر يكون مجتمع الأنهار».

عقب الذهبي في السير (١٤:١٨٠)، فقال: صدق، ولاسيا في مسنده الذي عند أهل أصفهان... فإنه كبير جداً».

٨ ــ وقد شحن ابن حبان صحيحه برواية أحاديث كثيرة، عن أبي يعلى تعادل خمس صحيحه.

٩ ــ ويعتبر مسنده من المسانيد المهمة التي يغلب عن معظم أحاديثها الصحة والتوثيق.

١٠ ــ وقد جرد الهيثمي زوائده عن الكتب الستة، في «المقصد العلي في زوائد أبي يعلى الموصلي»، ويربو على الألفي حديث.

* * *

(٥) تذكرة الحفاظ (٢:٧٠٧-٧٠٨)، العبر (٢:١٣٤)، دول الإسلام (١:١٨٦)، سير أعلام النبلاء (١٤:١٧٤)، الوافي بالوفيات (٧:٢٤١)، مرآة الجنان (٢:٢٤٩)، البداية والنهاية (١١:١٣٠)، النجوم الزاهرة (٣:١٩٧)، طبقات الحفاظ (٣٠٦)، مفتاح السعادة (٢:١٦)، الرسالة المستطرفة (٧١)، تاريخ التراث العربي (١:٢٧١).

عناية المسلمين بهذه الكتب الحديثية

وبعد، فهذه الكتب العشرة مصادر ابن كثير في مصنفه العظيم «جامع المسانيد والسنن»، الذي صنفه في القرن الثامن الهجري.

ولكن ما هي مناهج التطوير التي حدثت في التصنيف حتى أفضت إلى ابن كثير، فصنف هذا الجامع الهادي لأقوم سنن؟

ومن المعلوم أن هذه الكتب ليست كل مصنفات السنة، فهناك موطأ مالك، وهو أم الصحيحين، ومستدرك الحاكم، والسنن الكبير والصغير للبيهقي، وسنن الدارمي ليس دون السنن في الرتبة، وسنن الدارقطني، وغير ذلك.

وكانت الفترة بعد تصنيف السنن الذي هو عملية جمع للأحاديث، تطور هذا الجمع التدويني وتنوعه إلى موطآت، ومصنفات، ومسانيد، وسنن، وأجزاء، وجوامع، ومستخرجات، ظل السند هو محور الحديث فيها، بالإضافة إلى الاستدراك على الأئمة برواية ما فاتهم في كتبهم وكان على شرطهم.

ذلك بالإضافة إلى كتب التفسير أو التاريخ التي ما هي إلا مجموعات حديثية بالدرجة الأولى.

ومما لا ريب فيه أن عملية الفهارس قد واكبت عملية التصنيف، ثم بدأت شيئاً فشيئاً تتميز وتأخذ طابع المؤلفات المنفردة.

وكان الباعث على عمل فهارس للمصنفات الحديثية هو الإستفادة التامة منها، وحفظها.

وتعتبر المصنفات الحديثية أول من فكر العلماء والدارسون في عمل فهرس أطراف لها يساعدهم على حفظها.

الأطراف

قال ابن سيده: عَنّى بأطراف الحديث مختارها، وهو ما يتعاطاه المحبّون، ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيّمون من التعريض والتلويح، والإيماء دون التصريح، وذلك أحلى وأخف وأغزلُ وأنسبُ من أن يكون مشافهةً وكشفاً ومصارحةً وجهراً.

وطرائف الحديث: مختارة أيضاً كأطرافه.

وفي القرآن الكريم: ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ﴾ [هود: ١١٤] يعني الصلوات الخمس فأحد طرفي النهار: صلاة الصبح، والطرف الآخر فيه: صلاتا العشيّ.

وقوله تعالى: ﴿ ومن الليل فسبّح وأطراف النهار ﴾ [طه: ١٣٠] أي ساعاته، أو أوله وآخره.

وأطراف الأرض: نواحيها، قال تعالى ﴿ أولم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾. [الرعد: ٤١].

وقال الفرزدق:

واسأل بنا وبكم إذا وردتْ مِنىً   أطراف كُلُّ قبيلة من يُمْنع

يريد: أشراف كل قبيلة.

وأطلق لفظ (الطرف) على أول الحديث أو على جملة بارزة منه بحيث يُعرف بقية الحديث من النظر فيها.

١ ــ وكان هذا موجوداً في أواخر القرن الأول من الهجرة، قبل سنة ٩٦، جاء في «سنن الدارمي» (١:٩٩) في (باب من لم يرَ كتابة الحديث) قولُ الإمام الدارمي: «أخبرنا إسماعيلُ بن أبان، حدثنا ابن إدريس، عن ابن عون، قال: رأيت حمّاداً ــ وهو حمّاد بن أبي سليمان الكوفي التابعي المتوفى سنة ١٢٠ ــ

يكتُبُ عن إبراهيم ــ هو إبراهيم بن يزيد النخعيّ الكوفي التابعي المتوفى سنة ٩٦ ــ، فقال له إبراهيم: ألم أنهَك ــ يعني عن كتابة الحديث ــ؟! قال: إنما هي أطراف». انتهى.

٢ ــ وجاء في «كتاب العِلْم» للحافظ أبي خيثمة زهير بن حرب النسائي (ص: ١٤١، ١٤٦)، «حدثنا جرير، عن منصور، عن إبراهيم ــ النخعي ــ قال: لا بأس بكتابة الأطراف». انتهى.

٣ ــ وجاء في «تقدمة الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (ص: ٢٣٦)، في ترجمة الإمام (يحيى بن سعيد القطان) ما يلي: «حدثنا عبدُ الرحمن ــ بن أبي حاتم ــ، حدثنا صالح ــ بن أحمد بن حنبل ــ، حدثنا علي ــ بن المديني ــ، قال: سمعتُ يحيى ــ بنَ سعيد القطان ــ يقول: كان معي أطراف عَوْنٍ، عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم». انتهى.

والحسن البصريُّ توفي سنة ١١٠، وعونُ بن أبي جميلة العبدي صاحب الأطراف الذي كتب عنه: توفي سنة ١٤٦.

٤ ــ وجاء في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر العسقلاني (١:٣٢٤)، في ترجمة (إسماعيل بن عيَّاش الحمصي)، المولود سنة ١٠٢، والمتوفى سنة ١٨٢ ما يلي: «قال وكيع: أخذ إسماعيلُ مني أطرافاً لإسماعيل بن أبي خالد ــ الأحمسي الكوفي التابعي المتوفى سنة ١٤٦ ــ فرأيته يخلط في أخذه».

٥ ــ وجاء في كتاب «المعرفة والتاريخ» ليعقوب بن سفيان الفسوي (٢:٢٤١)، ما يلي: «قال عليٌّ ــ بن المديني ــ: سمعت عبد الرحمن ــ بن مهدي ــ قال: كان إسماعيل بن إبراهيم ــ بن عليّة المولود سنة ١١٠ والمتوفى سنة ١٩٣ ــ حفظ ثم نسي. قال عبد الرحمن: أعطاني ابن إسماعيل أطرافاً لابن أبي نجيح ــ هو عبد الله بن يسار المتوفى سنة ١٣١ ــ، فلقيته وهو جاءٍ من عند عبيد الله بن الحسن، فسألته فما حفظ منها إلا حديثاً أو حديثين، ثم حفظها بعد». انتهى(ه).

(ه) فهارس سنن النسائي صنع عبد الفتاح أبو غدة، ص (٢٤-٢٥).

٦ ــ هذه الأطراف وأضرابها كانت في أول الأمر، ثم لما توالى تصنيف الكتب تطررت معه وصارت علماً قائماً بنفسه.

٧ ــ صنف أبو مسعود: إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي المتوفى (٤٠١). «أطراف الصحيحين»: البخاري ومسلم، وكان حافظاً مجوّداً بارعاً، واحد من برّز في الأطراف(*). وأخذ عليه بعض الأوهام.

٨ ــ بعده بزمن يسير جداً أو في وقت معاصر له صنف الإمام الحافظ الناقد: أبو علي خلف بن محمد بن علي بن حمدون الواسطي كتاب «أطراف الصحيحين»، وهو أقل أوهاماً من «أطراف» أبي مسعود(**).

ذكره ابن عساكر في أول كتاب «الأشراف»، وقال: كان خلف أحسنها ترتيباً ورسماً، وأقلها خلطاً ووهماً.

ويقع في ثلاثة أجزاء، ونسخته الخطية بدار الكتب المصرية، رقم (٣٢) حديث، في [٢٠٩ لوحة + ١٨٤ لوحة + ١٧٢ لوحة] ويبدأ الجزء الأول بأول الكتاب، وينتهي بحديث: أنه توضأ فغسل وجهه، والثاني يبدأ بحديث: لو أن الناس، وينتهي بحديث «كنا قعوداً مع أبي هريرة فأذن المؤذن»، وينتهي الثالث بنهاية الكتاب.

٩ ــ ولأبي نعيم الأصبهاني المتوفي (٤٣٠) على ما ذكره الكتاني في الرسالة المستطرفة ص (١٦٧).

١٠ ــ صنَّف الحافظ أبو العباس: أحمد بن ثابت بن محمد الأصبهاني الطَّرقي (من قرى أصبهان)، المتوفى (٥٢١) أطراف «الكتب الخمسة»، وهي:

(*) تاريخ بغداد (١٧٢:٦)، المنتظم (٢٥٢:٧)، الكامل (٢٢٦:٩)، تذكرة الحفاظ (١٠٦٨:٣)، سير اعلام النبلاء (٢٢٧:١٧)، تهذيب تاريخ دمشق (٢٩٠:٢).

(**) أخبار أصبهان (٣١٠:١)، تاريخ بغداد (٣٣٤:٨)، المنتظم (٢٥٤:٧)، معجم البلدان (٣٥٠:٥)، تذكرة الحفاظ (١٠٦٧:٣)، سير اعلام النبلاء (٢٦٠:١٧)، البداية والنهاية (٣٤٤:١١)، الرسالة المستطرفة (١٦٧).

البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي (*).

١١ ــ محمد بن طاهر بن علي بن أحمد، المقدسي، الحافظ المتوفى (٥٠٧)، صنف «أطراف الكتب الستة» وهي الخمسة المتقدمة، ومعها كتاب «سنن ابن ماجة» (**).

١٢ ــ أبو القاسم بن عساكر، محدث الشام، وصاحب تاريخ دمشق المتوفى (٥٧١)، صنف كتاب: «الإشراف على معرفة الأطراف»، أي أطراف السنن الأربعة.

ويقع كتابه في ثلاثة مجلدات بدار الكتب المصرية رقم (٣٣) حديث.

ويقع المجلد الأول في (٣٣٩) قطعة، وينتهي بحديث أن ابن عمر قرن الحج والعمرة، بينما يقع المجلد الثاني في (٣٣٤) قطعة ويبدأ بحديث برد بن سنان أبي العلاء الدمشقي عن نافع، «من شرب في إناء ذهب»، وينتهي بحديث عطاء مولى أبي أحمد عن أبي هريرة: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم».

ويقع المجلد الثالث في (١٧١) قطعة، وبه ينتهي الكتاب، وتاريخ نسخه (٦٣٤) وينتهي بحديث «أبى سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل عليهن الحديث» وهو آخر الكتاب (***).

١٣ ــ اكتمل منهج أطراف الكتب الستة ولواحقها على يد الحافظ المتقن «جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي» (٦٥٤-٧٤٢)، الذي احتلّ مكانة عظيمة

(*) الأنساب (٨:٢٣٥)، اللباب (٢:٢٨٠)، تاريخ الإسلام (٤:٢٤٧)، سير اعلام النبلاء (١٩:٥٢٨)، ميزان الاعتدال (١:٨٦)، الوافي بالوفيات (٦:٢٨٢).

(**) المنتظم (٩:١٧٧)، وفيات الأعيان (٤:٢٨٧)، تاريخ الإسلام (٤:١٨١)، سير اعلام النبلاء (١٩:٣٦١)، ميزان الاعتدال (٣:٥٨٧)، الوافي (٣:١٦٦).

(***) المنتظم (١٠:٢٦١)، معجم الأدباء (١٣:٧٣)، وفيات الأعيان (٣:٣٠٩)، طبقات السبكي (٧:٢١٥)، سير اعلام النبلاء (٢٠:٥٥٤)، البداية (١٢:٢٩٤)، النجوم الزاهرة (٦:٧٧)، الدارس (١:١٠٠)، كنوز الأجداد (٣٠٦-٣١٣).

بين علماء القرن الثامن الهجري في الحديث وعلومه، ونهض بعبء هائل في ترتيب أطراف الكتب الستة: الجامع الصحيح للبخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجة، وبعض لواحقها وهي مقدمة صحيح مسلم، وكتاب المراسيل لأبي داود، وكتاب الشمائل للترمذي، وكتاب عمل يوم وليلة للنسائي.

وأكتفي هنا بالإشارة إليه في سرد كتب الأطراف وسأعود إليه في الفصل الأخير في الحديث عن جامع المسانيد والسنن.

النوبة تأتي إلى الحافظ ابن كثير:

١٤ ــ فلما جاءت النوبة إلى الحافظ المفسر المحدث المؤرخ ابن كثير (م: ٧٧٤) وكانت نسخته من تحفة الأشراف قد أضاف إليها الزيادات، وكان وثيق الصلة بالحافظ المزي، فهو زوج ابنته... نراه قد جمع دواوين السنة في هذا الكتاب العظيم (جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن) وسنفرد الكلام عليه عقب ترجمة سيرة ابن كثير.

١٥ ــ وكتاب «الإشراف على الأطراف» أيضاً، لسراج الدين عمر بن علي الأندلسي ثم المصري القاهري، المعروف بابن الملقِّن ــ شيخ الحافظ ابن حجر ــ المتوفى سنة ٨٠٤.

١٦ ــ وأطراف «الكتب العشرة» للحافظ ابن حجر، وهو المسمى: «إتحاف المهرة بأطراف العشرة»، في ثمان مجلدات، وهي: الموطأ، ومسند الشافعي، ومسند أحمد، ومسند الدارمي، وصحيح ابن خزيمة، ومنتقى ابن الجارود، وصحيح ابن حبّان ومستدرك الحاكم، ومستخرج أبي عوانة، وشرح معاني الآثار، وسنن الدارقطني. وإنما زاد العدد واحداً، لأن «صحيح ابن خزيمة» لم يوجد منه سوى قدر ربعه.

١٧ ــ وأطراف «مسند الإمام أحمد» للحافظ ابن حجر أيضاً، وهو المسمّى: «اطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي» في مجلدين.

١٨ ـ وأطراف «الأحاديث المختارة للضياء المقدسي» له أيضاً في مجلد ضخم.

١٩ ـ وأطراف «الفردوس» له أيضاً.

٢٠ ـ وأطراف «الغرائب والأفراد للدارقطني» لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي في مجلد.

٢١ ـ وأطراف «صحيح ابن حبان» للحافظ العراقي أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين، المتوفى سنة ٨٠٦.

٢٢ ـ وأطراف «المسانيد العشرة» لأبي العباس أحمد بن محمد الكناني البوصيري، المتوفى بالقاهرة سنة ٨٤٠. ويريد بالمسانيد: مسند أبي داود الطيالسي، ومسند أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي، ومسند مسدد بن مسرهد، ومسند محمد بن يحيى العدني، ومسند إسحاق بن راهويه، ومسند أبي بكر بن أبي شيبة، ومسند أحمد بن منيع، ومسند عبد بن حميد، ومسند الحارث بن أبي أسامة، ومسند أبي يعلى الموصلي». انتهى ما نقلته من «الرسالة المستطرفة» للكتاني باختصار وتصرف وزيادة يسيرة.

٢٣ ـ وكتاب «ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الحديث» للعلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المتوفى سنة ١١٤١، في أربعة مجلدات.

قال رحمه الله تعالى في مقدمته: «لما كانت كتب الحديث الشريف النبوي، جامعة لأنواع الروايات، وحاوية للأسانيد المختلفة، وكانت «الكتب الستة» مشهورة عند علماء الإسلام، اعتنت بروايتها ودرايتها الأماجد الأعلام، وهي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي الصغرى، وقد اختلف في السادس، فعند المشارقة هو «سنن ابن ماجه» وعند المغاربة كتاب «الموطأ» للإمام مالك بن أنس.

وكانت الحاجة داعية لعمل أطراف لهذه الكتب السبعة المذكورة، على طريقة الفهرست، لمعرفة موضع كل حديث منها، ومكان كل رواية مأثورة: شرعت في

كتابي هذا على الوصف المشروح». ثم ذكر من سبقه من العلماء بالتأليف في هذا الموضوع.

ثم قال في تبيين خطته وطريقته في الكتاب: «وقد سلكت فيه مسلك من تقدَّمني من الترتيب، وبنيته على مثال الأبنية مع التبويب ولكني اقتصرت على بيان الرواية المصرَّح بها دون المرموزة، ولم أذكر من رجال الإسناد غير مشايخ أصحاب الكتب السبعة، واقتصرت على ذكر الصحابة رواة الحديث، وتركت ذكر الوسائط التي بين الصحابي وبين شيخ صاحب أحد الكتب السبعة.

وقد اعتبرت المعنى أو بعضه دون اللفظ في جميع الروايات، بحيث تذكر الرواية من الحديث، ويشار برموز الحروف إلى ما يوافقها في المعنى دون الكلمات، فعلى الطالب أن يعتبر في مطلوبه المعاني، وهذا أمر واضح لمن يتداول كتب الأطراف.

وإن روي الحديث الواحد عن جملة من الصحابة، ذكرت أسماءهم في مسند واحد منهم، اكتفاء بحصول المقصود. وإذا أردت الاستخراج منه فتأمَّل في معنى الحديث الذي تريده في أي شيء هو؟ ولا تعتبر خصوص ألفاظه، ثم تأمَّل (الصحابيَّ) الذي جاء عنه رواية ذلك الحديث، فقد يكون في السند عن عمر أو أنس مثلاً، والرواية إنما هي عن صحابي آخر مذكور في ذلك الحديث، فصحِّح (الصحابيَّ) المرويَّ عنه، ثم اكشف عنه في محل اسمه تجده إن شاء الله تعالى.

ورمزت للكتب السبعة بالحروف: (خ) لصحيح البخاري، (م) لصحيح مسلم، (د) لسنن أبي داود، (ت) لسنن الترمذي، (س) لسنن النسائي، (ه) لسنن ابن ماجه، (ط) لموطأ الإمام مالك.

ورتَّبتهُ على سبعة أبواب، كل باب منها مرتَّب ما فيه على ترتيب حروف المعجم، تسهيلاً للاستخراج منه.

الباب الأول في مسانيد الرجال من الصحابة.

الباب الثاني في مسانيد من اشتهر منهم بالكُنية.

الباب الثالث في مسانيد المبهمين من الرجال ــ يعني مثل حديث أسعد بن

سهل بن حنيف الأنصاري، عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار. ومثل حديث إسماعيل بن إبراهيم، عن رجل من بني سليم، ومثل حديث الأسود بن هلال، عن رجل من بني ثعلبة بن يربوع، فلفظ (بعض أصحاب النبي) ولفظ (عن رجل) مبهم، لا يدخل الأسماء الصريحة، فأدخلوه في عنوان مستقل، بحيث لا يفوت شيء على الباحث يريده.

الباب الرابع في مسانيد النساء الصحابيات.

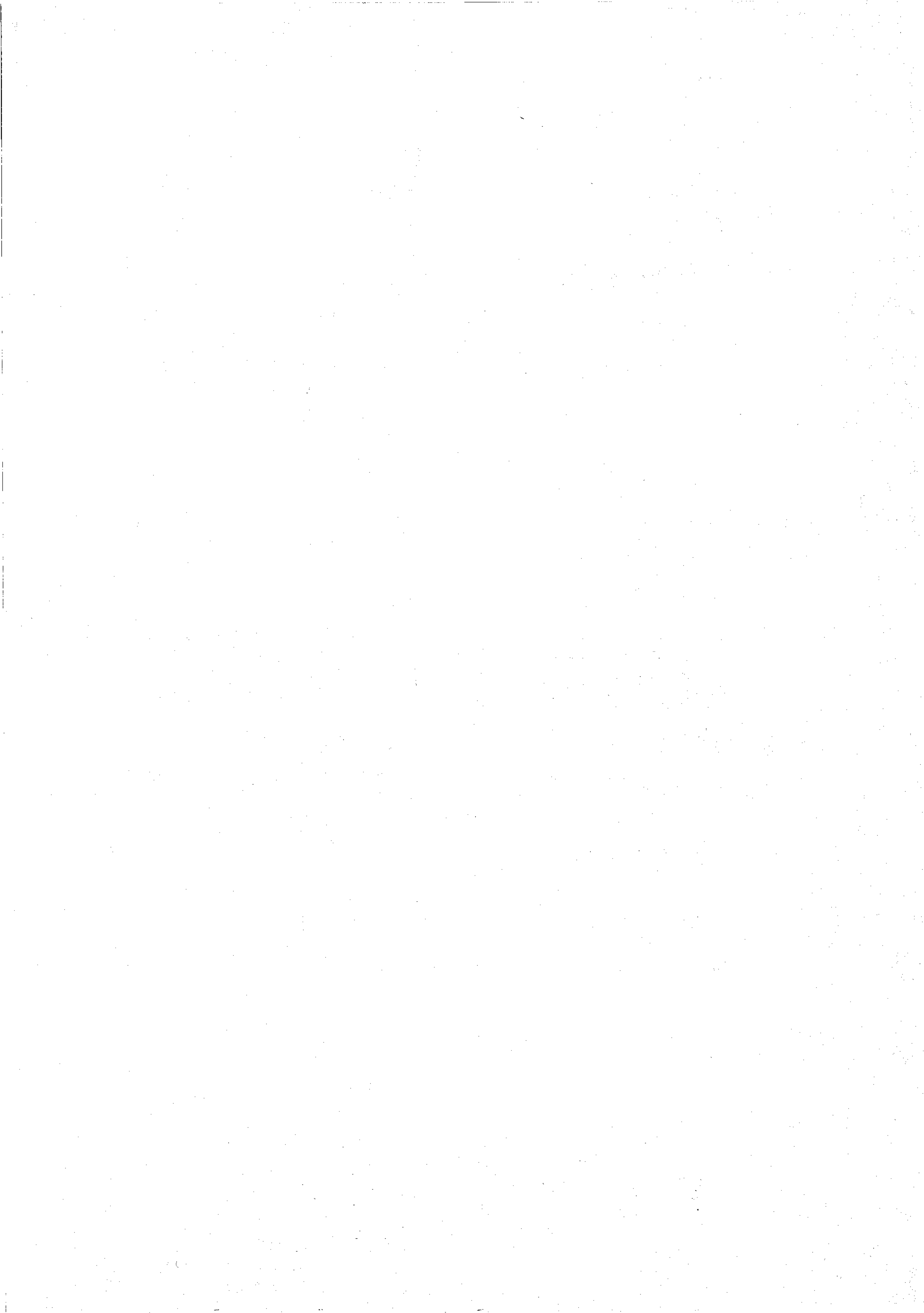
الباب الخامس في مسانيد من اشتهر منهن بالكنية.

الباب السادس في مسانيد المبهمات من النساء الصحابيات.

الباب السابع في ذكر المراسيل من الأحاديث. وفي آخره ثلاثة فصول: في الكنى، وفي المبهمين، وفي مراسيل النساء، وسمَّيت كتابي هذا: «ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث». انتهى باختصار وتصرف يسير.

ثم قال في آخره مؤرِّخاً بدء تأليفه له وانتهاءه منه بقوله رحمه الله تعالى: «قد تمَّ على وجه الاختصار، وكان الإبتداء في يوم السبت ٢٠ من شهر ربيع الآخر سنة ١١٠٢، وحصل التمام والفراغ في يوم الثلاثاء ٢٥ من رجب المبارك من السنة المذكورة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم».

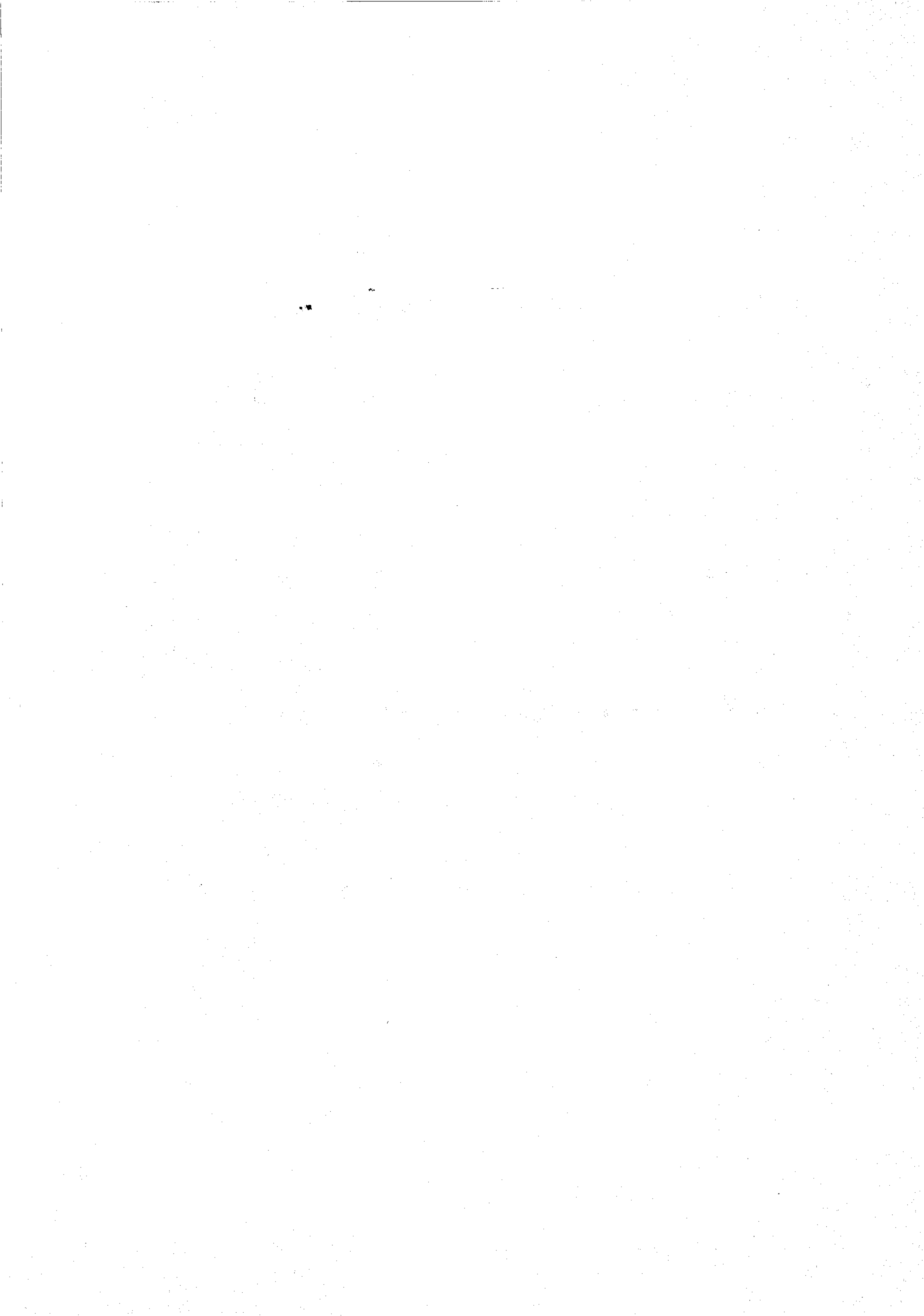
* * *



ترجمة مصنف جامع المسانيد
الحافظ ابن كثير



* علم من أعلام القرن الثامن.
* اسمه ونسبه ـــ اشتغاله بالعلم ـــ وإقامته بدمشق.
* شيوخه.
* شهرته بالمشرق في حياته، ودرس التفسير بالجامع الأموي تدريسه البخاري في ستة مدارس يومياً.
* صلته بنائب السلطنة بدمشق.
* شهادته في حق ابن السبكي.
* شهادته في حق البترك بشارة ـــ إنكاره على الأمراء ما فُعل بالنصارى.
* اجتماعه بالخليفة المعتضد.
* موقفه من الزنادقة.
* رأيه في علي ومعاوية وموقفه من قصة مقتل الحسين، ورأيه في المختار.
* تحقيقه مسألة تشيع الطبري.
* رأيه في الحلاج ـــ والقرامطة.
* نقده للخطيب البغدادي في التنجيم، ورأيه فيه.
* إنكاره البدع ـــ ورؤياه في ابن حزم ـــ نقده لأمية ابن أبي الصلت.
* تحقيقه بعض المسائل.
* مصنفاته.



ترجمة

الحافظ ابن كثير

علم من أعلام القرن الثامن:

الإمام ابن كثير علم من أعلام القرن الثامن الهجري، استطاع أن يخلد اسمه ـــ بما أسهم ـــ بين فطاحل الأئمة العلماء، يفخر به أصحاب العقيدة، أنْ نبغ فيهم مفسر حافظ محدث مؤرخ، تسامى إلى قوةٍ يناضل بها عن الإسلام، وحَملَ على عاتِقه عبئاً ضخماً ينافحُ عن تراث المسلمين؛ فمن طوَّف في آفاق ابن كثير، ذاقَ حلاوة الإيمان، وعمق العقيدة؛ فقد أتحف الفكر الاسلامي، بتفسيره العظيم، وبهذا المصنف الجامع في الأحاديث، الهادي لأقوم سَنن، وبتاريخه الموسوعي النادر.

اسمه ونسبه:

هو الإمام الحافظ، الحجة، المحدث، المؤرخ، الثقة، ذو الفضائل، عماد الدين، أبو الفداء: اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، القرشي، الدمشقي، الشافعي.

ولد ـــ رحمه الله ـــ بقرية «مِجْدَل»، من أعمال «بُصْرى» ـــ من أعمال دمشق، وكان أبوه من أهل «بصرىٰ» وأمه من قرية «مِجْدَل» وقومه كانوا «ينتسبون إلى الشرف، وبأيديهم نِسَب. وقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه ذلك وابتهج به، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك «القرشي»» ـــ كما قال هو في ترجمة أبيه، في تاريخه «البداية والنهاية».

وتاريخ مولده سنة ٧٠٠، كما ذكر أكثر من ترجم له، «أو بعدها بقليل» كما

قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة. وهو تاريخ تقريبي. أرجح أنه مستنبط من كلامه في ترجمة أبيه، حيث ذكر أن أباه «توفي سنة ٧٠٣... وكنتُ إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها، لا أدركه إلا كالحلم».

وكان أبوه «الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير» من العلماء الفقهاء الخطباء. ولد ــ كما قال ابنه ــ في حدود سنة ٦٤٠. وترجم له ابنه الحافظ في تاريخه الكبير «البداية والنهاية»، ج ١٤ ص ٣١-٣٣. ومما قال في ترجمته: «اشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى. فقرأ «البداية» في مذهب أبي حنيفة. وحفظ «جُمَل الزجاجي». وعُني بالنحو والعربية واللغة. وحفظ أشعار العرب، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق الرائق في المدح والمراثي وقليل من الهجاء. وقرر بمدارس بصرى بمَبْرَك الناقة شمالي البلدة، حيث يُزار، وهو المَبْرَك المشهور عند الناس! والله أعلم بصحة ذلك. ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى، وتمذهب للشافعي. وأخذ عن النواوي والشيخ تقي الدين الفزاري ــ وكان يكرمه ويحترمه، فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزملكاني. فأقام بها نحواً من ١٢ سنة. ثم تحول إلى خطابة «مجدل»: القرية التي منها الوالدة. فأقام بها مدة طويلة، في خير وكفاية وتلاوة كثيرة. وكان يخطب جيداً، وله مقول عند الناس، ولكلامه وقع، لديانته وفصاحته وحلاوته. وكان يؤثر الإقامة في البلاد، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعياله. وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها. أكبرهم: إسماعيل، ثم يونس، وإدريس. ثم من الوالدة: عبد الوهاب، وعبد العزيز، وأخوات عدة. ثم أنا أصغرهم وسُمِّيت باسم الأخ «إسماعيل» ــ لأنه كان قد قدم دمشق، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده، وقرأ مقدمة في النحو، وحفظ التنبيه، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزاري، وحصل المنتخب في أصول الفقه. قاله لي شيخنا ابن الزملكاني. ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية، فمكث أياماً ومات. فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً، ورثاه بأبيات كثيرة. فلما ولدتُ أنا له بعد ذلك سماني باسمه. فأكبر أولاده: إسماعيل، وأصغرهم وآخرهم: إسماعيل. فرحم الله من سلف، وختم بخير لمن بقي. توفي والدي في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣. في قرية مجدل. ودفن

بمقبرتها الشمالية عند الزيتون. وكنت إذ ذاك صغيراً، ابن ثلاث سنين أو نحوها. لا أدركه إلا كالحلم. ثم تحولنا من بعده في سنة ٧٠٧ إلى دمشق، صحبة «كمال الدين عبد الوهاب» وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوقاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين [يعني سنة ٧٥٠]. فاشتغلت على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر».

ابن كثير يصدر كتابه هذا ــ جامع المسانيد ــ بخطبة عن والده:

لم يترك والد ابن كثير من المؤلفات شيئاً، بل له بعض الخطب التي كان يلقيها للوعظ والإرشاد، وقد صدّر الحافظ ابن كثير مصنفه هذا بهذه الخطبة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. قال والدي ــ رحمه الله ــ ومن خطه نقلت:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب والحكمة، وأرسله للعالمين رحمة، فمن قبلها فيا لها من نعمة، ومن ردها وبدلها صارت الرحمة نقمة، أحمده على أن جعلنا من خدام السنة القائدة لخادمها إلى سبيل الجنة، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه باقياً على الدوام، ما تعاقبت الليالي والجمع والشهور والأعوام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا ولد له، ولا صاحبة من الأنام، (صلاة مبوأة) قائلها مخلصاً إلى دار السلام، ومزحزحة معتقدها عن النار ذات الآلام، ومبيضة وجه قائلها يوم تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين اللئام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله سيد ولد آدم في الدارين، ورسول الله إلى الثقلين، المبعوث من الحرمين إلى من بين الخافقين، خاتم النبيين، وإمام المتقين، ومختار رب العالمين، وسيد المرسلين الذي لا نبي بعده ولا رسول، الدائم الشريعة فلا تحول ولا تزول، فصلوات الله تعالى وسلامه الأَتَمَّان الأكملان الأدومان المستمران إلى يوم نصب الميزان وبروز النيران، وتزخرف الجنان، على سيدنا محمد النبي الأمي العربي القرشي الهاشمي، المكي الأبطحي، ثم المدني، نبي التوبة، ونبي الرحمة، ونبي الملحمة، والعاقب والماحي، والخاتم لجميع الأنبياء والمرسلين الذي جمع فيه محاسن من كان قبله، واختص بفضائل لم تكن في غيره، فلهذا نسخ الله بما شرع له جميع

الشرائع المتقدمة، ولم يقبل بعد بعثته من أحد من سائر الأديان عملاً إلا على ما جاء به محمد من الدين القويم والشرع العظيم».

ولوالد ابن كثير بعض الشعر كان ينظمه أحياناً، وقد أورد ابن كثير بعض نظمه في البداية والنهاية (١٤: ٣٢-٣٣)، ولاحظ أن والده أسرف فيه بعض الإسراف، وتجاوز عن القصد، ولذا فهو يعتذر عنه، ويقول: والله يغفر له ما صنع من الشعراء، وهذه تدخل تحت قوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦]قال ابن كثير:

وقد قال شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في معجمه فيما أخبرني عنه شمس الدين محمد بن سعد المقدسي مخرجه له، ومن خط المحدث شمس الدين بن سعد هذا نقلت، وكذلك وقفت على خط الحافظ البرزالي مثله في السفينة الثانية من السفن الكبار، قال عمر بن كثير القرشي خطيب القرية وهي قرية من أعمال بصرى رجل فاضل له نظم جيد ويحفظ كثيراً من اللغز وله همة وقوة. كتبت عنه من شعره بحضور شيخنا تاج الدين الفزاري. وتوفي في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعمائة بمجدل القرية من عمل بصرى، أنشدنا الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير القرشي خطيب القرية بها لنفسه في منتصف شعبان من سنة سبع وثمانين وستمائة:

نأى النوم عن جفني فبت مسهداً ... أخا كلف حلف الصبابة موجدا
سمير الثريا والنجوم مدلها ... فمن ولهي خلت الكواكب ركدا
طريحاً على فرش الصبابة والأسى ... فما ضركم لو كنتم لي عودا
تقلبني أيدي الغرام بلوعة ... أرى النار من تلقائها لي أبردا
ومزق صبري بعد جيران حاجز ... سعير غرام بات في القلب موقدا
فأمطرته دمعي لعل زفيره ... يقل فزادته الدموع توقدا
فبت بليل نابغي ولا أرى ... على النأي من بعد الأحبة صعدا!
فيالك من ليلٍ تباعد فجره ... عليَّ إلى أن خلته قد تخلدا

غــرامــاً ووجــداً لا يحــد أقــلــه ... بــأهــيــف مــسعــول المراشف أغـيـدا
لــه طــلــعــة كــالــبــدر زان جمالها ... بــطــرة شــعــر حــالــك اللون أسـودا
يهـز مـن الـقـد الـرشيق مثقفاً ... ويشهـر من جفـنيه سيفاً مهندا
وفي ورد خــديــه وآس عــذاره ... وضــوء ثــنــايــاه فــنــيــت تجـلـدا
غـدا كـل حـسـن دونه متقاصرا ... وأضــحــى لـه رب الجمـال مـوحـدا
إذا ما رنـا واهتز عـنـد لـقـائـه ... سـبـاك، فـلم تملك لسـاناً ولا يـدا
وتـسـجـد إجـلالاً لـه وكـرامـةً ... وتـقـسم قـد أمسيت في الحسن أوحدا
ورب أخـي كـفـرٍ تـأمـل حسـنه ... فـأسـلـم مـن إجـلالـه وتـشـهـدا
وأنـكـر عيسى والصليب ومريماً ... وأصـبـح يهـوى بعـد بغـضٍ محمدا
أيا كعبة الحسن التي طاف حولها ... فؤادي، أما للصد عندك من فدا؟
قنعت بطيفٍ من خيالك طارقٍ ... وقـد كـنـت لا أرضى بـوصـلك سرمدا
فـقـد شـفـني شـوق تجـاوز حـده ... وحـسـبـك مـن شوقٍ تجاوز واعـتـدا
سـألـتـك إلا مـا مـررت بحـيـنـا ... بـفـضـلـك يـا رب المـلاحـة والـنـدا
لـعـل جفـوني أن تـغـيض دموعـهـا ... ويـسـكـن قـلـب مـذ هـجـرت فما هدا
غـلـطـت بهـجـراني ولـو كـنـت صـابياً ... لمـا صـدك الـواشـون عني ولا الـعـدا

وعدتها ثلاثة وعشرون بيتاً والله يغفر له ما صنع من الشعر.

* * *

اشتغاله بالعلم:

بدأ ابن كثير بالاشتغال بالعلم ــ على يد أخيه عبد الوهاب ــ كما ذكر آنفاً ــ ثم اجتهد في تحصيل العلوم على العلماء الكبار في عصره، وحفظ القرآن الكريم، وختم حفظه سنة (٧١١) كما صرّح بذلك في تاريخه (٣١٢:١٤)، وقرأ بالقراءات، حتى عدّه الداودي، وترجم له في طبقاتهم التي ألّفها.

كان القرآن الكريم أول ما يبدأ به من العلم في عصورنا الإسلامية السابقة، فينمو الطفل ويترعرع على آيات الله، ويرددها آناء الليل وأطراف النهار، وتكون أساساً يهتدي بهديها، ويقتدي بما ترشده إليه، فتنقدح في نفسه آفاق المعرفة، وينبثق في روحه الإلهام الرباني.

وانتقل ابن كثير إلى الحديث النبوي الشريف، فسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ في عصره، وعني بالسماع والإكثار منه، وصارت له عناية فائقة بالرجال والمتون والفقه، وأمعن النظر في الرجال والعلل، ولازم المزي الحافظ العلامة ــ وقرأ عليه تهذيب الكمال، وأفتى، ودرَّس، وناظر، حتى كان أقرانه وشيوخه يعترفون له بالحفظ المتقن، والتفسير الرائق، والتفنن في الفقه والأصول، والتفسير والحديث.

كانت إقامته بدمشق في المدرسة النجيبية:

عندما قدم ابن كثير دمشق، مع الأسرة، أقام بالمدرسة النجيبية التي وقفها الأمير جمال الدين آقوش النجيبي؛ فقد قال في ترجمة الشيخ محي الدين عبد الله بن صفي الدين إبراهيم بن مرزوق من تاريخه (١٣: ٢٤٤):

«داره هذه التي جعلت مدرسة للشافعية، وقفها الأمير جمال الدين آقوش النجيبي التي يقال لها: النجيبية، تقبل الله منه ــ وبها إقامتنا جعلها الله داراً تعقبها دار القرار في الفوز العظيم.

«شيوخه»:

١ ــ شيخه في القرآن: ابن غيلان:

هو أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن غيلان البعلبكي الحنبلي إمام مسجد السلالين، قال فيه ابن كثير في تاريخه (١٤: ١٥٠).

«سمع الحديث وأسمعه، وكان يقرىء القرآن طرفي النهار، وعليه ختمت القرآن في سنة إحدى عشر وسبع مئة، وكان من الصالحين الكبار، والعباد الأخيار».

وقد توفي سنة (٧٣٠) هـ.

٢ ــ اللباد، شيخه في القراءات:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤: ١١٤)، في وفيات سنة (٧٢٤)، فقال:

«هو الشيخ: محمد بن جعفر بن فرعوش، ويقال له اللباد، ويعرف بالمؤله، كان يقرىء الناس بالجامع نحواً مّن أربعين سنة، وقد قرأت عليه شيئاً من القراءات، وكان يعلم الصغار عقد الراء والحروف المتقنة كالراء ونحوها، وكان متقللاً من الدنيا لا يقتني شيئاً، وليس له بيت ولا خزانة، إنما كان يأكل في السوق وينام في الجامع، توفي في مستهل صفر، وقد جاوز السبعين، ودفن في باب الفراديس ــ رحمه الله ــ.

٣ ــ الزربندي شيخه في النحو:

هو ضياء الدين عبد الله الزربندي النحوي، ذكره ابن كثير في وفيات سنة (٧٢٣) من تاريخه (١٤:١٠٧)، فقال:

«كان قد اضطرب عقله فسافر من دمشق إلى القاهرة فاشار شيخ الشيوخ القونوي فأودع بالمارستان فلم يوافق ثم دخل إلى القلعة وبيده سيف مسلول فقتل نصرانياً فحمل إلى السلطان وظنوه جاسوساً فأمر بشنقه فشنق. وكنت ممن اشتغل عليه في النحو».

٤ ــ الشيخ الحاضري:

أشار ابن كثير في تاريخه (١٤:٣٩) في أثناء ترجمة الصدر علاء الدين الحراني الحاسب أنه كان فاضلاً بارعاً في صناعة الحساب، انتفع به جماعة، ....، وقد أخذتُ الحساب عن الحاضري، عن علاء الدين الطيوري، عنه.

٥ ــ الصاحب عز الدين أبو يعلى حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد التميمي الدمشقي ابن القلانسي:

ذكره ابن كثير في وفيات سنة (٧٢٩) هـ، وذكر أنه سمع عليه، قال في تاريخه (١٤:١٤٧):

حمزة بن مؤيد الدين أبي المعالي أسعد بن عز الدين أبي غالب المظفر ابن الوزير مؤيد الدين أبي المعالي بن أسعد بن العميد أبي يعلى بن حمزة بن أسد بن علي بن

محمد التميمي الدمشقي ابن القلانسي، أحد رؤساء دمشق الكبار، ولد سنة تسع وأربعين وستمائة، وسمع الحديث من جماعة، ورواه وسمعنا عليه، وله رياسة باذخة وأصالة كثيرة وأملاك هائلة كافية لما يحتاج إليه من أمور الدنيا ولم يزل معه صناعة للوظائف إلى أن ألزم بوكالة بيت السلطان ثم بالوزارة في سنة عشرة كما تقدم ثم عزل، وقد صودر في بعض الأحيان، وكانت له مكارم على الخواص والكبار، وله إحسان إلى الفقراء والمحتاجين. ولم يزل معظماً وجهاً عند الدولة من النواب والملوك والامراء وغيرهم إلى أن توفي ببستانه ليلة السبت سادس الحجة، وصلى عليه من الغد ودفن بتربته بسفح قاسيون، وله في الصالحية رباط حسن بمأذنة، وفيه دار حديث وبر وصدقة رحمه الله.

٦ ـ جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن القلانسي:

هو أحمد بن محمد بن محمد بن نصر الله بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن أسد بن علي بن محمد، الصدر الكبير، الرئيس، الإمام العالم، جمال الدين، أبو العباس؛ التميمي، الدمشقي، ابن القلانسي.

مولده سنة تسع ـ بتقديم التاء ـ وستين وستمائة، وحفظ التنبيه، ثم المحرر، واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، وقرأ النحو على شرف الدين الفزاري، والأدب على الرشيد الفارقي. وولي قضاء العسكر، ووكالة بيت المال، وتدريس الأمينية، والظاهرية، والعصرونية.

قال ابن كثير: تقدم بطلب العلم والرئاسة، وباشر جهات كبار، ودرس في أماكن، وتفرد في وقته بالرئاسة في البيت والمناصب الدينية والدنيوية، وكان فيه تواضع، وحسن سمت، وتودد، وإحسان، وبر بأهل العلم والصلحاء. وهو ممن أذن لي في الفتيا. وكتب إنشاء ذلك وأنا حاضر على البديهة، فأجاد وأفاد وأحسن التعبير، وعظم في عيني، وسمع الحديث من جماعة. وخرج له فخر الدين البعلبكي مشيخة سمعناها عليه. توفي في ذي القعدة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، ودفن بتربتهم بالسفح.

وقد ترجمه ابن كثير في تاريخه (١٤:١٦٥)، وله ذكر في «مرآة الجنان»

(٢٨٣:٤)، و«الدرر الكامنة» (١:٣٠٠)، و«شذرات الذهب» (٦:٩٥)، والدارس (١:١٩٧).

٧ ـ الشيخ عمر بن أبي بكر بن اليثمي البسطي:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤:١٩٨-١٩٩)، في وفيات سنة (٧٤٢) هـ، فقال:

وتوفي الشيخ عمر بن أبي بكر بن اليثمي البسطي يوم الأربعاء التاسع والعشرين، وكان رجلاً صالحاً كثير التلاوة والصلاة والصدقة، وحضور مجالس الذكر والحديث، له همة وصولة على الفقراء المتشبهين بالصالحين وليسوا منهم، سمع الحديث من الشيخ فخر الدين بن البخاري وغيره وقرأت عليه عن ابن البخاري مختصر المشيخة، ولازم مجالس الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله، وانتفع به، ودفن بمقابر باب الصغير.

٨ ـ نجم الدين العسقلاني:

ذكره ابن كثير أثناء ترجمة الوزير العالم محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي (١٤:١٤٩) في وفيات سنة (٧٣٠) هـ، فقال عنه: «قدم علينا إلى دمشق في جمادى الأولى سنة أربع وعشرين، وهو بعزم الحج، سمعت بقراءته صحيح مسلم في تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلاني قراءة صحيحة».

٩ ـ شمس الدين المقدسي:

هو عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي، النابلسي، الفقيه الزاهد القدوة، شمس الدين، أبو محمد بن العفيف، ابن الشيخ تقي الدين. وقد سبق ذكر جده شيخ نابلس.

ولد سنة تسع وأربعين وستمائة.

وحضر على خطيب مردا. وسمع من عم أبيه جمال الدين عبد الرحمن بن عبد

المنعم. وأجاز له سبط السلفي. وتفقه وأفتى، وأم بمسجد الحنابلة بنابلس نحواً من سبعين سنة.

وكان كثير العبادة، حسن الشكل والصوت، عليه البهاء والوقار. حدث. وسمع منه طائفة.

توفي يوم الخميس ثاني عشرين ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وسبعمائة بنابلس، ودفن بها، وتأسف الناس عليه. رحمه الله تعالى.

وقد ترجمه ابن رجب في ذيل الطبقات (٢: ٤٢٨)، وذكره ابن كثير في تاريخه (١٤: ١٧٩)، وقال:

«قرأتُ عليه عام ثلاث وثلاثين وسبع مئة ــ مرجعنا من القدس ــ كثيراً من الأجزاء والفوائد، وهو والد صاحبنا الشيخ جمال الدين يوسف أحد مفتية الحنابلة وغيرهم، والمشهورين بالخير والصلاح».

١٠ ــ شمس الدين محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بركات:

«من ذرية عبادة بن الصامت، ولد سنة (٦٦٩)، وتوفي سنة (٧٥٦)، وخرج له البرزالي مشيخة، وذكر له أكثر من مئة وخمسين شيخاً، وسمع منه المزي، والذهبي، والسبكي، وابن جماعة، وابن رافع، وابن كثير، وغيرهم، وكان رجلاً محباً للحديث وأهله، وحدث مع أبيه وعمره عشرون سنة» ذكره في شذرات الذهب (٦: ١٨١).

١١ ــ أبو الربيع سليمان بن الخطيب الشافعي:

ذكره ابن كثير في تاريخه، وقال: «ولي قضاء الشام مدة مع مشيخة الشيوخ نحواً من سنة، ثم عزل وبقي على مشيخة الشيوخ نحواً من سنة مع تدريس الأتابكية، ثم تحول إلى مصر، وتولى بها التدريس، وقضاء العسكر.

وقد خرج له البرزالي مشيخةً سمعناها عليه وهو بدمشق عن اثنين وعشرين شيخاً، توفي وقد قارب السبعين.

١٢ ــ نجم الدين موسى بن علي بن محمد الجيلي الدمشقي:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤:٧٩)، أثناء وفيات سنة (٧١٦)، وقال:

الكاتب الفاضل المعروف بابن البصيص، شيخ صناعة الكتابة في زمانه لا سيما في المزوج والمثلث، وقد أقام يكتب الناس خمسين سنة، وأنا ممن كتب عليه أثابه الله. وكان شيخاً حسناً بهي المنظر يشعر جيداً، توفي يوم الثلاثاء عاشر ذي القعدة ودفن بمقابر الباب الصغير وله خمس وستون سنة.

١٣ ــ ركن الدين البجلي = زكريا بن يوسف، بن سليمان بن حماد البجلي الشافعي:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤:١٠٣)، أثناء وفيات سنة (٧٢٢)، وقال:

«شيخنا العلامة الزاهد ركن الدين ــ بقية السلف ــ نائب الخطابة، ومدرس الطيبية والأسدية، وله حلقة للاشتغال بالجامع، يحضر بها عنده الطلبة، كان يشتغل في الفرائض وغيرها، مواظباً على ذلك، توفي يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى عن سبعين سنة، ودفن قريباً من شيخه تاج الدين الفزاري ــ رحمهما الله.

١٤ ــ عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى، الحافظ الكبير، شرف الدين أبو محمد، وأبو أحمد الدمياطي:

ولد بدمياط في أواخر سنة ثلاث عشرة وستمائة، وتفقه بها وقرأ بالسبع على الكمال الضرير، وسمع الكثير، ورحل، ولازم الحافظ عبد العظيم المنذري سنين، وتخرج به، ودرس لطائفة المحدثين بالمنصورية وهو أول من درس بها لهم وبالظاهرية، ورحل إليه الطلاب وحدث قديماً، وسمع منه الشيخ أبو الفتح محمد ابن محمد الأبيوردي، وكتب عنه في معجم شيوخه، ومات قبله بتسعة وثلاثين سنة. روى عنه من تلاميذه الحفاظ: المزي، والبرزالي، والذهبي، وابن سيد الناس، والسبكي وغيرهم. قال المزي: ما رأيت أحفظ منه. وقال البرزالي: وكان آخر من بقي من الحفاظ وأهل الحديث أصحاب الرواية العالية، والدراية

الوافرة. وقال الذهبي في معجمه: العلامة، الحافظ، الحجة، أحد الأئمة الأعلام، وبقية نقاد الحديث، اشتغل بدمياط، وأتقن الفقه، ثم طلب الحديث سنة ست وثلاثين، ورحل، وسمع الكثير، ومعجمه نحو ألف ومائتين وخمسين شيخاً. وله تصانيف في الحديث، والعوالي، والفقه، واللغة وغير ذلك، ومحاسنه جمة — انتهى. وقد أثنى عليه غير واحد. وله مصنفات نفيسة، منها السيرة النبوية في مجلد، وكتاب في الصلاة الوسيطى، وكتاب الخيل، وكتاب التسلي والاغتباط بثواب من تقدم من الإفراط وغير ذلك. توفي فجأة في ذي القعدة سنة خمس وسبعمائة بالقاهرة، ودفن بمقابر باب النصر.

وقد ترجمه السبكي في طبقاته (٦:١٣٣)، وله ترجمة في فوات الوفيات (٢:١٧)، ومرآة الجنان (٤:٢٤١)، والبدر الطالع (١:٤١٣)، والنجوم الزاهرة (٨:٢١٨)، وشذرات الذهب (٦:١٢)، وغيرها.

وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤:٤٠)، فقال:

وهو الشيخ الامام العالم الحافظ شيخ المحدثين شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن ابن خلف بن أبي الحسن بن شرف بن الخضر بن موسى الدمياطي، حامل لواء هذا الفن — أعني صناعة الحديث وعلم اللغة — في زمانه مع كبر السن والقدر، وعلو الاسناد وكثرة الرواية، وجودة الدراية، وحسن التآليف وانتشار التصانيف، وتردد الطلبة إليه من سائر الآفاق، ومولده في آخر سنة ثلاث عشرة وستمائة، وقد كان أول سماعه في سنة ثنتين وثلاثين بالاسكندرية، سمع الكثير على المشايخ ورحل وطاف وحل وجمع فأوعى، ولكن ما منع ولا بخل، بل بذل وصنف ونشر العلم، وولى المناصب بالديار المصرية، وانتفع الناس به كثيراً، وجمع معجماً لمشايخه الذين لقيهم بالشام والحجاز والجزيرة والعراق وديار مصر يزيدون على ألف وثلثمائة شيخ، وهو مجلدان، وله الأربعون المتباينة الاسناد وغيرها وله كتاب في الصلاة الوسطى مفيد جداً، ومصنف في صيام ستة أيام من شوال أفاد فيه وأجاد، وجمع ما لم يسبق إليه، وله كتاب الذكر والتسبيح عقيب الصلوات، وكتاب التسلي في الاغتباط بثواب من يقدم من الافراط، وغير ذلك من الفوائد الحسان، ولم يزل في

إسماع الحديث إلى أن أدركته وفاته وهو صائم في مجلس الاملاء غشي عليه فحمل إلى منزله فمات من ساعته يوم الاحد عاشر ذي القعدة بالقاهرة، ودفن من الغد بمقابر باب النصر وكانت جنازته حافلة جداً رحمه الله تعالى.

١٥ ــ الشيخ الرئيس بدر الدين محمد بن رئيس الأطباء أبي إسحق: إبراهيم ابن محمد بن طرخان الأنصاري:

جاء في ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص (٥٧-٥٨) في أثناء ترجمة ابن كثير: «سمع ابن السويدي».

وابن السويدي هذا ترجمه ابن كثير في تاريخه (١٤:٦٣-٦٤) أثناء وفيات سنة (٧١١) وقال عنه: «من سلالة سعد بن معاذ السويدي، من سويداء حوران، سمع الحديث وبرع في الطب، وتوفي في ربيع الأول ببستانه بقرب الشبلية، ودفن في تربة له في قبة فيها عن ستين سنة».

١٦ ــ أبو بكر بن محمد بن الرضي الصالحي القطان:

وقد ورد ذكره في شذرات الذهب (٦:١١٦-١١٧)، ونقل قول الذهبي عنه:

«نعم الشيخ، كان له أجازة السبط، وجماعة، توفي سنة (٧١٨) عن تسع وثمانين سنة».

١٧ ــ الشيخ عفيف الدين محمد بن عمر بن عثمان بن عمر الصقلي، ثم الدمشقي:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤:١١٩)، في أثناء حوادث سنة (٧٢٥)، وقال:

«إمام مسجد الرأس، آخر من حدث عن ابن الصلاح ببعض سنن البيهقي، سمعنا عليه شيئاً منها، توفي في صفر».

١٨ ــ عيسى بن المطعم:

هو عيسى بن عبد الرحمن بن معالي بن أحمد المسند، شرف الدين، أبو محمد السمسار في العقار، ومطعم الأشجار.

«كان هذا الرجل عامياً بطيء الفهم، بيد أنه سمع معظم الصحيح، واشتهر ذكره، وكان متواضعاً حسن الخلق، روى شيئاً كثيراً».

وقد توفي عام (٧١٩) على ما أورده الذهبي في معجمه، (لوحة: ١٠٩).

وقد سمع منه ابن كثير معظم الصحيح، فهو مبلغ ما سمعه وحفظه، ورب مبلّغ أوعى من سامع.

١٩ ـ بهاء الدين ابن عساكر (٦٢٩-٧٢٣):

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤: ١٠٨)، أثناء وفيات (٧٢٣)، فقال:

بهاء الدين أبو القاسم ابن الشيخ بدر الدين أبي غالب المظفر بن نجم الدين بن أبي الثناء محمود ابن الامام تاج الأمناء أبي الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الدمشقي الطبيب المعمر، ولد سنة تسع وعشرين وستمائة، سمع حضوراً وسماعاً على الكثير من المشايخ، وقد خرج له الحافظ علم الدين البرزالي مشيخة سمعناها عليه في سنة وفاته، وكذلك خرج له الحافظ صلاح الدين العلائي عوالي من حديثه، وكتب له المحدث المفيد ناصر الدين بن طغر بك مشيخة في سبع مجلدات تشتمل على خمسمائة وسبعين شيخاً، سماعاً وإجازة، وقرئت عليه فسمعها الحفاظ وغيرهم. قال البرزالي: وقد قرأت عليه ثلاثاً وعشرين مجلداً بحذف المكررات. ومن الأجزاء خمسمائة وخمسين جزءاً بالمكررات. قال: وكان قد اشتغل بالطب، وكان يعالج الناس بغير أجرة، وكان يحفظ كثيراً من الأحاديث والحكايات والأشعار، وله نظم، وخدم من عدة جهات الكتابة، ثم ترك ذلك ولزم بيته وإسماع الحديث، وتفرد في آخر عمره في أشياء كثيرة، وكان سهلاً في التسميع، ووقف آخر عمره داره دار حديث، وخص الحافظ البرزالي والمزي بشيء من بره، وكانت وفاته يوم الإثنين وقت الظهر خامس وعشرين شعبان، ودفن بقاسيون رحمه الله.

٢٠ ـ عفيف الدين الآمدي:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤: ١٢٠)، أثناء وفيات (٧٢٥)، وقال:

عفيف الدين إسحاق بن يحيى بن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل الآمدي ثم الدمشقي الحنفي، شيخ دار الحديث الظاهرية، ولد في حدود الأربعين وستمائة، وسمع الحديث على جماعة كثيرين، منهم يوسف بن خليل ومجد الدين بن تيمية، وكان شيخاً حسناً بهي المنظر سهل الاسماع يحب الرواية ولديه فضيلة، توفي ليلة الاثنين ثاني عشرين رمضان، ودفن بقاسيون، وهو والد فخر الدين ناظر الجيوش والجامع.

٢١ ـ شمس الدين محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني (٦٧٤-٧٤٩):

أفاد منه ابن كثير في الأصول؛ فقد كان بارعاً في العقليات، صحيح الاعتقاد، محباً لأهل الصلاح، ذكره ابن العماد في الشذرات (٦:١٦٥).

٢٢ ـ شمس الدين الشيرازي:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤:١٠٩) أثناء وفيات (٧٢٣)، وقال:

شيخنا الأصيل: شمس الدين، أبو نصر بن محمد بن عماد الدين أبي الفضل محمد بن شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن محمد بن يحيى بن بندار بن مميل الشيرازي، مولده في شوال سنة تسع وعشرين وست مئة، وسمع الكثير وأسمع، وأفاد في علية شيخنا المزي تغمده الله برحمته قرأ عليه عدة أجزاء بنفسه ـ أثابه الله ـ.

وكان شيخاً حسناً خيراً متواضعاً مباركاً، يذهب الربعات والمصاحف، له في ذلك يد طولى، ولم يتدنس بشيء من الولايات، ولا تدنس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات، إلى أن توفي في يوم عرفة ببستانه من المزة، وصلّي عليه بجامعها، ودفن بتربتها رحمه الله.

٢٣ ـ علم الدين محمد القاسم بن محمد البرزالي مؤرخ الشام:

هو القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف بن محمد، الإمام الحافظ

المؤرخ المفيد، علم الدين أبو محمد البرزالي، الإشبيلي الأصل، الدمشقي. ولد بدمشق في جمادى الأولى سنة خمس وستين وستمائة، وسمع الجم الغفير يزيد عددهم على ألفي شيخ، وكتب بخط ما لا يحصى كثرة. وتفقه بالشيخ تاج الدين الفزاري وصحبه وأكثر عنه، ونقل عنه الشيخ تاج الدين في تأريخه، وولى مشيخة دار الحديث النورية ومشيخة النفيسية. وصنف التاريخ ذيلاً على تاريخ أبي شامة، بدأ فيه من عام مولده، وهي السنة التي مات فيها أبو شامة، قال الذهبي: في سبع مجلدات، والمعجم الكبير وجمع لنفسه أربعين بلدانية وبلغ ثبته بضعاً وعشرين مجلداً، أثبت فيه كل من سمع منه وانتفع به المحدثون من زمانه إلى آخر القرن.

ذكره الذهبي في معجمه وقال: الإمام الحافظ المتقن الصادق الحجة مفيدنا ومعلمنا ورفيقنا، محدث الشأم، ومؤرخ العصر، ومشيخته بالإجازة والسماع فوق ثلاثة آلاف، وكتبه وأجزاؤه الصحيحة في عدة أماكن، وهي مبذولة للطلبة، وقراءته المليحة الصحيحة الفصيحة مبذولة لمن قصده، وتواضعه وبشره مبذول لكل غني وفقير، وترجمه الذهبي في جزء مفرد، توفي محرماً بخليص في ذي الحجة سنة تسع ــ بتقديم التاء ــ وثلاثين وسبعمائة، ووقف كتبه.

وقال ابن حبيب: وقفت على تاريخه ومعجمه، وهما أكثر من عشرين مجلداً. وكتبت على المعجم:

يا طالباً نعت الشيوخ وما رووا ورأوا على التفصيل والإجمال
دار الحديث انزل تجد ما تبتغيــ ــه بارزاً في معجم البرزالي

وقد ترجم له السبكي في الطبقات (١٠:٣٨١)، وله ترجمة في فوات الوفيات (٢:١٣٠)، وتذكرة الحفاظ (٤:١٥٠١)، وذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ١٨، وذيل تذكرة الحفاظ للسيوطي، ص (٣٥٣)، والدارس (١:١١٢)، والدرر الكامنة (٣:٢٣٧)، والنجوم الزاهرة (٩:٣١٩)، ومرآة الجنان (٤:٣٠٣)، وشذرات الذهب (٦:١٢٢)، والبدر الطالع (٢:٥١).

وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤: ١٨٥-١٨٦)، أثناء وفيات (٧٣٩)، فقال:

علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن البرزالي مؤرخ الشام الشافعي، ولد سنة وفاة الشيخ ابن أبي شامة سنة خمس وستين وستمائة، وقد كتب تاريخاً ذيل به على الشيخ شهاب الدين، من حين وفاته ومولد البرزالي إلى أن توفي في هذه السنة، وهو محرم، فغسل وكفن ولم يستر رأسه، وحمله الناس على نعشه وهم يبكون حوله، وكان يوماً مشهوداً، وسمع الكثير أزيد من ألف شيخ، وخرج له المحدث شمس الدين ابن سعد مشيخة لم يكملها، وقرأ شيئاً كثيراً، وأسمع شيئاً كثيراً، وكان له خط حسن، وخلق حسن، وهو مشكور عند القضاة ومشايخه أهل العلم، سمعت العلامة ابن تيمية يقول: نقل البرزالي نقر في حجر. وكان أصحابه من كل الطوائف يحبونه ويكرمونه، وكان له أولاد ماتوا قبله، وكتبت ابنته فاطمة البخاري في ثلاثة عشر مجلداً فقابله لها، وكان يقرأ فيه على الحافظ المزي تحت القبة، حتى صارت نسختها أصلاً معتمداً يكتب منها الناس، وكان شيخ حديث بالنورية وفيها وقف كتبه بدار الحديث السنية، وبدار الحديث القوصية وفي الجامع وغيره وعلى كراسي الحديث، وكان متواضعاً محبباً إلى الناس، متودداً إليهم، توفي عن أربع وسبعين سنة رحمه الله.

٢٤ ـ أبو زكريا الشيباني:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤: ١١٥)، أثناء وفيات (٧٢٤)، وقال:

محيي الدين أبو زكريا يحيى بن الفاضل جمال الدين إسحاق بن خليل بن فارس الشيباني الشافعي اشتغل على النواوي ولازم ابن المقدسي، وولي الحكم بزرع وغيرها، ثم قام بدمشق يشتغل في الجامع، ودرس في الصارمية وأعاد في مدارس عدة إلى أن توفي في سلخ ربيع الآخر ودفن بقاسيون وقد قارب الثمانين رحمه الله، وسمع كثيراً وخرج له الذهبي شيئاً وسمعنا عليه الدارقطني وغيره.

٢٥ ــ شيخ الإسلام ابن الزملكاني:

محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف بن نبهان بن سلطان ابن أحمد بن خليل بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن المنذر بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أبي دجانة سماك بن خرشة الصحابي الأنصاري السماكي ــ نسبة إلى أبي دجانة سماك بن خرشة الأنصاري رضي الله عنه ــ الشيخ الإمام، العلامة قاضي القضاة كمال الدين أبو المعالي المعروف بابن الزملكاني.

ولد في شوال سنة سبع. وقيل: ست وستين وستمائة، وسمع من جماعة وطلب الحديث بنفسه، وكتب الطباق بخطه، وقرأ الفقه على الشيخ تاج الدين الفزاري، وقرأ الأصول على بهاء الدين ابن الزكي والصفي الهندي، والنحو على بدر الدين ابن مالك، وجود الكتابة على نجم الدين بن البصيص، وكتب الإنشاء مدة. وولي نظر الخزانة مدة، ووكالة بيت المال، ونظر المارستان. ودرس بالعادلية الصغرى، وتربة أم الصالح، ثم بالشامية البرانية والظاهرية الجوانية والعذراوية والرواحية والمسرورية، وجلس بالجامع للاشغال وله تسع عشرة سنة. أرخ ذلك شيخه الشيخ تاج الدين. ثم ولي قضاء حلب سنة أربع وعشرين بغير رضاه، ودرس بها بالسلطانية والسيفية والعصرونية والأسدية، ثم طلب إلى مصر ليشافهه السلطان له بقضاء الشام، فركب البريد فمات قبل وصوله إلى مصر.

ومن مصنفاته: الرد على ابن تيمية في مسألة الزيارة سماه «العمل المقبول في زيارة الرسول» و«الرد في مسألة الطلاق». قال ابن كثير: في مجلد. قال: وعلق قطعة كبيرة من شرح المنهاج للنووي.

وله كتاب في تفضيل الملك على البشر. وقال الكمال الأدفوني: وله كتاب سماه عجالة الراكب، وكتاب في أصول الفقه. وشرع في شرح الأحكام الصغرى لعبد الحق الإشبيلي وأخذ في ترتيب الأم ولم يتمه.

قال الذهبي في المعجم المختص: شيخنا عالم العصر طلب بنفسه وقتاً وقرأ على

الشيوخ ونظر في الرجال والعلل شيئاً، وكان عذب القراءة سريعاً، وكان من بقايا المجتهدين، ومن أذكياء أهل زمانه، ودرس وأفتى وصنف، وتخرج به الأصحاب.

وقال ابن كثير: انتهت إليه رئاسة المذهب تدريساً وإفتاء ومناظرة، برع وساد أقرانه، وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد، وتحصيله الذي أسهره ومنعه الرقاد، وعبارته التي هي أشهى من السهاد، وخطه الذي أنضر من أزاهير المهاد ـ إلى أن قال: أما دروسه في المحافل فلم أسمع أحداً من الناس يدرس أحسن منه، ولا أحلى من عبارته، وحسن تقريره، وجودة احترازاته، وصحة ذهنه، وقوة قريحته، وحسن نظمه. توفي في رمضان سنة سبع ـ بتقديم السين ـ وعشرين وسبعمائة ببلبيس، وحمل إلى القاهرة ودفن جوار قبة الشافعي رضي الله عنه.

وترجمة الشيخ كمال الدين طويلة مشهورة، وقد ذكر له الإمام تاج الدين عبد الباقي اليماني في ذيله على وفيات الأعيان ترجمة بليغة.

وقد ترجمه ابن كثير في تاريخه (١٤:١٣١-١٣٢)، كما أن له ترجمة في طبقات الشافعية (٩:١٩٠-٢٠٦)، وفوات الوفيات (٢:٢٥٠)، ومرآة الجنان (٤:٢٧٧)، والدرر الكامنة (٤:٧٤)، والنجوم الزاهرة (٩:٢٧٠)، وشذرات الذهب (٦:٧٨).

٢٦ ـ ابن قاضي شهبة:

عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن ذؤيب، الأسدي، الشيخ الإمام، العالم العامل، كمال الدين أبو محمد بن القاضي العالم شرف الدين بن القاضي العالم كمال الدين بن القاضي العالم جمال الدين، المعروف بابن قاضي شهبة. ولد سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وأخذ عن الشيخ تاج الدين الفزاري، وتخرج به، وأخذ عن أخيه شرف الدين الفزاري النحو واللغة، وأعاد وجلس للاشغال بالجامع مدة طويلة، وتخرج به جماعة، منهم ابن أخيه الشيخ شمس الدين، وغالب من أخذ عن الشيخ برهان الدين أخذ عنه. وله شرح مختصر على الجرجانية، حلو العبارة، لم يكمله. وله تعليقة على التنبيه، لم تشتهر، احترقت في فتنة التتار.

ذكره الذهبي في معجمه وقال: تفقه بالشيخ تاج الدين حتى أتقن المذهب، وقرأ العربية على الشيخ شرف الدين، وتصدر لإقراء العلمين مدة، وتخرج به الفضلاء، وكان كيساً متواضعاً، مقتصداً في أموره، حلو المحاضرة، علقت عنه فوائد، وقد سمع من جماعة، وحدث.

وقال السبكي: وكان عارفاً بالمذهب والنحو، مجداً في تعليم الطلبة، شغلهم مدة مديدة بالجامع الأموي. توفي في ذي الحجة سنة ست وعشرين وسبعمائة ودفن بباب الصغير غربي زاوية القلندرية.

وله ترجمة في طبقات السبكي (١٠:١٢٤)، والدرر الكامنة (٢:٤٣١)، وتاريخ ابن الوردي (٢:٢٨٠).

وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤:١٢٦-١٢٧) أثناء وفيات (٧٢٦)، وقال:

ولد بحوران في سنة ثلاث وخمسين وستمائة، وقدم دمشق واشتغل على الشيخ تاج الدين الفزاري، ولازمه وانتفع به، وأعاد بحلقته، وتخرج به، وكذلك لازم أخاه الشيخ شرف الدين، وأخذ عنه النحو واللغة، وكان بارعاً في الفقه والنحو، له حلقة يشتغل فيها تجاه محراب الحنابلة، وكان يعتكف جميع شهر رمضان، ولم يتزوج قط، وكان حسن الهيئة والشيبة حسن العيش والملبس متقللاً من الدنيا، له معلوم يقوم بكفايته من إعادات وفقاهات وتصدير بالجامع، ولم يدرس قط ولا أفتى، مع أنه كان ممن يصلح أن يأذن في الافتاء، ولكنه كان يتورع عن ذلك، وقد سمع الكثير: سمع المسند للامام أحمد وغير ذلك، توفي بالمدرسة المجاهدية ــ وبها كانت إقامته ــ ليلة الثلاثاء حادي عشرين ذي الحجة، وصلى عليه بعد صلاة الظهر، ودفن بمقابر باب الصغير.

٢٧ ــ برهان الدين الفزاري:

إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع بن ضياء، الفزاري، البدري، الشيخ العلامة، شيخ الإسلام برهان الدين أبو إسحاق ابن الشيخ العلامة فقيه الشام تاج الدين أبي محمد بن الشيخ المقرىء برهان الدين أبي إسحاق المصري

الأصل الدمشقي.

ولد في شهر ربيع الأول سنة ستين وستمائة، وسمع الكثير من ابن عبد الدائم وابن أبي اليسر وعدة. وله مشيخة خرجها العلائي. وأخذ عن والده، وبرع، وأعاد في حلقته، وأخذ النحو عن عمه شرف الدين، ودرس بالبادرائية بعد وفاة أبيه، وخلفه في اشغال الطلبة والإفتاء، ولازم الأشغال، والتصنيف، وحدث بالصحيح مرات.

وعرض عليه القضاء بعد موت القاضي نجم الدين ابن صصري. وألح نائب الشام عليه بنفسه وبأعوانه من الدولة، فلم يقبل، وصمم، وامتنع أشد الإمتناع.

وكان بعد موت عمه قد ولي الخطابة، وباشرها مدة يسيرة، ثم تركها لما بلغه أن بعض الناس يسعى في تدريس البادرائية، فتركها وعاد إلى البادرائية.

وصنف التعليقة على التنبيه في نحو عشر مجلدات، فيها فوائد جليلة، ونقول غريبة، وأبحاث حسنة تتعلق بألفاظ التنبيه مع تنبيهه على كثير مما وقع للنووي من التناقض، واعتراضات حسنة. وقد نقل الإسنوي في المهمات كثيراً من فوائد الشيخ برهان الدين ولا يسميه، ومع ذلك فإنه لم ينصفه في الطبقات لما ترجمه. وللشيخ برهان الدين تعليقة على مختصر ابن الحاجب في الأصول، وله مصنفات آخر.

ذكره الذهبي في المعجم المختص وقال: انتهت إليه معرفة المذهب، ودقائقه، ووجوهه، مع علم متون الأحكام، وعلم الأصول، والعربية، وغير ذلك. وسمع الكثير وكتب بعض مسموعاته. وكان يدري علوم الحديث مع الدين والورع وحسن الصوت والتواضع. وقال في معجم شيوخه: ناب في مشيخة دار الحديث أشهراً فبهرت معارفه، وخضع له الفضلاء ومناقبه يطول شرحها.

وقد ترجمه السبكي في الطبقات (٩:٣١٢-٣١٣)، وله ترجمة في مرآة الجنان (٤:٢٧٩)، والدرر الكامنة (١:٣٤)، وتاريخ ابن الوردي (٢:٢٩٠)، والدارس (١:٢٠٨)، وشذرات الذهب (٦:٨٨)، وطبقات ابن قاضي شهبة (٢:٣١٤).

وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤٦:١٤)، أثناء وفيات (٧٢٩)، فقال:

هو الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ المذهب وعلمه ومفيد أهله، شيخ الإسلام مفتي الفرق بقية السلف برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيخ العلامة تاج الدين أبي محمد عبد الرحمن ابن الشيخ الإمام المقرىء المفتي برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزاري المصري الشافعي، ولد في ربيع الأول سنة ستين وستمائة، وسمع الحديث واشتغل على أبيه وأعاد في حلقته وبرع وساد أقرانه، وسائر أهل زمانه من أهل مذهبه في دراية المذهب ونقله وتحريره، ثم كان في منصب أبيه في التدريس بالبادرائية، وأشغل الطلبة بالجامع الأموي فانتفع به المسلمون، وقد عرضت عليه المناصب الكبار فأباها، فمن ذلك أنه باشر الخطابة بعد عمه العلامة شرف الدين مدة ثم تركها وعاد إلى البادرائية، وعرض عليه قضاء قضاة الشام بعد ابن صصري وألح نائب الشام عليه بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل، وصمم وامتنع أشد الامتناع، وكان مقبلاً على شأنه عارفاً بزمانه مستغرقاً أوقاته في الاشتغال والعبادة ليلاً ونهاراً، كثير المطالعة وإسماع الحديث، وقد سمعنا عليه صحيح مسلم وغيره، وكان يدرس بالمدرسة المذكورة، وله تعليق كثير على التنبيه، فيه من الفوائد ما ليس يوجد في غيره، وله تعليق على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وله مصنفات في غير ذلك كبار. وبالجملة فلم أر شافعياً من مشايخنا مثله، وكان حسن الشكل عليه البهاء والجلالة والوقار، حسن الأخلاق، فيه حدة ثم يعود قريباً، وكرمه زائد وإحسانه إلى الطلبة كثير، وكان لا يقتني شيئاً ويصرف مرتبه وجامكية مدرسته في مصالحه، وقد درس بالبادرائية من سنة سبعين وستمائة إلى عامه هذا، توفي بكرة يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بالمدرسة المذكورة، وصُلي عليه عقب الجمعة بالجامع وحملت جنازته على الرؤوس وأطراف الأنامل، وكانت حافلة، ودفن عند أبيه وعمه وذويه بباب الصغير رحمه الله تعالى». أ. هـ.

ورثاه الشيخ زين الدين ابن الوردي بأبيات منها:

قد كان أعظمهم زهداً وأرفعهم   مجداً وأسهرهم في العلم أجفانا

مـا أودع الله مـن فـضـل لـوالـده إلا ونحـن نـراه في ابـنـه الآنـا
إني لأصـغـر نـفسي لازمـاً أدبي من أن أقيم على الـبرهان بـرهانـا.

٢٨ ـ الحجار ابن الشحنة:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤: ١٥٠)، أثناء وفيات (٧٣٠)، فقال: الشيخ الكبير المسند المعمر الرحلة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي طالب بن نعمة ابن حسن بن علي بن بيان الديرمقرني ثم الصالحي الحجار المعروف بابن الشحنة، سمع البخاري على الزبيدي سنة ثلاثين وستمائة بقاسيون، وإنما ظهر سماعه سنة ست وسبعمائة ففرح بذلك المحدثون وأكثروا السماع عليه، فقرىء البخاري عليه نحواً من ستين مرة وغيره، وسمعنا عليه بدار الحديث الاشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزءاً بالاجازات والسماع، وسماعه من الزبيدي وابن اللتي، وله إجازة من بغداد فيها مائة وثمانية وثلاثون شيخاً من العوالي المسندين، وقد مكث مدة مقدم الحجارين نحواً من خمس وعشرين سنة، ثم كان يخيط في آخر عمره، واستقرت عليه جامكيته لما اشتغل باسماع الحديث، وقد سمع عليه السلطان الملك الناصر، وخلع عليه وألبسه الخلعة بيده، وسمع عليه من أهل الديار المصرية والشامية أمم لا يحصون كثرة، وانتفع الناس بذلك، وكان شيخاً حسناً بهي المنظر سليم الصدر ممتعاً بحواسه وقواه، فانه عاش مائة سنة محققاً، وزاد عليها، لأنه سمع البخاري من الزبيدي في سنة ثلاثين وستمائة وأسمعه هو في سنة ثلاثين وسبعمائة في تاسع صفر بجامع دمشق، وسمعنا عليه يومئذ ولله الحمد، ويقال إنه أدرك موت المعظم عيسى بن العادل لما توفي، والناس يسمعهم يقولون مات المعظم، وقد كانت وفاة المعظم في سنة أربع وعشرين وستمائة، وتوفي الحجار يوم الاثنين خامس عشرين صفر من هذه السنة، وصلى عليه بالمظفري يوم الثلاثاء ودفن بتربة له عند زاوية الدومي، بجوار جامع الافرم. وكانت جنازته حافلة رحمه الله.

وقد ترجمه ابن حجر في الدرر الكامنة (١: ١٥٢)، وابن العماد في الشذرات (٦: ٩٣).

٢٩ ـ الذهبي:

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، الإمام العلامة الحافظ مؤرخ الاسلام التركماني الفارقي الدمشقي، المعروف بالذهبي (٦٧٣-٧٤٨).

طلب العلم وله ثمان عشرة سنة، وسمع ببلاد كثيرة من خلائق يزيدون على ألف ومئتين، وأخذ الفقه عن مشايخه: ابن الزملكاني، وبرهان الدين الفزاري، وكمال الدين ابن قاضي شهبة، وغيرهم. وقرأ القراءات وأتقنها، وشارك في بقية العلوم، وأقبل على صناعة الحديث فأتقنها، وحفظ التواريخ، ودرس الرجال، حتى بذَّ أقرانه، وتفوق على معاصريه، قال السبكي: «اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ وبينهم عموم وخصوص، المزي، البرزالي، والذهبي، والشيخ الوالد لا خامس لهم في عصرهم، فأما أستاذنا فبصر لا نظير له.. إمام الوجود حفظاً، وذهب العصر معنى ولفظاً وشيخ الجرح والتعديل، ورجل الرجال في كل سبيل، كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد، فنظرها، ثم أخذ يخبر عنها من حضرها...».

وقد صنف التصانيف الكثيرة المشهورة مع الدين المتين، والورع والزهد، وحمل راية أهل السنة والجماعة، وإمام أهل عصره(*).

تتلمذ ابن كثير على شيخه الذهبي، واستقى من علومه، ونهل من موارده، في التفسير، والحديث والتاريخ، وغيرها، وقد روى عنه بعض الأحاديث منها ما أورده في سورة الصف بعد أن أورد حديثاً من مسند الإمام أحمد:

ولكن أخبرني الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان رحمه الله الذهبي أخبرنا القاضي تقي الدين بن سليمان بن الشيخ أبي عمرو أخبرنا أبو المنجا ابن اللتي فذكره بإسناده وتسلسل لي من طريقه وقرأها عليَّ بكمالها ولله الحمد والمنة.

(*) فوات الوفيات (٢:١٨٣)، ونكت الهميان (٢٤١)، طبقات السبكي (٩:١٠٢)، الدرر الكامنة (٣:٣٣٦)، وذيل تذكرة الحفاظ (ص:٣٤)، والوافي بالوفيات (٢:١٦٣)، وغاية النهاية (٢:٧١)، والدارس (١:٧٨)، والبداية (١٤:٢٢٥)، والنجوم الزاهرة (١٠:١٨٢)، والبدر الطالع (٢:١١٠)، وطبقات ابن قاضي شهبة (٣:٧٢)، وكنوز الأجداد (٣٧٠)، ومعجم المؤلفين (٨:٢٨٩).

كما ينقل عنه في تفسير الآية (٥٦) من سورة الأحزاب، في الحديث المروي عن كادح بن رحمة، عن نهشل، عن ابن عباس، قال ابن كثير فيه: قال شيخنا الذهبي: أحسبه موضوعاً.

ـــ ابن كثير ينقل رأي شيخه الذهبي في قتلة عثمان:

بعد أن استعرض ابن كثير هذا الموضوع الجلل في تاريخه (١٩٧:٧-١٩٩)، قال:

وقال شيخنا أبو عبد الله الذهبي في آخر ترجمة عثمان وفضائله ـــ بعد حكايته هذا الكلام: الذين قتلوه أو ألبوا عليه قتلوا إلى عفو الله ورحمته، والذين خذلوه خذلوا وتنغص عيشهم، وكان الملك بعده في نائبه معاوية وبنيه، ثم في وزيره مروان وثمانية من ذريته، استطالوا حياته وملوه مع فضله وسوابقه، فتملك عليهم من هو من بني عمه بضعاً وثمانين سنة، فالحكم لله العلي الكبير. وهذا لفظه بحروفه.

ـــ ويأخذ عليه اغتراره بصاحب العقد الفريد:

فقد قال بعد استعراضه قضية خالد القسري وما أشيع عنه من أنه حفر بئراً بمكة ادعى فضلها على زمزم، وأن له روايةً في تفضيل الخليفة على الرسول... قال في البداية (٢١:١٠):

[والذي يظهر أن هذا لا يصح عنه، فانه كان قائماً في إطفاء الضلال والبدع كما قدمنا من قتله للجعد بن درهم وغيره من أهل الالحاد، وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح، لأن صاحب العقد كان فيه تشيع شنيع ومغالاة في أهل البيت، وربما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيع، وقد اغتر به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره].

٣٠ ـــ ابن تيمية:

هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الحنبلي (٦٦١-٧٢٨).

ولد من أسرة عرفت بالعلم والفضل، وكان جده أبو البركات مجد الدين من أئمة المذهب الحنبلي وكبار علمائه، وكان والده: شهاب الدين عبد الحليم بن تيمية عالماً محدثاً، وفقيهاً حنبلياً، وصاحب تدريس وإفتاء يعتمد على ذاكرته وحفظه، وكانت دروسه تمتاز بالارتجال والتكلم عن ظهر قلب.

وعرف ابن تيمية شيخ ابن كثير بقوة الذاكرة وكثرة الحفظ، وقد أدهش العلماء وأساتذته بذاكرته القوية، وسرعة حفظه.

وكان عالماً مجدداً ذا مذهب، وقد أعجب ابن كثير به وسار على دربه، حتى امتحن بسبب ذلك وأوذي ولقي من التعذيب مثلما لقي أستاذه ابن تيمية.

وسر تأثر ابن كثير بشيخه ابن تيمية يكمن في خصائص ابن تيمية البارزة، من ذكاء نادر، وتبحر علمي، واستقلال فكري، واخلاص للحق لوجه الحق وحده، وكان له دور إصلاحي وتجديدي، وتنشيط للفكر الإسلامي.

ويظهر تأثر ابن كثير البالغ من شيخه أنه استفاد منه كثيراً في التفسير ولابن تيمية خصائص تأليفية نادرة، وموهبة لا تجارى، كما ذكره ابن كثير مراراً في تاريخه، فترجم له في (١٤:١٣٥-١٤٠)، وذكر إسلام ديّان اليهود على يديه (١٤:٧٥)، وقصة لقائه ملك التتار قازان (١٤:٨٩)، وقضية محنته بسبب الفتوى الحموية (١٤:٤)، ثم محاكمته (١٤:٣٦-٣٩)، ثم محنته بسجن القاهرة سنة (٧٠٧) هـ (١٤:٤٤)، واعتقاله بقلعة دمشق (١٤:١٢٣)، وبعض آرائه في دلائل النبوة (٦:٧٠)، ورده لحديث ردّ الشمس على علي (٦:٨٣) وقضية عسّاف وسب الرسول صلى الله عليه وسلم (١٣:٣٣٦)، وذكر قصة الأوامر السلطانية الصادرة باشارته (١٤:٦٠) وأنه لم يتخلف عن جنازته أحد من أهل العلم إلا ثلاثة (١٤:١٣٩)، وصلاة المسلمين عليه بالمدينة صلاة الغائب (١٤:١٤٣).

٣١ ــ المزي:

أما إذا بلغ بنا المطاف عند الحافظ الكبير المتقن جمال الدين المزي (٦٥٤-٧٤٢) والذي صنف «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف»، و«تهذيب

الكمال في أسماء الرجال»، فخدم السنة النبوية، وصنع لها كتابين كالفهرس بين يديها الأول في الأطراف، والثاني في رجال الإسناد، والذي تتلمذ عليه ابن كثير، ثم صاهره، ثم تبعه في «جامع المسانيد والسنن» واقتفى أثره... فيحسن بنا أن نفرد له ترجمة عند الحديث على جامع المسانيد والسنن في الفصل الأخير من هذه المقدمة...

وبالله التوفيق وعليه التكلان.

* * *

■ شهرته بالمشرق في حياته:

تتجلى مكانة ابن كثير ومنزلته العلمية من خلال شهرته في حياته، وكثرة تلاميذه، وتدريسه بالمدارس المختلفة، وقد كان يقصده العلماء وطلاب العلم من مختلف البقاع.

جاء في تاريخه (١٤/٢٩٤-٢٩٥):

وحضر شاب عجمي من بلاد تبريز وخراسان يزعم أنه يحفظ البخاري ومسلماً وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري وغير ذلك من محاضيرها، في فنون أخر، فلما كان يوم الأربعاء سلخ شهر رجب قرأ في الجامع الأموي بالحائط الشمالي منه، عند باب الكلاسة من أول صحيح البخاري إلى أثناء كتاب العلم منه، من حفظه وأنا أقابل عليه من نسخة بيدي، فأدى جيداً، غير أنه يصحف بعضاً من الكلمات لعجم فيه، وربما لحن أيضاً في بعض الأحيان، واجتمع خلق كثير من العامة والخاصة وجماعة من المحدثين، فأعجب ذلك جماعة كثيرين، وقال آخرون منهم إن سرد بقية الكتاب على هذا المنوال لعظيم جداً، فاجتمعنا في اليوم الثاني وهو مستهل شعبان في المكان المذكور، وحضر قاضي القضاة الشافعي وجماعة من الفضلاء، واجتمع العامة محدقين فقرأ على العادة غير أنه لم يطول كأول يوم، وسقط عليه بعض الأحاديث، وصحف ولحن في بعض الألفاظ، ثم جاء القاضيان الحنفي والمالكي فقرأ بحضرتها أيضاً بعض الشيء، هذا والعامة محتفون به متعجبون من أمره، ومنهم من يتقرب بتقبيل يديه، وفرح بكتابتي له بالسماع على الاجازة،

وقال: أنا ما خرجت من بلادي إلا إلى القصد إليك، وأن تجيزني، وذكرك في بلادنا مشهور، ثم رجع إلى مصر ليلة الجمعة وقد كارمه القضاة والأعيان بشيء من الدراهم يقارب الألف.

■ درس التفسير بالجامع الأموي:

جاء في النهاية (١٤:٣٢١):

وفي صبيحة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة سبع وستين وسبعمائة حضر الشيخ العلامة الشيخ عماد الدين بن كثير درس التفسير الذي أنشأه ملك الأمراء نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكلي بغا رحمه الله تعالى من أوقاف الجامع الذي جددها في حال نظره عليه أثابه الله، وجعل من الطلبة من سائر المذاهب خمسة عشر طالباً لكل طالب في الشهر عشرة دراهم، وللمعيد عشرون ولكاتب الغيبة عشرون، وللمدرس ثمانون، وتصدق حين دعوته لحضور الدرس، فحضر واجتمع القضاة والأعيان، وأخذ في أول تفسير الفاتحة، وكان يوماً مشهوداً ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعفة انتهى.

■ تدريسه البخاري في ستة مدارس يومياً:

لقد تبوأ ابن كثير مكان الصدارة في كثير من المجالات التعليمية في عصره، وكان محل ثقة الحكام والعلماء وعامة الناس، وقد جاء في تاريخه (١٤:٣١٢):

وفي صبيحة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان قدم الأمير سيف الدين بيدمر الذي كان نائب الشام فنزل بداره عند مئذنة فيروز، وذهب الناس للسلام عليه بعدما سلم على نائب السلطنة بدار السعادة، وقد رسم له بطبلخانتين وتقدمة ألف وولاية الولاة من غزة إلى أقصى بلاد الشام، وأكرمه ملك الامراء إكراماً زائداً، وفرحت العامة بذلك فرحاً شديداً بعوده إلى الولاية. وختمت البخاريات بالجامع الأموي وغيره في عدة أماكن من ذلك ستة مواعيد تقرأ على الشيخ عماد الدين بن كثير في اليوم، أولها بمسجد ابن هشام بكرة قبل طلوع الشمس، ثم تحت النسر، ثم بالمدرسة النورية، وبعد الظهر بجامع تنكز، ثم بالمدرسة العزية، ثم

بالكوشك لأم الزوجة الست أسماء بنت الوزير ابن السلعوس، إلى أذان العصر، ثم من بعد العصر بدار ملك الأمراء أمير علي بمحلة القضاعين إلى قريب الغروب، ويقرأ صحيح مسلم بمحراب الحنابلة داخل باب الزيارة بعد قبة النسر وقبل النورية، والله المسؤول وهو المعين الميسر المسهل. وقد قرىء في هذه الهيئة في عدة أماكن أخر من دور الأمراء وغيرهم، ولم يعهد مثل هذا في السنين الماضية، فلله الحمد والمنة.

■ صلته بنائب السلطنة بدمشق:

وقد ولي ابن كثير منصب الإفتاء رسمياً، وكثيراً ما كان يُدعى إلى مجالس العلم والتحكيم، للفصل في القضايا العلمية الدقيقة، ولحضور المصالحات الهامة، وقد كان على صلة بنائب السلطنة بدمشق، فقد جاء في تاريخه (١٤: ٢٩٠) أنه في ثاني المحرم سنة ثلاث وستين وسبعمائة قدم نائب السلطنة بعد غيبة نحو من خمسة عشر يوماً، وقد أوطأ بلاد فرير بالرعب، وأخذ من مقدميهم طائفة فأودعهم الحبس، وكان قد اشتهر أنه قصد العُشيرات المواسين ببلاد عجلون، فسألته عن ذلك حين سلّمت عليه فأخبرني أنه لم يتعدّ ناحية فُرير، وأن العشيرات قد اصطلحوا واتفقوا، وأن التجريدة عندهم هناك.

■ شهادته في حق ابن السبكي:

جاء في البداية والنهاية (١٤: ٣١٦):

ولما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول عقد مجلس حافل بدار السعادة بسبب ما رمى به قاضي القضاة تاج الدين الشافعي ابن قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وكنت ممن طلب إليه، فحضرته فيمن حضر، وقد اجتمع فيه القضاة الثلاثة، وخلق من المذاهب الأربعة، وآخرون من غيرهم، بحضرة نائب الشام سيف الدين منكلي بغا، وكان قد سافر هو إلى الديار المصرية إلى الأبواب الشريفة، واستنجز كتاباً إلى نائب السلطنة لجمع هذا المجلس ليسأل عنه الناس، وكان قد كتب فيه محضران متعاكسان أحدهما له والآخر عليه، وفي الذي عليه خط القاضيين المالكي والحنبلي، وجماعة آخرين، وفيه عظائم وأشياء منكرة جداً

ينبو السمع عن استماعه. وفي الآخر خطوط جماعات من المذاهب بالثناء عليه، وفيه خطي بأني ما رأيتَ فيه إلا خيراً. ولما اجتمعوا أمر نائب السلطنة بأن يمتاز هؤلاء عن هؤلاء في المجالس، فصارت كل طائفة وحدها، وتحاذوا فيما بينهم، وتأصل عنه نائبه القاضي شمس الدين الغزي، والنائب الآخر بدر الدين بن وهبة وغيرهما، وصرح قاضي القضاة جمال الدين الحنبلي بأنه قد ثبت عنده ما كُتب به خطه فيه، وأجابه بعض الحاضرين منهم بدائم النفوذ، فبادر القاضي الغزي فقال للحنبلي: أنت قد ثبتت عداوتك لقاضي القضاة تاج الدين، فكثر القول وارتفعت الأصوات وكثر الجدال والمقال، وتكلم قاضي القضاة جمال الدين المالكي أيضاً بنحو ما قال الحنبلي، فأجيب بمثل ذلك أيضاً، وطال المجلس فانفصلوا على مثل ذلك، ولما بلغت الباب أمر نائب السلطنة برجوعي إليه، فإذا بقية الناس من الطرفين والقضاة الثلاثة جلوس، فأشار نائب السلطنة بالصلح بينهم وبين قاضي القضاة تاج الدين ــ يعني وأن يرجع القاضيان عما قالا ــ فأشار الشيخ شرف الدين بن قاضي الجبل وأشرت أنا أيضاً بذلك فلان المالكي وامتنع الحنبلي، فقمنا والأمر باق على ما تقدم، ثم اجتمعنا يوم الجمعة بعد العصر عند نائب السلطنة عن طلبه فتراضوا كيف يكون جواب الكتابات مع مطالعة نائب السلطنة، ففعل ذلك وسار البريد بذلك إلى الديار المصرية، ثم اجتمعنا أيضاً يوم الجمعة بعد الصلاة التاسع عشر من ربيع الآخر بدار السعادة، وحضر القضاة الثلاثة وجماعة آخرون، واجتهد نائب السلطنة على الصلح بين القضاة وقاضي الشافعية وهو بمصر، فحصل خلف وكلام طويل، ثم كان الأمر أن سكنت أنفس جماعة منهم إلى ذلك على ما سنذكره في الشهر الآتي.

■ شهادته في حق البترك بشارة الملقب بميخائيل:

قال ابن كثير في تاريخه (١٤: ٣١٩-٣٢٠):

وحضر عندي في يوم الثلاثاء تاسع شوال البترك بشارة الملقب بميخائيل، وأخبرني أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه بتركاً بدمشق عوضاً عن البترك بأنطاكية، فذكرت له أن هذا أمر مبتدع في دينهم، فإنه لا تكون البتاركة إلا

أربعة بالاسكندرية وبالقدس وبانطاكية وبرومية، فنقل بترك رومية إلى اسطنبول وهي القسطنطينية، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك، فهذا الذي ابتدعوه في هذا الوقت أعظم من ذلك. لكن اعتذر بأنه في الحقيقة هو عن إنطاكية، وإنما أذن له في المقام بالشام الشريف لأجل أنه أمره نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى صاحب قبرص، يذكر له ما حل بهم من الخزي والنكال والجناية بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الاسكندرية، وأحضر لي الكتب إليه وإلى ملك اسطنبول وقرأها علي من لفظه لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضاً. وقد تكلمت معه في دينهم ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاثة، وهم الملكية واليعقوبية ومنهم الافرنج والقبط، والنسطورية، فإذا هو يفهم بعض الشيء، ولكن حاصله أنه حمار من أكفر الكفار لعنه الله.

■ إنكاره على الأمراء ما فُعل بالنصارى:

جاء في البداية والنهاية في باب استيلاء الفرنج على الإسكندرية (١٤:٣١٤) أن الفرنج لما وصلوا إلى الإسكندرية في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر الله المحرم، فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً، ولا حافظاً للبحر ولا ناصراً، فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار بعدما حرقوا أبواباً كبيرة منها، وعاثوا في أهلها فساداً، يقتلون الرجال ويأخذون الأموال ويأسرون النساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير المتعال. وأقاموا بها يوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء، فلما كان صبيحة يوم الأربعاء قدم الشاليش المصري، فأقلعت الفرنج لعنهم الله عنها، وقد أسروا خلقاً كثيراً يقاومون الأربعة آلاف، وأخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغيرذلك ما لا يحد ولا يوصف، وقدم السلطان والأمير الكبير يلبغا ظهر يومئذ، وقد تفارط الحال وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائن بالبحر، فسمع للأساري من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله والاستغاثة به وبالمسلمين، ما قطع الأكباد، وذرفت له العيون وأصم الأسماع، فانا لله وإنا إليه راجعون ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جداً، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر فتباكى [الناس] كثيراً، فانا لله وإنا إليه راجعون، وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية إلى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ

منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الاسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم، فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية، ولا يجوز اعتمادها شرعاً، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر إلى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنساً كثيراً، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة كريم المجالسة، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال: إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له: هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد ــ الفرد ــ فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير فقال: كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ولا يمكنني أن أخالفه؟ وذكرت له أشياء كثيرة مما ينبغي اعتماده في حق أهل قبرص من الارهاب ووعيد العقاب، وأنه يجوز ذلك وإن لم يفعل ما يتوعدهم به، كما قال سليمان بن داود عليهما السلام: «ائتوني بالسكين أشقه نصفين» كما هو الحديث مبسوط في الصحيحين، فجعل يعجبه هذا جداً، وذكر أن هذا كان في قلبه وأنى كاشفته بهذا، وأنه كتب به مطالعة إلى الديار المصرية، وسيأتي جوابها بعد عشرة أيام، فتجيء حتى تقف على الجواب، وظهر منه إحسان وقبول وإكرام زائد رحمه الله. ثم اجتمعت به في دار السعادة في أوائل شهر ربيع الأول فبشرني أنه قد رسم بعمل الشواني والمراكب لغزو الفرنج ولله الحمد والمنة. ثم في صبيحة يوم الأحد طلب النصارى الذين اجتمعوا في كنيستهم إلى بين يديه وهم قريب من أربعمائة فحلفهم كم أموالهم وألزمهم بأداء الربع من أموالهم، فانا لله وإنا إليه راجعون. وقد أمروا إلى الولاة بإحضار من في معاملتهم، ووالي البر قد خرج إلى القرايا بسبب ذلك، وجردت أمراء إلى النواحي لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس وغير ذلك.

■ موقفه من استفتاء سياسي محرج:

جاءت ابن كثير صورة فتيا:

ما تقول السادة العلماء في ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه، ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه، وتصرف في المملكة، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله، فهل له الامتناع منه؟ وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً أم لا؟ وهل يثاب الساعي في خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال؟ أفتونا مأجورين.

فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير: إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى فهو أعلم بنيته في الذي يقصده، ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة على ذلك، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه، وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه، فلا بد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه والله الموفق للصواب (البداية ١٤:٢٨١).

■ وصف اجتماعه بالخليفة المعتضد:

قال ابن كثير في تاريخه (١٤:٢٤٥):

في يوم السبت عاشره اجتمعنا ــ يقول الشيخ عماد الدين بن كثير المصنف رحمه الله ــ بالخليفة المعتضد بالله أبي الفتح بن أبي بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، وسلمنا عليه وهو نازل بالمدرسة الدماغية، داخل باب الفرج وقرأت عنده جزءاً فيه ما رواه أحمد بن حنبل عن محمد بن إدريس الشافعي في مسنده، وذلك عن الشيخ عز الدين بن الضيا الحموي بسماعه من ابن البخاري، وزينب بنت مكي عن أحمد بن الحصين عن ابن المذهب عن أبي بكر بن مالك عن عبد الله بن أحمد عن أبيه فذكرهما، والمقصود أنه شاب حسن الشكل مليح الكلام متواضع جيد الفهم حلو العبارة رحم الله سلفه.

■ شهوده دخول السلطان محمد بن قلاوون إلى دمشق:

جاء في البداية والنهاية (١٤:٥١):

لما كان ثالث عشر شعبان جاء الخبر بقدوم الملك الناصر إلى دمشق، فساق إليه الأميران سيف الدين قطلو بك والحاج بهادر إلى الكرك، وحضاه على المجيء إليها، واضطرب نائب دمشق وركب في جماعة من أتباعه على الهجن في سادس عشر شعبان ومعه ابن صبح صاحب شقيف أرنون، وهيئت بدمشق أبهة السلطنة والاقامات اللائقة به، والعصائب والكوسات، وركب من الكرك في أبهة عظيمة، وأرسل الأمان إلى الأفرم، ودعا له المؤذنون في المأذنة ليلة الاثنين سابع عشر شعبان، وصبح بالدعاء له والسرور بذكره، ونودي في الناس بالأمان، وأن يفتحوا دكاكينهم ويأمنوا في أوطانهم، وشرع الناس في الزينة ودقت البشائر ونام الناس في الاسطحة ليلة الثلاثاء ليتفرجوا على السلطان حين يدخل البلد، وخرج القضاة، والامراء والأعيان لتلقيه.

قال كاتبه ابن كثير: وكنت فيمن شاهد دخوله يوم الثلاثاء وسط النهار في أبهة عظيمة وبسط له من عند المصلى وعليه أبهة الملك وبسطت الشقاق الحرير تحت أقدام فرسه، كلما جاوز شقة طويت من ورائه، والجد على رأسه والأمراء السلحدارية عن يمينه وشماله، وبين يديه، والناس يدعون له ويضجون بذلك ضجيجاً عالياً، وكان يوماً مشهوداً. قال الشيخ علم الدين البرزالي: وكان على السلطان يومئذ عمامة بيضاء، وكاوثة حمراء، وكان الذي حمل الغاشية على رأس السلطان الحاج بهادر وعليه خلعة معظمة مذهبة بفرو فاخم. ولما وصل إلى القلعة نصب له الجسر ونزل إليه نائبها الأمير سيف الدين السنجري، فقبل الأرض بين يديه، فأشار إليه إني الآن لا أنزل ههنا، وسار بفرسه إلى جهة القصر الأبلق والأمراء بين يديه، فخطب له يوم الجمعة.

وفي بكرة يوم السبت الثاني والعشرين من الشهر وصل الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب دمشق مطيعاً للسلطان، فقبل الأرض بين يديه، فترجل له السلطان وأكرمه وأذن له في مباشرة النيابة على عادته، وفرح الناس بطاعة الأفرم له، ووصل إليه أيضاً الأمير سيف الدين قبجق نائب حماة، والأمير سيف الدين استدمر نائب طرابلس يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان، وخرج الناس لتلقيها، وتلقاهما السلطان كما تلق الأفرم. وفي هذا اليوم رسم السلطان بتقليد

قضاء الحنابلة وعوده إلى تقي الدين سليمان، وهنأه الناس وجاء إلى السلطان إلى القصر فسلم عليه ومضى إلى الجوزية فحكم بها ثلاثة أشهر، وأقيمت الجمعة الثانية بالميدان وحضر السلطان والقضاة إلى جانبه، وأكابر الأمراء والدولة، وكثير من العامة. وفي هذا اليوم وصل إلى السلطان الأمير قراسنقر المنصوري نائب حلب وخرج دهليز السلطان يوم الخميس رابع رمضان ومعه القضاة والقراء وقت العصر، وأقيمت الجمعة خامس رمضان بالميدان أيضاً، ثم خرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء تاسع رمضان، وفي صحبته ابن صصري وصدر الدين الحنفي قاضي العسكري، والخطيب جلال الدين، والشيخ كمال الدين بن الزملكاني، والموقعون وديوان الجيش وجيش الشام بكماله قد اجتمعوا عليه من سائر مدنه وأقاليمه بنوابه وأمرائه، فلما انتهى السلطان إلى غزة دخلها في أبهة عظيمة، وتلقاه الأمير سيف الدين بهادر هو وجماعة من أمراء المصريين، فأخبروه أن الملك المظفر قد خلع نفسه من المملكة، ثم تواتر قدوم الأمراء من مصر إلى السلطان وأخبروه بذلك، فطابت قلوب الشاميين واستبشروا بذلك ودقت البشائر وتأخر مجيء البريد بصورة الناصري.

■ حضوره إعدام الزنديق عثمان الدكاكي:

قال ابن كثير في تاريخه (١٤: ١٩٠):

وفي يوم الثلاثاء سلخ شهر شوال عقد مجلس في دار العدل بدار السعادة وحضرته يومئذ واجتمع القضاة والأعيان على العادة وأحضر يومئذ عثمان الدكاكي قبحه الله تعالى، وادعى عليه بعظائم من القول لم يؤثر مثلها عن الحلاج ولا عن ابن أبي الغدافر السلقماني، وقامت عليه البينة بدعوى الإلَـهية لعنة الله، وأشياء أخر من التنقيص بالأنبياء ومخالطته أرباب الريب من الباجريقية وغيرهم من الاتحادية عليهم لعائن الله، ووقع منه في المجلس من إساءة الأدب على القاضي الحنبلي وتضمن ذلك تكفيره من المالكية أيضاً، فادعى أن له دوافع وقوادح في بعض الشهود، فرد إلى السجن مقيداً مغلولاً مقبوحاً، أمكن الله منه بقوته وتأييده، ثم لما كان يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي القعدة أحضر عثمان الدكاكي

المذكور إلى دار السعادة وأقيم إلى بين يدي الأمراء والقضاة وسئل عن القوادح في الشهود فعجز فلم يقدر، وعجز عن ذلك فتوجه عليه الحكم، فسئل القاضي المالكي الحكم عليه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم حكم باراقة دمه وإن تاب، فأخذ المذكور فضربت رقبته بدمشق بسوق الخيل، ونودي عليه: هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية، وكان يوماً مشهوداً بدار السعادة، حضر خلق من الأعيان والمشايخ، وحضر شيخنا جمال الدين المزي الحافظ، وشيخنا الحافظ شمس الدين الذهبي، وتكلما وحرضا في القضية جداً، وشهدا بزندقة المذكور بالاستفاضة، وكذا الشيخ زيد الدين أخو الشيخ تقي الدين بن تيمية، وخرج القضاة الثلاثة المالكي والحنفي والحنبلي، وهم نفذوا حكمه في المجلس فحضروا قتل المذكور وكنت مباشراً لجميع ذلك من أوله إلى آخره.

■ موقفه من ابن الراوندي والزنادقة وابن خلكان:

تعرض ابن كثير في ذكر حوادث سنة ثمان وتسعين ومائتين لترجمة ابن الراوندي، فقال فيه (١١:١١٣):

أحد مشاهير الزنادقة، كان أبوه يهودياً فأظهر الاسلام، ويقال إنه حرّف التوراة كما عادى ابنه القرآن بالقرآن وألحد فيه، وصنف كتاباً في الرد على القرآن سماه الدامغ. وكتاباً في الرد على الشريعة والاعتراض عليها سماه الزمردة. وكتاباً يقال له التاج في معنى ذلك، وله كتاب الفريد وكتاب إمامة المفضول الفاضل. وقد انتصب للرد على كتبه هذه جماعة منهم الشيخ أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي شيخ المعتزلة في زمانه، وقد أجاد في ذلك. وكذلك ولده أبو هاشم عبد السلام ابن أبي علي، قال الشيخ أبو علي: قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندي فلم أجد فيه إلا السفه والكذب والافتراء، قال: وقد وضع كتاباً في قدم العالم ونفي الصانع وتصحيح مذهب الدهرية والرد على أهل التوحيد، ووضع كتاباً في الرد على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعة عشر موضعاً، ونسبه إلى الكذب ــ يعني النبي صلى الله عليه وسلم ــ وطعن على القرآن، ووضع كتاباً لليهود والنصارى وفضل دينهم على المسلمين والاسلام، يحتج لهم فيها على

إبطال نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، إلى غير ذلك من الكتب التي تبين خروجه عن الاسلام. نقل ذلك ابن الجوزي عنه. وقد أورد ابن الجوزي في منتظمه طرفاً من كلامه وزندقته وطعنه على الآيات والشريعة. ورد عليه في ذلك، وهو أقل وأخس وأذل من أن يلتفت إليه وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وتمويهه. وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر، منها ما هو صحيح عنه ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله، وعلى طريقه ومسلكه في الكفر والتستر في المسخرة، يخرجونها في قوالب مسخرة وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة، وهذا كثير موجود فيمن يدعي الاسلام وهو منافق، يتمسخرون بالرسول ودينه وكتابه، وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته، ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وقد كان أبو عيسى الوراق مصاحباً لابن الراوندي قبحهما الله، فلما علم الناس بأمرهما طلب السلطان أبا عيسى فأودع السجن حتى مات. وأما ابن الراوندي فهرب فلجأ إلى ابن لاوي اليهودي، وصنف له في مدة مقامه عنده كتابه الذي سماه «الدامغ للقرآن» فلم يلبث بعده إلا أياماً يسيرة حتى مات لعنه الله. ويقال: إنه أخذ وصلب. قال أبو الوفاء بن عقيل: ورأيت في كتاب محقق أنه عاش ستاً وثلاثين سنة مع ما انتهى إليه من التوغيل في المخازي في هذا العمر القصير لعنه الله وقبحه ولا رحم عظامه.

وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات وقلس عليه ولم يخرجه بشيء، ولا كأن الكلب أكل له عجيناً، على عادته في العلماء والشعراء، فالشعراء يطيل تراجمهم، والعلماء يذكر لهم ترجمة يسيرة، والزنادقة يترك ذكر زندقتهم. وأرخ ابن خلكان تاريخ وفاته في سنة خمس وأربعين ومائتين، وقد وهم وهماً فاحشاً، والصحيح أنه توفي في هذه السنة كما أرخه ابن الجوزي وغيره.

■ **رأيه في علي ومعاوية (رضي الله عنهما):**

في حوادث خروج الخوارج على الإمام علي (رضي الله عنه) في تاريخه (٧:٢٧٨):

أن الأشعث بن قيس مر على ملأ من بني تميم فقرأ عليهم الكتاب فقام إليه عروة بن أذينة وهي أمه وهو عروة بن جرير من بني ربيعة بن حنظلة وهو أخو أبي بلال بن مرداس بن جرير فقال: أتحكمون في دين الله الرجال؟ ثم ضرب بسيفه عجز دابة الأشعث بن قيس، فغضب الأشعث وقومه، وجاء الأحنف بن قيس وجماعة من رؤسائهم يعتذرون إلى الأشعث بن قيس من ذلك، قال الهيثم بن عدي: والخوارج يزعمون أن أول من حكم عبد الله بن وهب الراسبي. قلت: والصحيح الأول وقد أخذ هذه الكلمة من هذا الرجل طوائف من أصحاب علي من القراء وقالوا: لا حكم إلا لله، فسموا المحكمية. وتفرق الناس إلى بلادهم من صفين، وخرج معاوية إلى دمشق بأصحابه، ورجع علي إلى الكوفة على طريق هيت فلما دخل الكوفة سمع رجلاً يقول: ذهب علي ورجع في غير شيء. فقال علي: للذين فارقناهم خير من هؤلاء وأنشأ يقول:

أخوك الذي إن أحرجتك ملمة ... من الدهر لم يبرح لبثك راحما
وليس أخوك بالذي إن تشعبت ... عليك أمور ظل يلحاك لائما

ثم مضى فجعل يذكر الله حتى دخل قصر الإمارة من الكوفة، ولما كان قد قارب دخول الكوفة اعتزل من جيشه قريب من ــ اثني عشر ألفاً ــ وهم الخوارج ،وأبوا أن يساكنوه في بلده، ونزلوا بمكان يقال له حروراء وأنكروا عليه أشياء فيما يزعمون أنه ارتكبها، فبعث إليهم علي رضي الله عنه عبد الله بن عباس فناظرهم فرجع أكثرهم وبقي بقيتهم، فقاتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه كما سيأتي بيانه وتفصيله قريباً إن شاء الله تعالى. والمقصود أن هؤلاء الخوارج هم المشار إليهم في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تمرق مارقة على حين فرقة من الناس ــ وفي رواية من المسلمين، وفي رواية من أمتي ــ فيقتلها أولى الطائفتين». وهذا الحديث له طرق متعددة وألفاظ كثيرة.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعفان بن القاسم بن الفضل عن أبي نضرة عن أبي سعيد.. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تمرق مارقة عند فرقة من

المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق». رواه مسلم عن شيبان بن فروخ عن القاسم بن محمد به. وقال أحمد: حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تكون أمتي فرقتين تخرج بينهما مارقة تلي قتلها أولاهما». ورواه مسلم من حديث قتادة وداود بن أبي هند عن أبي نضرة به. وقال أحمد: حدثنا ابن أبي عدي عن سليمان عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذكر قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس، سيماهم التحليق هم شر الخلق ـ أو من شر الخلق ـ يقتلهم أدنى الطائفتين من الحق» قال أبو سعيد: فأنتم قتلتموهم يا أهل العراق. وقال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تفترق أمتي فرقتين فتمرق بينهما مارقة فيقتلها أولى الطائفتين بالحق» ورواه عن يحيى القطان عن عوف وهو الأعرابي به مثله فهذه طرق متعددة عن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة العبدي، وهو أحد الثقات الرفعاء ورواه مسلم أيضاً من حديث سفيان الثورى عن حبيب بن أبي ثابت عن الضحاك المشرقي عن أبي سعيد بنحوه.

فهذا الحديث من دلائل النبوة إذ قد وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم باسلام الطائفتين أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام، من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن علياً هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن علي هو الامام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» وسيأتي بيان كيفية قتال علي رضي الله عنه للخوارج، وصفة المخدج الذي أخبر عنه عليه السلام فوجد كما أخبر ففرح بذلك علي رضي الله عنه وسجد للشكر.

■ **موقفه من قصة مقتل الحسين واتخاذ عاشوراء مأتماً:**

قال ابن كثير في تاريخه (٨:٢٠٢):

وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء النواصب من أهل الشام، فكانوا إلى يوم عاشوراء يطبخون الحبوب ويغتسلون ويتطيبون ويلبسون أفخر ثيابهم ويتخذون ذلك اليوم عيداً يصنعون فيه أنواع الأطعمة، ويظهرون السرور والفرح، يريدون بذلك عناد الروافض ومعاكستهم.

وقد تأول عليه من قتله أنه جاء ليفرق كلمة المسلمين بعد اجتماعها وليخلع من بايعه من الناس واجتمعوا عليه، وقد ورد في صحيح مسلم الحديث بالزجر عن ذلك، والتحذير منه، والتوعد عليه وبتقدير أن تكون طائفة من الجهلة قد تأوّلوا عليه وقتلوه ولم يكن لهم قتله، بل كان يجب عليهم إجابته إلى ما سأل من تلك الخصال الثلاثة المتقدم ذكرها، فإذا ذمت طائفة من الجبارين تذم الأمة كلها بكمالها وتتهم على نبيها صلى الله عليه وسلم، فليس الأمر كما ذهبوا إليه، ولا كما سلكوه، بل أكثر الأئمة قديماً وحديثاً كاره ما وقع من قتله وقتل أصحابه، سوى شرذمة قليلة من أهل الكوفة قبحهم الله، وأكثرهم كانوا قد كاتبوه ليتوصلوا به إلى أغراضهم ومقاصدهم الفاسدة.

ما هي؟

فلما علم ذلك ابن زياد منهم بلغهم ما يريدون من الدنيا وآخذهم على ذلك وحملهم عليه بالرغبة والرهبة، فانكفأوا عن الحسين وخذلوه ثم قتلوه. وليس كل ذلك الجيش كان راضياً بما وقع من قتله، بل ولا يزيد بن معاوية رضي بذلك والله أعلم، ولا كرهه، والذي يكاد يغلب على الظن أن يزيد لو قدر عليه قبل أن يقتل لعفا عنه كما أوصاه بذلك أبوه، وكما صرح هو به مخبراً عن نفسه بذلك. وقد لعن ابن زياد على فعله ذلك وشتمه فيما يظهر ويبدو، ولكن لم يعزله على ذلك ولا عاقبه ولا أرسل عليه ذلك والله أعلم.

فكل مسلم ينبغي له أن يحزنه قتله رضي الله عنه، فإنه من سادات المسلمين، وعلماء الصحابة وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي أفضل بناته، وقد كان عابداً وشجاعاً وسخياً، ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزع والحزن الذي لعل أكثره تصنع ورياء، وقد كان أبوه أفضل منه فقتل، وهم لا يتخذون مقتله مأتماً كيوم مقتل الحسين، فإن أباه قتل يوم الجمعة وهو خارج إلى

صلاة الفجر في السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وكذلك عثمان كان أفضل من علي عند أهل السنة والجماعة، وقد قتل وهو محصور في داره في أيام التشريق من شهر ذي الحجة سنة ست وثلاثين، وقد ذبح من الوريد إلى الوريد، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتماً، وكذلك عمر بن الخطاب وهو أفضل من عثمان وعلي، قتل وهو قائم يصلي في المحراب صلاة الفجر ويقرأ القرآن، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتماً، وكذلك الصديق كان أفضل منه ولم يتخذ الناس يوم وفاته مأتماً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، وقد قبضه الله إليه كما مات الأنبياء قبله، ولم يتخذ أحد يوم موتهم مأتماً يفعلون فيه ما يفعله هؤلاء الجهلة من الرافضة يوم مصرع الحسين. ولا ذكر أحد أنه ظهر يوم موتهم وقبلهم شيء مما ادعاه هؤلاء يوم مقتل الحسين من الأمور المتقدمة، مثل كسوف الشمس والحمرة التي تطلع في السماء وغير ذلك.

وأحسن ما يقال عند ذكر هذه المصائب وأمثالها ما رواه علي بن الحسين عن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من مسلم يصاب بمصيبة فيتذكرها وإن تقادم عهدها فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل يوم أصيب منها». رواه الإمام أحمد وابن ماجة.

وأما قبر الحسين رضي الله عنه

فقد اشتهر عند كثير من المتأخرين أنه في مشهد علي بمكان من الطف عند نهر كربلاء، فيقال إن ذلك المشهد مبني على قبره فالله أعلم. وقد ذكر ابن جرير وغيره أن موضع قتله عفى أثره حتى لم يطلع أحد على تعيينه بخبر. وقد كان أبو نعيم، الفضل بن دكين، ينكر على من يزعم أنه يعرف قبر الحسين. وذكر هشام ابن الكلبي أن الماء لما أجري على قبر الحسين ليمحي أثره نضب الماء بعد أربعين يوماً، فجاء أعرابي من بني أسد فجعل يأخذ قبضة قبضة ويشمها حتى وقع على قبر الحسين فبكى وقال: بأبي أنت وأمي، ما كان أطيبك وأطيب تربتك!! ثم أنشأ يقول:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه ... فطيب تراب القبر دلّ على القبر

وأما رأس الحسين رضي الله عنه

فالمشهور عند أهل التاريخ وأهل السير أنه بعث به ابن زياد إلى يزيد بن معاوية، ومن الناس من أنكر ذلك. وعندي أن الأول أشهر فالله أعلم. ثم اختلفوا بعد ذلك في المكان الذي دفن فيه الرأس، فروى محمد بن سعد أن يزيد بعث برأس الحسين إلى عمرو بن سعيد نائب المدينة فدفنه عند أمه بالبقيع، وذكر ابن أبي الدنيا من طريق عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن عمر بن صالح ــ وهما ضعيفان ــ أن الرأس لم يزل في خزانة يزيد بن معاوية حتى توفي فأخذ من خزانته فكفن ودفن داخل باب الفراديس من مدينة دمشق. قلت: ويعرف مكانه بمسجد الرأس اليوم داخل باب الفراديس الثاني. وذكر ابن عساكر في تاريخه في ترجمة ريًا حاضنة يزيد بن معاوية، أن يزيد حين وضع رأس الحسين بين يديه تمثل بشعر ابن الزبعرى يعني قوله:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل

قال: ثم نصبه بدمشق ثلاثة أيام ثم وضع في خزائن السلاح، حتى كان زمن سليمان بن عبد الملك جيء به إليه، وقد بقي عظماً أبيض، فكفنه وطيبه وصلى عليه ودفنه في مقبرة المسلمين، فلما جاءت المسوَّدة ــ يعني بنو العباس ــ نبشوه وأخذوه معهم. وذكر ابن عساكر أن هذه المرأة بقيت بعد دولة بني أمية، وقد جاوزت المائة سنة فالله أعلم وادعت الطائفة المسمون بالفاطميين الذين ملكوا الديار المصرية قبل سنة أربعمائة إلى ما بعد سنة ستين وستمائة، أن رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور به بمصر، الذي يقال له تاج الحسين، بعد سنة خمسمائة. وقد نص غير واحد من أئمة أهل العلم على أنه لا أصل لذلك، وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك بطلان ما ادعوه من النسب الشريف، وهم في ذلك كذبة خونة، وقد نص على ذلك القاضي الباقلاني وغير واحد من أئمة العلماء، في دولتهم سنة أربعمائة، كما سنبين ذلك كله إذا انتهينا إليه في مواضعه إن شاء الله تعالى. قلت: والناس أكثرهم يروج عليهم مثل هذا، فانهم جاؤا برأس فوضعوه في مكان هذا المسجد المذكور، وقالوا: هذا رأس

الحسين، فراج ذلك عليهم واعتقدوا ذلك والله أعلم.

■ رأيه في المختار، ونقده للطبري في شأنه:

ذكر ابن كثير في تاريخه (٨:٢٨٩) أن مصعب بن الزبير قد جاء إليه رجلان شقيقان أخوان هما طرفة وطراف ابنا عبد الله بن دجاجة برأس المختار الثقفي ووضعاه بين يديه، فأمر لهما بثلاثين ألفاً.

وقد جاء في البداية (٨:٢٧٤):

وسيأتي في ترجمة المختار ما يدل على كذبه وافترائه، وادعائه نصرة أهل البيت، وهو في نفس الأمر متستر بذلك ليجمع عليه رعاعاً من الشيعة الذين بالكوفة. ليقيم لهم دولة ويصول بهم ويجول على مخالفيه صولة.

ثم إن الله تعالى سلط عليه من انتقم منه، وهذا هو الكذاب الذي قال فيه الرسول في حديث أسماء بنت الصديق: «إنه سيكون في ثقيف كذاب ومبير». فهذا هو الكذاب وهو يظهر التشيع وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد ولي الكوفى من جهة عبد الملك بن مروان كما سيأتي، وكان الحجاج عكس هذا، كان ناصبياً جلداً ظالماً غاشماً، ولكن لم يكن في طبقة هذا، متهم على دين الاسلام ودعوة النبوة، وأنه يأتيه الوحي من العلي العلام.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة بعث المختار المثنى بن مخرمة العبدي إلى البصرة يدعو إليه من استطاع من أهلها، فدخلها وابتنى بها مسجداً يجتمع فيه إليه قومه، فجعل يدعو إلى المختار، ثم أتى مدينة الورق فعسكر عندها فبعث إليه الحارث بن عبد الله بن ربيعة القباع ــ وهو أمير البصرة قبل أن يعزل بمصعب ــ جيشاً مع عباد بن الحصين أمير الشرطة، وقيس بن الهيثم. فقاتلوه وأخذوا منه المدينة وانهزم أصحابه، وكان قد قام بنصرتهم بنو عبد القيس. فبعث إليهم الجيش فبعثوا إليه فأرسل الأحنف بن قيس وعَمرو بن عبد الرحمن المخزومي ليصلحا بين الناس، وساعدهما مالك بن مسمع، فانحجز الناس بعضهم عن بعض، ورجع إلى المختار في نفر يسير مغلولاً مغلوباً مسلوباً، وأخبر المختار بما وقع من الصلح على يدي الأحنف

وغيره من أولئك الأمراء، وطمع المختار فيهم وكاتبهم في أن يدخلوا معه فيما هو فيه من الأمر، وكان كتابه إلى الأحنف بن قيس: من المختار إلى الأحنف بن قيس ومن قبله من الأمراء: أفسلم أنتم أما بعد فويل لبني ربيعة من مضر، وأن الأحنف يورد قومه سقر، حيث لا يستطيع لهم صدر، وإني لا أملك لكم ما قد خط في القدر، وقد بلغني أنكم سميتموني الكذاب، وقد كذب الأنبياء من قبلي ولست بخير منهم.

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب سلم بن جنادة حدثنا الحسن بن حماد عن حماد بن علي عن مجالد عن الشعبي، قال: دخلت البصرة فقعدت إلى حلقة فيها الأحنف بن قيس، فقال بعض القوم: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل الكوفة، فقال: أنتم موال لنا، قلت: وكيف؟ قال: أنقذناكم من أيدي عبيدكم من أصحاب المختار، قلت: أتدري ما قال شيخ من همدان فينا وفيكم؟ فقال الأحنف: وما قال؟ قلت: قال:

أفخرتم ان قتلتم أعبداً ... وهزمتم مرة آل عدل
فاذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه ... وفتى البيضاء وضاحاً دقل
جاءنا يهدج في سابغة ... فذبحناه ضحى ذبح الجمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل
وقتلتم بحسين منهم ... بدلاً من قومكم شر بدل

قال: فغضب الأحنف وقال: يا غلام هات الصحيفة، فأتى بصحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس، أما بعد فويل لبني ربيعة من مضر فإن الأحنف يورد قومه سقر حيث لا يقدرون على الصدر، وقد بلغني أنكم تكذبوني، فان كذبت فقد كذبت رسل من قبلي، ولست بخير منهم، ثم قال الأحنف: هذا منا أو منكم.

■ **تحقيقه مسألة تشيع الطبري:**

جاء في تاريخ ابن كثير (١١:١٤٦):

وقد كانت وفاته وقت المغرب عشية يوم الأحد ليومين بقيا من شوال من سنة عشر وثلثمائة. وقد جاوز الثمانين بخمس سنين أو ست سنين، وفي شعر رأسه ولحيته سواد كثير، ودفن في داره لأن بعض عوام الحنابلة ورعاعهم منعوا من دفنه نهاراً ونسبوه إلى الرفض، ومن الجهلة من رماه بالالحاد، وحاشاه من ذلك كله. بل كان أحد أئمة الاسلام علماً وعملاً بكتاب الله وسنة رسوله، وإنما تقلدوا ذلك عن أبي بكر محمد بن داود الفقيه الظاهري، حيث كان يتكلم فيه ويرميه بالعظائم وبالرفض. ولما توفي اجتمع الناس من سائر أقطار بغداد وصلوا عليه بداره ودفن بها، ومكث الناس يترددون إلى قبره شهوراً يصلون عليه، وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين، وكتاباً جمع فيه طريق الطير. ونسب إليه أنه كان يقول بجواز مسح القدمين في الوضوء وأنه لا يوجب غسلهما، وقد اشتهر عنه هذا. فمن العلماء من يزعم أن ابن جرير اثنان أحدهما شيعي وإليه ينسب ذلك، وينزهون أبا جعفر هذا عن هذه الصفات. والذي عول عليه كلامه في التفسير أنه يوجب غسل القدمين ويوجب مع الغسل دلكهما، ولكنه عبر عن الدلك بالمسح، فلم يفهم كثير من الناس مراده، ومن فهم مراده نقلوا عنه أنه يوجب الغسل والمسح وهو الدلك والله أعلم. وقد رثاه جماعة من أهل العلم منهم ابن الأعرابي حيث يقول:

حدث مفظع وخطب جليل ... دق عن مثله اصطبار الصبور
قام ناعي العلوم اجمع لما ... قام ناعي محمد بن جرير
فهوت أنجم لها زاهرات ... مؤذنات رسومها بالدثور
وتغشى ضياها النير الإشـ ... ـراق ثوب الدجنة الديجور
وغدا روضها الأنيق هشيماً ... ثم عادت سهولها كالوعور
يا أبا جعفر مضيت حميداً ... غير وان في الجد والتشمير
بين أجر على اجتهادك موفو ... رو سعي إلى التقى مشكور
مستحقاً به الخلود لدى جنـ ... ـة عدن في غبطة وسرور

ولأبي بكر بن دريد رحمه الله فيه مرثاة طويلة، وقد أوردها الخطيب البغدادي بتمامها، والله سبحانه أعلم.

■ رأيه في الحلاج:

قال ابن كثير في البداية (١١:١٣٥) بعد أن أورد ترجمة للحلاج ومختارات من شعره قال أبو عبد الرحمن السلمي عن عمرو بن عثمان المكي: أنه قال: كنت أماشي الحلاج في بعض أزقة مكة وكنت أقرأ القرآن فسمع قراءتي فقال: يمكنني أن أقول مثل هذا، ففارقته. قال الخطيب: وحدثني مسعود بن ناصر أنبأنا ابن باكرالشيرازي سمعت أبا زرعة الطبري يقول: الناس فيه ــ يعني حسين بن منصور الحلاج ــ بين قبول ورد ولكن سمعت محمد بن يحيى الرازي يقول: سمعت عمرو بن عثمان يلعنه ويقول: لو قدرت عليه لقتلته بيدي. فقلت له: إيش الذي وجد الشيخ عليه؟ قال قرأت آية من كتاب الله فقال: يمكنني أن أؤلف مثله وأتكلم به. قال أبو زرعة الطبري: وسمعت أبا يعقوب الأقطع يقول: زوجت ابنتي من الحسين الحلاج لما رأيت من حسن طريقته واجتهاده، فبان لي منه بعد مدة يسيرة أنه ساحر محتال، خبيث كافر. قلت: كان تزويجه إياها بمكة، وهي أم الحسين بنت أبي يعقوب الأقطع فأولدها ولده أحمد بن الحسين بن منصور، وقد ذكر سيرة أبيه كما ساقها من طريق الخطيب. وذكر أبو القاسم القشيري في رسالته في باب حفظ قلوب المشايخ: أن عمرو بن عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئاً في أوراق فقال له: ما هذا؟ فقال: هوذا أعارض القرآن. قال: فدعا عليه فلم يفلح بعدها، وأنكر على أبي يعقوب الأقطع تزويجه إياه ابنته. وكتب عمرو بن عثمان إلى الآفاق كتباً كثيرة يلعنه فيها ويحذر الناس منه، فشرد الحلاج في البلاد فعاث يميناً وشمالاً، وجعل يظهر أنه يدعو إلى الله ويستعين بأنواع من الحيل، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحل الله به بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقتله بسيف الشرع الذي لا يقع إلا بين كتفي زنديق، والله أعدل من أن يسلطه على صديق، كيف وقد تهجم على القرآن العظيم، وقد أراد معارضته في البلد الحرام حيث نزل به جبريل، وقد قال تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ [الحج: ٢٥] ولا الحاد أعظم من هذا. وقد أشبه الحلاج كفار قريش في معاندتهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ [الأنفال: ٣١].

■ رأيه في القرامطة:

قال ابن كثير في تاريخه (١١: ١٦٢):

وأما هؤلاء القرامطة فإنما فعلوا بعد تقرير الشرائع وتمهيد القواعد، والعلم بالضرورة من دين الله بشرف مكة والكعبة، وكل مؤمن يعلم أن هؤلاء قد ألحدوا في الحرم إلحاداً بالغاً عظيماً، وأنهم من أعظم الملحدين الكافرين، بما تبين من كتاب الله وسنة رسوله، فلهذا لم يحتج الحال إلى معاجلتهم بالعقوبة، بل أخرهم الرب تعالى ليوم تشخص فيه الأ بصار، والله سبحانه يمهل ويملي ويستدرج ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ قوله تعالى﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأ بصار﴾ [ابراهيم: ٤٢] وقال ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ۞ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧] وقال: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ [لقمان: ٢٤] وقال: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ [يونس: ٧٠].

■ نقده للخطيب البغدادي في شأن التنجيم:

جاء في البداية (١٠: ٩٨):

أن المنصور ناقص أحد المهندسين الذي بنى له بيتاً حسناً في قصر الامارة فنقصه درهماً عما ساومه، وأنه حاسب بعض المستحثين على الذي كان عنده ففضل عنده خمسة عشر درهماً فحبسه حتى جاء بها وأحضرها وكان شحيحاً. قال الخطيب: وبناها مدورة، ولا يعرف في أقطار الأ رض مدينة مدورة سواها، ووضع أساسها في وقت اختاره له نوبخت المنجم. ثم ذكر عن بعض المنجمين قال قال لي المنصور لما فرغ من بناء بغداد: خذ الطالع لها، فنظرت في طالعها ــ وكان المشتري في القوس ــ فأخبرته بما تدل عليه النجوم، من طول زمانها، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا إليها وفقر الناس إلى ما فيها. قال: ثم قلت له: وأبشرك يا أمير المؤمنين أنه لا يموت فيها أحد من الخلفاء أبداً. قال: فرأيته يبتسم ثم قال:

الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وذكر عن بعض الشعراء أنه قال في ذلك شعراً منه:

قضى ربُّها أن لا يموتَ خَليفةٌ بها إنَّهُ ما شاء في خلقه يقضي

وقد قرره على هذا الخطأ الخطيب وسلم ذلك ولم ينقضه بشيء بل قرره مع اطلاعه ومعرفته.

■ رأيه في الخطيب البغدادي:

جاء في ترجمة ابن بطة أحد علماء الحنابلة من البداية والنهاية (١١:٣٢٢):

وقد تصدى الخطيب البغدادي للكلام في ابن بطة والطعن عليه وفيه بسبب بعض الجرح في ابن بطة الذي أسنده إلى شيخه عبد الواحد بن علي الأسدي المعروف بابن برهان اللغوي، فانتدب ابن الجوزي للرد على الخطيب والطعن عليه أيضاً بسبب بعض مشايخه والانتصار لابن بطة، فحكى عن أبي الوفا بن عقيل أن ابن برهان كان يرى مذهب مرجئة المعتزلة، في أن الكفار لا يخلدون في النار، وإنما قالوا ذلك لأن دوام ذلك إنما هو للتشفي ولا معنى له هنا مع أنه قد وصف نفسه بأنه غفور رحيم، وأنه أرحم الراحمين. ثم شرع ابن عقيل يرد على ابن برهان. قال ابن الجوزي: فكيف يقبل الجرح من مثل هذا؟! ثم روى ابن الجوزي بسنده عن ابن بطة أنه سمع المعجم من البغوي، قال: والمثبت مقدم على النافي. قال الخطيب: وحدثني عبد الواحد بن برهان قال: حدثنا محمد بن أبي الفوارس روى عن ابن بطة عن البغوي عن أبي مصعب عن مالك عن الزهري عن أنس. قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». قال الخطيب: وهذا باطل من حديث مالك، والحمل فيه على ابن بطة. قال ابن الجوزي: والجواب عن هذا من وجهين: أحدهما أنه وجد بخط ابن برهان: ما حكاه الخطيب في القدح في ابن بطة وهو شيخي أخذت عنه العلم في البداية، الثاني أن ابن برهان قد تقدم القدح فيه بما خالف فيه الاجماع، فكيف قبلت القول في رجل قد حكيت عن مشايخ العلماء أنه رجل صالح مجاب الدعوة، نعوذ بالله من الهوى.

■ إنكاره بدع مدفن السيدة نفيسة:

جاء في البداية في ترجمة السيدة نفيسة (١٠:٢٦٢):

وهي نفيسة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، القرشية الهاشمية، كان أبوها نائباً للمنصور على المدينة النبوية خمس سنين، ثم غضب المنصور عليه فعزله عنها وأخذ منه كل ما كان يملكه وما كان جمعه منها، وأودعه السجن ببغداد. فلم يزل به حتى توفي المنصور فأطلقه المهدي وأطلق له كل ما كان أخذ منه، وخرج معه إلى الحج في سنة ثمان وستين ومائة، فلما كان بالحاجر توفي عن خمس وثمانين سنة. وقد روى له النسائي حديثه عن عكرمة عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم». وقد ضعفه ابن معين وابن عدي، ووثقه ابن حبان. وذكره الزبير بن بكار وأثنى عليه في رياسته وشهامته. والمقصود أن ابنته نفيسة دخلت الديار المصرية مع زوجها المؤتمن إسحاق بن جعفر، فأقامت بها وكانت ذات مال فأحسنت إلى الناس والجذمى والزمنى والمرضى وعموم الناس، وكانت عابدة زاهدة كثيرة الخير. ولما ورد الشافعي مصر أحسنت إليه وكان ربما صلى بها في شهر رمضان. وحين مات أمرت بجنازته فأدخلت إليها المنزل فصلت عليه. ولما توفيت عزم زوجها إسحاق بن جعفر أن ينقلها إلى المدينة النبوية فمنعه أهل مصر من ذلك وسألوه أن يدفنها عندهم، فدفنت في المنزل الذي كانت تسكنه بمحلة كانت تعرف قديماً بدرب السباع بين مصر والقاهرة، وكانت وفاتها في شهر رمضان من هذه السنة فيما ذكره ابن خلكان. قال: ولأهل مصر فيها اعتقاد. قلت: وإلى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً جداً، ولاسيما عوام مصر فإنهم يطلقون فيها عبارات شنيعة مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك، وألفاظاً كثيرة ينبغي أن يعرفوا أنها لا تجوز. وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين وليست من سلالته. والذي ينبغي أن يعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسوية القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرام. ومن زعم أنها تفك من الخشب أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله فهو مشرك. رحمها الله وأكرمها.

▪ رأيه ورؤياه في ابن حزم:

جاء في البداية (١٤: ٢٩١):

وريت ــ يعني المصنف ــ في ليلة الإثنين الثاني والعشرين من المحرم سنة ثلاث وستين وسبعمائة الشيخ محي الدين النواوي رحمه الله فقلت له: يا سيدي الشيخ لم لا أدخلت في شرحك المهذب شيئاً من مصنفات ابن حزم؟ فقال ما معناه: إنه لا يحبه، فقلت له: أنت معذور فيه فإنه جمع بين طرفي النقيضين في أصوله وفروعه، أما هو في الفروع فظاهري جامد يابس، وفي الأصول تول مائع قرمطة القرامطة وهرمس الهرامسة، ورفعت بها صوتي حتى سمعت وأنا نائم، ثم أشرت له إلى أرض خضراء تشبه النخيل بل هي أردأ شكلاً منه، لا ينتفع بها في استغلال ولا رعي، فقلت له: هذه أرض ابن حزم التي زرعها [قال]: انظر هل ترى فيها شجراً مثمراً أو شيئاً ينتفع به، فقلت إنما تصلح للجلوس عليها في ضوء القمر. فهذا حاصل ما رأيته، ووقع في خلدي أن ابن جزم كان حاضرنا عندما أشرت للشيخ محيي الدين إلى الأرض المنسوبة لابن حزم، وهو ساكت لا يتكلم.

▪ نقده رثاء أمية بن أبي الصلت لقتلى بدر:

قال ابن كثير في البداية (٣: ٢٤٢):

قال ابن إسحاق وقال أمية بن أبي الصلت يرثي من قتل من قريش يوم بدر:

ألاّ بكيتِ على الكرا	م بني الكرام أولي الممادح
كَبُكا الحمام على فرو	ع الأيك في الغُصن الجوانح
يبكين حراً مستكيـ	ـنات يَرُحْن مع الروائح
أمثالُهنّ الباكيا	تُ المعولاتُ من النوائح
مَن يبكِهم يبكي على	حُزْن ويصدُق كل مادح
ماذا ببدر والعَقْنـ	ـقَلِ من مَرازبةٍ جحاجح
فمدافع البرقين فالـ	ـحنّان من طرَفِ الأواشح
شُمْط وشبانٌ بها	ليلٌ مغاويرٌ وحاوح

ألاّ ترون لِمَا أرى … ولقد أبان لكل لامح
أنْ قد تغيّر بطنُ مكـ … ـة فهي موحشةُ الأ باطح
من كل بِطريقٍ لبطـ … ـريقٍ نقي الودّ واضح
دُغْموصِ أبوابِ الملو … كِ وجائبٍ للخرق فاتح
ومن السّراطمة الخلا … جمة الملاوثة المناجح
القائلينَ الفاعلـ … ـينَ الآمرينَ بكل صالح
المطعمينَ الشحمَ فو … قَ الخبز شحماً كالانافح
نُقْلُ الجفانِ مع الجفا … نِ إلى جفانٍ كالمناضح
ليست بأصفارٍ لمن … يعفو ولاَ رحٍّ رحارح
للضيق ثم الضيف بعـ … ـد الضيف والبُسُط السلاطح
وُهُبَ المئينَ من المئـ … ـينِ إلى المئين من اللواقح
سوق المؤبّل للمؤبـ … ـل صادرات عن بلادح
لِكرامهم فوق الكرا … م مزيةٌ وَزْن الرواجح
كمثاقل الارطال بالـ … ـقسطاس بالايدي الموائح
خذلَتْهموا فئة وهم … يحمون عورات الفضائح
الضاربين التقدمـ … ـيَّة بالمهنّدة الصفائح
ولقد عناني صوتُهم … من بين مستسقٍ وصائح
لله درّ بني عـ … ـلي أيمٍّ منهم وناكح
إن لم يُغيروا غارة … شعواء تحجُر كل نابح
بالمقربات المبعِدا … تِ الطامحات مع الطوامح
مُرداً على جُردٍ إلى … أسْدٍ مكالبةٍ كوالح
ويلاقِ قِرن قِرنَه … مَثْني المُصافح للمصافح
بزهاء ألف ثم ألـ … ـف بين ذي بدن ورامح

قال ابن هشام: تركنا منها بيتين نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: هذا شعر المخذول المعكوس المنكوس الذي حمله كثرة جهله وقلة عقله.

على أن مدح المشركين وذم المؤمنين واستوحش بمكة من أبي جهل بن هشام وأضرابه من الكفرة اللئام والجهلة الطغام ولم يستوحش بها من عبد الله ورسوله وحبيبه وخليله فخر البشر ومن وجهه أنور من القمر ذي العلم الأكمل والعقل الأشمل ومن صاحبه الصديق المبادر إلى التصديق والسابق إلى الخيرات وفعل المكرمات وبذل الألوف والمئات في طاعة رب الأرض والسموات، وكذلك بقية أصحابه الغر الكرام الذين هاجروا من دار الكفر والجهل إلى دار العلم والإسلام رضي الله عن جميعهم ما اختلط الضياء والظلام. وما تعاقبت الليالي والأيام.

■ تحقيقه في مَنْ ولي تزويج أم سلمة:

قال ابن كثير في تاريخه (٤:٩٠) في حوادث سنة أربع من الهجرة: فيه توفي أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومي، وأمه بَرَّة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

وكان رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتضعا من ثويبة مولاة أبي لهب. وكان إسلام أبي سلمة وأبي عبيدة وعثمان بن عفان والأرقم بن أبي الأرقم قديماً في يوم واحد، وقد هاجر هو وزوجته أم سلمة إلى أرض الحبشة ثم عاد إلى مكة وقد ولد لهما بالحبشة أولاد، ثم هاجر من مكة إلى المدينة وتبعته أم سلمة إلى المدينة كما تقدم، وشهد بدراً وأحداً ومات من آثار جرح جُرحه بأحد رضي الله عنه وأرضاه، له حديث واحد في الاسترجاع عند المصيبة سيأتي في سياق تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم سلمة قريباً. قال ابن جرير: وفي ليال خلون من شعبان منها ولد الحسين بن علي من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنهم. قال وفي شهر رمضان من هذه السنة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية. وقد حكى أبوعمربن عبد البرعن علي بن عبد العزيز الجرجاني أنه قال: كانت أخت ميمونة بنت الحارث. ثم استغربه وقال لم أره لغيره. وهي التي يقال لها أم المساكين لكثرة صدقاتها عليهم وبرها لهم وإحسانها إليهم. وأصدقها ثنتي عشرة أوقية ونشا ودخل بها في رمضان وكانت قبله

عند الطفيل بن الحارث فطلقها. قال أبو عمر بن عبد البر عن علي بن عبد العزيز الجرجاني: ثم خلف عليها أخوه عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف. قال ابن الأثير في أسد الغابة: وقيل كانت تحت عبد الله بن جحش فقتل عنها يوم أحد. قال أبو عمر: ولا خلاف أنها ماتت في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة حتى توفيت رضي الله عنها. وقال الواقدي في شوال من هذه السنة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بنت أبي أمية. قلت: وكانت قبله عند زوجها أبي أولادها أبي سلمة بن عبد الأسد وقد كان شهد أحداً كما تقدم، وجرح يوم أحد فداوى جرحه شهراً حتى برىء، ثم خرج في سرية فغنم منها نعماً ومغنماً جيداً، ثم أقام بعد ذلك سبعة عشر يوماً ثم انتقض عليه جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى من هذه السنة، فلما حلت في شوال خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نفسها بنفسه الكريمة وبعث إليها عمر بن الخطاب في ذلك مراراً فتذكر أنها امرأة غيرى أي شديدة الغيرة وأنها مصبية أي لها صبيان يشغلونها عنه ويحتاجون إلى مؤنة تحتاج معها أن تعمل لهم في قوتهم، فقال: أما الصبية فإلى الله وإلى رسوله أي نفقتهم ليس إليك، وأما الغيرة فادعو الله فيذهبها، فأذنت في ذلك وقالت لعمر آخر ما قالت له: قم فزوّج النبي صلى الله عليه وسلم تعني قد رضيت وأذنت. فتوهم بعض العلماء أنها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان إذ ذاك صغيراً لا يلي مثله العقد، وقد جمعت في ذلك جزءاً مفرداً بينت فيه الصواب في ذلك ولله الحمد والمنة. وأن الذي ولي عقدها عليه ابنها سلمة بن أبي سلمة وهو أكبر ولدها وساغ هذا لأن أباه ابن عمها فللابن ولاية أمه إذا كان سبباً لها من غير جهة البنوة بالإجماع. وكذا إذا كان معتقاً أو حاكماً، فأما محض البنوة فلا يلي بها عقد النكاح عند الشافعي وحده وخالفه الثلاثة أبو حنيفة ومالك وأحمد رحمهم الله. ولبسط هذا موضع آخر يذكر فيه وهو كتاب النكاح من الأحكام الكبير إن شاء الله.

قال الإمام أحمد: حدثنا يونس حدثنا ليث يعني ابن سعد عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لقد سمعت

من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً سررت به، قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا فعل به». قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منهُ، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم آجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها. ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن عليّ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وأنا أدبغ إهاباً لي فغسلت يدي من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال. فقال: أما ما ذكرت من الغيرة فسيذهبها الله عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي، فقالت: فقد سلمتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد روله الترمذي والنسائي من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عمر بن أبي سلمة عن أمه أم سلمة عن أبي سلمة به. وقال الترمذي حسن غريب. وفي رواية للنسائي عن ثابت عن ابن عمر بن أبي سلمة عن أبيه. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون عن عبد الملك بن قدامة الجمحي عن أبيه عن عمر ابن أبي سلمة به.

■ تحقيقه حكم الهجرة بعد الفتح:

بعد أن أورد ابن كثير هذا الحديث من مختلف طرقه قال في تاريخه (٤:٣٢٠):

وهذه الأحاديث والآثار دالة على أن الهجرة إما الكاملة أو مطلقاً قد انقطعت بعد فتح مكة لأن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وظهر الإسلام وثبتت أركانه ودعائمه فلم تبق هجرة اللهم إلا أن يعرض حال يقتضي الهجرة بسبب مجاورة أهل الحرب وعدم القدرة على إظهار الدين عندهم فتجب الهجرة إلى دار الإسلام وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ولكن هذه الهجرة ليست كالهجرة قبل الفتح، كما أن

كلاً من الجهاد والانفاق في سبيل الله مشروع ورغب فيه إلى يوم القيامة وليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل الفتح فتح مكة. قال الله تعالى﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾ الآية.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي البختري الطائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما نزلت هذه السورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ [النصر: ١] قرأها رسول الله حتى ختمها وقال: «الناس حيِّز وأنا وأصحابي حيِّز» وقال «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» فقال له مروان كذبت، وعنده. رافع بن خديج وزيد بن ثابت قاعدان معه على السرير، فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدثاك ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة، فرفع مروان عليه الدرة ليضربه فلما رأيا ذلك. قالا: صدق. تفرد به أحمد.

وقال البخاري حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأنّ بعضهم وجد في نفسه فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه أدخلني فيهم يومئذ إلا ليريهم، فقال ما تقولون في قول الله عز وجل﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت لا، فقال ما تقول؟ فقلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له قال﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾فذلك علامة أجلكَ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾[النصر: ٣] قال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما يقول. تفرد به البخاري وهكذا روي من غير وجه عن ابن عباس أنه فسر ذلك بنعي رسول الله صلى الله عليه وسلم في أجله، وبه قال مجاهد وأبو العالية والضحاك وغير واحد كما قال ابن عباس وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

فأما الحديث الذي قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن فضيل حدثنا عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما: نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعيت إلي نفسي» بأنه مقبوض في تلك السنة تفرد به الإمام أحمد وفي إسناده عطاء بن أبي مسلم الخراساني وفيه ضعف تكلم فيه غير واحد من الأئمة وفي لفظه نكارة شديدة وهو قوله بأنه مقبوض في تلك السنة، وهذا باطل فإن الفتح كان في سنة ثمان في رمضان منها كما تقدم بيانه وهذا ما لا خلاف فيه. وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول من سنة إحدى عشرة بلا خلاف أيضاً، وهكذا الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني رحمه الله حدثنا إبراهيم بن أحمد بن عمر الوكيعي حدثنا أبي حدثنا جعفر بن عون عن أبي العُمَيس عن سورة نزلت من القرآن جميعاً ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾. فيه نكارة أيضاً وفي إسناده نظر أيضاً ويحتمل أن يكون أنها آخر سورة نزلت جميعها كما قال والله أعلم. وقد تكلمنا على تفسير هذه السورة الكريمة بما فيه كفاية ولله الحمد والمنة.

وقال البخاري حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن عمرو بن سلمة ــ قال لي أبو قلابة: ألا تلقاه فنسأله فلقيته فسألته ــ قال كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون يزعم أن الله أرسله وأوحى إليه كذا. فكنت أحفظ ذاك الكلام فكأنما يغرى في صدري، وكانت العرب تلوّم باسلامهم الفتح فيقولون اتركوه وقومه فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم باسلامهم، وبدر أبي قومي باسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي حقاً. قال صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآناً فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين، وكانت علي بردة إذا سجدت تقلصت عني، فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا است قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصاً فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص. تفرد به البخاري دون مسلم.

■ رأيه في الإسرائيليات:

عقد ابن كثير فصلاً ممتعاً في البداية (٢:١٣٢-١٣٤)، باب بيان الإذن في الرواية عن أخبار بني إسرائيل:

قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا همام حدثنا زيد عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال، قال (حدثوا عني ولا تكذبوا عليَّ ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج). وقال أيضاً حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال، قال (لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه، وقال حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج حدثوا عني ولا تكذبوا عليَّ قال ومن كذب عليَّ قال همام احسبه قال متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) وهكذا رواه مسلم والنسائي من حديث همام ورواه أبو عوانة الاسفراييني عن أبي داود السجستاني عن هدبة عن همام عن زيد بن أسلم به ثم قال، قال أبو داود أخطأ فيه همام وهو من قول أبي سعيد كذا قال وقد رواه الترمذي عن سفيان عن وكيع عن سفيان بن عيينة عن زيد بن أسلم ببعضه مرفوعاً فالله أعلم.

قال الإمام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم أنبأنا الأوزاعي حدثنا حسان ابن عطية حدثني أبو كبشة السلولي أن عبد الله بن عمرو بن العاص حدثه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني يقول بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار.

ورواه أحمد أيضاً عن عبد الله بن نمير وعبد الرزاق كلاهما عن الأوزاعي به وهكذا رواه البخاري عن أبي عاصم النبيل عن الأوزاعي به وكذا رواه الترمذي عن بندار عن أبي عاصم ثم رواه عن محمد بن يحيى الذهلي عن محمد بن يوسف العرياني عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن حسان بن عطية وقال حسن صحيح.

وقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى أبو موسى حدثنا هشام بن معاوية

حدثنا أبي عن قتادة عن أبي حسان عن عبد الله بن عمرو قال كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عامة ليله عن بني إسرائيل حتى نصبح ما نقوم فيها إلا لمعظم صلاة ورواه أبو داود عن محمد بن مثنى ثم قال البزار حدثنا محمد بن مثنى حدثنا عفان حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أبي حسان عن عمران بن حسين قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عامة ليلة عن بين اسرائيل لا يقوم إلا لمعظم صلاة قال البزار وهشام احفظ من أبي هلال يعني أن الصواب عن عبد الله بن عمرو لا عن عمران بن حصين والله أعلم.

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى هو القطان عن محمد بن عمرو وحدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج إسناد صحيح ولم يخرجوه.

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا وكيع حدثنا ربيع بن سعد الجعفي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثوا عن بني إسرائيل فإنه قد كان فيهم الأعاجيب ثم أنشأ يحدث صلى الله عليه وسلم قال خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم فقالوا لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل فيخرج لنا رجلاً قد مات نسائله يحدثنا عن الموت ففعلوا فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك القبور بين عينيه أثر السجود فقال يا هؤلاء ما أردتم إليّ فقد مت منذ مائة عام فما سكنت عني حرارة الموت حتى الآن فادعوا الله أن يعيدني كما كنت.

وهذا حديث غريب إذا تقرر جواز الرواية عنهم فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحاً فأما ما يعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بايدينا عن المعصوم فذاك متروك مردود لا يعرج عليه ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته لما رواه البخاري قائلاً حدثنا محمد بن يسار حدثنا عثمان بن عمر حدثنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا

وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وروى الإمام أحمد من طريق الزهري عن أبي نملة الأنصاري عن أبيه أنه كان جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا جاء رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أعلم فقال اليهودي أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فإن كان حقاً لم تكذبوهم وإن كان باطلاً لم تصدقوهم» تفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد حدثنا سُرَيج بن النعمان حدثنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم قال فغضب وقال أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم به بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني. تفرد به أحمد وإسناده على شرط مسلم..

فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ولا سيما ما يبدونه من المعربات التي لم يحيطوا بها علماً وهي بلغتهم فكيف يعبرون عنها بغيرها ولأجل هذا وقع في تعريبهم خطأ كبير ووهم كثير مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة وهذا يتحققه من نظر في كتبهم التي بأيديهم وتأمل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التبديل والتغيير وبالله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير.

وهذه التوراة التي يبدونها ويخفون منها كثيراً فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب باطلة من حيث معناها وألفاظها.

وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم وقد أسلم في زمن عمر وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب فكان عمر رضي الله عنه يستحسن

بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق وتأليفاً لقلبه فتوسع كثير من الناس في أخذ ما عنده وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما يساوي مداده. ومنها ما هو باطل لا محالة. ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذي بأيدينا.

وقد قال البخاري وقال أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة. وذُكر كعب الأحبار فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب يعني من غير قصد منه.

وروى البخاري من حديث الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أنه قال: كيف يسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يُشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم.

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل والله أعلم.

* ابن كثير الحافظ المحدث:

بالمفهوم الذي نشأ عن منذ القرن الرابع بإجازة رواية الحديث من الكتب من غير لقاء رجاله فإن ابن كثير يعد أحد رواة الحديث من الحفاظ والمحدثين، وقد ذكره السيوطي في طبقات الحفاظ، في الطبقة الثالثة والعشرين، ووصفه الحسيني في كتابه «الذيل على تذكرة الحفاظ» ص (٤٩-٥٠) في الطبقة الرابعة والعشرين من الحفاظ.

وقد غلب طابع التحديث على ابن كثير، نرى ذلك في مصنفاته الكثيرة التي خصصها لخدمة الحديث النبوي، والتي اشتملت على موسوعة تفسيرية، وحديثية، وتاريخية، فلنستعرضها بالتفصيل.

مصنفاته

أ ـ المصنفات المطبوعة والمخطوطة

١ ـ تفسير القرآن العظيم:

يعتبر تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير وأجودها وأدقها، وقد حرص الحافظ ابن كثير على أن يفسر القرآن بالقرآن أولاً، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ثم بالنسبة الصحيحة التي هي بيان لكتاب الله، ثم يذكر كثيراً من أقوال السلف في تفسير الآي.

وقد حرص أشدّ الحرص على ذكر الأحاديث بأسانيدها، وكثيراً ما يذكر تعليل الضعيف منها، لكنه يحرص أشدّ الحرص على أن يذكر الأحاديث الصحاح، فصار تفسيراً تعليمياً عظيماً، ونفعه جليل.

٢ ـ فضائل القرآن:

وقد ألحق بتفسير القرآن، تناول فيه تاريخ القرآن، وجمعه، وكتابه، ولغته، والأحرف وكيفية الترتيل، وقد سار فيه على منوال ما ذكره البخاري عقب كتاب التفسير في كتاب فضائل القرآن؛ ولذا يسمى: «فضائل القرآن وتاريخ جمعه وكتابته ولغاته»، ذكره في «تاريخ الأدب» الذيل (٢:٤٩).

٣ ـ التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل:

وقد جمع فيه بين كتاب التهذيب والميزان.

قال ابن العماد في الشذرات (٦:٢٣١): «اختصر تهذيب الكمال، وأضاف إليه ما تأخر في الميزان، سماه التكميل...».

وأضاف إليه زيادات في الجرح والتعديل.

ويعتبر التكميل مقدمة لكتابنا «جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن» كما قال ابن كثير في مقدمة التكميل.

وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١:٤٧١)، والبغدادي في هدية العارفين (١:٢٥١) بإسم «التكملة في أسماء الثقات والضعفاء».

ونسخته الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٤٢٢٧) ب في مجلدين، قد اطلعت عليها، وهي مصورة (بالفوتوستات) عن نسخة خطية وناقصة.

والأمل كبير في الحصول على نسخة أخرى ــ إن شاء الله ــ لوضع الكتاب قيد النشر كمقدمة لهذا الديوان الحديثي العظيم «جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن».

٤ ــ الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث:

وكان ابن كثير قد سماه «مختصر علوم الحديث» أو «اختصار علوم الحديث»، ويعرف الآن بـ: «الباعث الحثيث».

قال عنه حاجي خليفة في كشف الظنون (٢:١١٦٢): «أضاف إلى ذلك الفوائد الملتقطة من المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي ــ وسمّاه السيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ ص (٣٦١): «علوم الحديث».

وقال ابن حجر في الدرر الكامنة (١:٤٠٠): «وقد اختصر ــ مع ذلك ــ كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد».

وقد نشر الكتاب بمكة المكرمة (١٣٥٣) هـ بتصحيح الشيخ «محمد عبد الرزاق حمزة»، ثم شرحه الشيخ أحمد شاكر، فسماه «الباعث الحثيث» وطبع بالقاهرة (١٣٥٥) هـ وكذا بعده، وقد قال الشيخ أحمد شاكر في مقدمته للكتاب:

«وهو كتاب فذ في موضوعه، ألفه إمام عظيم من الأئمة الثقات المحققين بهذا الفن. ونسخه نادرة الوجود، وكنا نسمع عنه في الكتب، ثم رآه الأخ الأستاذ

العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة المدرس بالحرم المكي حينما كان بالمدينة المنورة في سنة ١٣٤٦ هـ وكانت نسخته موجودة في مكتبة شيخ الإسلام أحمد عارف حكمت تحت رقم ٥٧ مصطلح وهي نسخة قديمة مكتوبة في طرابلس الشام سنة ٧٦٥ هـ منقولة عن نسخة أخرى قوبلت على نسخة صحيحة معتمدة، قرئت على المصنف، وعليها خطه. كما أثبت ذلك ناسخها رحمه الله. ثم رآها بعد ذلك الأخ الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الضبع من كبار أعيان مكة المكرمة سنة ١٣٥٢ هـ فأشار على صديقه الشيخ مصطفى الكتبي بنشر الكتاب، وكلفا بعض الإخوان من أهل العلم في المدينة المنورة نسخه ومقابلته على الأصل، ثم طبع في المطبعة الماجدية بمكة سنة ١٣٥٣ هـ بتصحيح الأخ العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، وكتب له مقدمة نفيسة وترجمة للمؤلف وعلق عليها بعض تعليقات مفيدة.

٥ ــ الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم:

يشتمل هذا الكتاب على بابين: (الأول) في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته، (والثاني) في أحواله وأعلام نبوته وخصائصه.

وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (٦:٢٧١)، ثم أشار إليه في تفسير سورة الأحزاب، فقال:

«وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً، ولله الحمد والمنة».

وذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (٢:١٩٢) وسمّاه: «الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم».

وقال ابن العماد في الشذرات (٦:٢٣١): «وله سيرة صغيرة».

وقد طبع الكتاب طبعة أخيرة محققة بدمشق، وقال ابن كثير في مقدمته لهذا الكتاب:

فإنه لا يجمُل بأولي العلم إهمال معرفة الأ يام النبوية والتواريخ الإسلامية، وهي مشتملة على علوم جمّة وفوائد مهمة، لا يستغني عالم عنها، ولا يُعذر في العروّ منها. وقد أحببت أن أعلّق تذكرة في ذلك لتكون مدخلاً إليه وأنموذجاً وعوناً له وعليه، وعلى الله اعتمادي، وإليه تفويضي واستنادي: وهي مشتملة على ذكر نسب رسول الله عليه الصلاة والسلام، وسيرته وأعلامه، وذكر أيام الإسلام بعده إلى يومنا هذا، مما يمسُّ حاجة ذوي الأرب إليه، على سبيل الاختصار إن شاء الله عالى.

• ـ البداية والنهاية:

هو موسوعة التاريخ الإسلامي، وقد نحا فيه ابن كثير منحى الذهبي في تاريخه، فرتب الحوادث على السنين، وأردفها بوفيات كل سنةو بينما كان منهج الذهبي على العقود، أي عشرات السنين، وبذلك يكون منهج ابن كثير أدق زمنياً، ويشتمل الكتاب على تاريخ ما قبل الإسلام من الأنبياء والأمم، وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعجزاته، وتاريخ المسلمين بعد ذلك إلى حوادث سنة (٧٦٨) هـ، أي قبل وفاته بنحو (٦) سنوات.

وقال في مقدمته:

«فهذا كتاب أذكر فيه بعون الله وحسن توفيقه ما يسره الله تعالى بحوله وقوته من ذكر مبدأ المخلوقات من خلق العرش والكرسي والسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن من الملائكة والجان والشياطين وكيفية خلق آدم عليه السلام، وقصص النبيين، وما جرى مجرى ذلك إلى أيام بني إسرائيل وأيام الجاهلية حتى تنتهي النبوة إلى أيام نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه فتذكر سيرته كما ينبغي، فتشفي الصدور والعليل، وتزيح الداء عن العليل.

ثم نذكر ما بعد ذلك إلى زماننا، ونذكر الفتن والملاحم، وأشراط الساعة ثم البعث والنشور وأهوال القيامة، ثم صفة ذلك، وما في ذلك اليوم، وما يقع فيه من الأمور الهائلة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنان وما فيها من الخيرات الحسان، وغير

ذلك، وما يتعلق به وما ورد في ذلك من الكتاب والسنة، والآثار والأخبار المنقولة المقبولة عند العلماء وورثة الأنبياء الآخذين من مشكاة النبوة المصطفوية المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

والقطعة الأخيرة منه من حوادث سنة (٧٣٨) إلى نهاية حوادث (٧٦٧)، وبعض (٧٦٨) أكملها أحد تلامذة ابن كثير على لسان أستاذه.

فقد ورد في حوادث سنة (٧٣٨) ما نصه:

«هذا آخر ما أرخه شيخنا الحافظ: علم الدين البرزالي» في كتابه الذي ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين أبي شامة المقدسي، وقد ذيلت على تاريخه إلى زماننا هذا، وكان فراغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين وسبع مئة أحسن الله خاتمتها آمين، وإلى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم إلى زماننا هذا ولله الحمد والمنة، وما أحسن ما قال الحريري:

وإن تجد عيباً فسدَّ الخللا فجلَّ من لا عيب فيه وعلا

كتبه اسماعيل بن كثير بن ضوء القرشي الشافعي، عفا الله عنه آمين».

أما القسم الأخير من كتاب البداية والنهاية، وهو «النهاية»، فقد جمع فيه ما ورد من الأخبار في الفتن وأشراط الساعة والملاحم وأحوال الآخرة(*).

وقد اختصر ابن حجر هذا الكتاب في كتاب أسماه «ما ورد من الرواية مختصر البداية والنهاية»، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم (٥٢٢) تاريخ.

٧ ــ مسند الفاروق أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ وأقواله على أبواب العلم:

وقد بدأه بأحكام الطهارة، فالصلاة... إلى آخر العبادات، وشمل أبواب

(*) طبع من هذا الكتاب منفرداً: «السيرة النبوية» مقتطعاً منه، وكذا شمائل الرسول ﷺ، و«قصص الأنبياء».

التفسير، والملاحم، والمعجزات، والفضائل، وغيرها، وهذا الكتاب مخطوط بخط الحافظ ابن كثير بدار الكتب المصرية، رقم (١٥٢) حديث تيمور، ويقع في (٢٢٠) لوحة، وهنا لوحة منه للدلالة على خط ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ.

٨ ـــ قاعدة ابن كثير في القراءات:

مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر رقم (٥٤٤).

٩ ـــ مقدمة في قراءة ابن كثير:

مخطوط بالمكتبة الأزهرية (٥٦٤).

١٠ ـــ الاجتهاد في طلب الجهاد:

توجد منه نسخة مخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١٠:١)، وقال: «رسالة لعماد الدين اسماعيل ابن عمر المعروف بابن كثير، كتبها للأمير منجك لما حاصر الإفرنج قلعة إياس».

وقد كتبه ابن كثير ليرغب الناس في ثواب ما أهلهم الله له من الرباط في الثغور الإسلامية، ووجوب الجهاد في سبيل الله، ومحاربة الصليبيين وجمع فيه الآيات والأحاديث التي تتعلق بالجهاد.

وقد نشر الكتاب بمصر (١٣٤٧) هـ، وهو مختصر من كتاب آخر في الجهاد، وقد أشار ابن كثير إلى ذلك، فقال: «وقد كنت جمعت في ذلك مجلداً بسيطاً، فاختصرت منه وسطاً وسيطاً».

١١ ـــ أحاديث التوحيد والرد على الشرك:

هذا الكتاب مطبوع على هامش كتاب «جامع البيان» لمعين بن شافع في دهلي ـــ بلهند، عام (١٢٩٧) هـ. انظر تاريخ الأدب العربي ـــ بروكلمان (٣٥٩:٢) باللغة الألمانية.

١٢ ـــ جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سَنَن:

وهو هذا الكتاب، وقد أفردنا له فصلاً خاصاً به.

نموذج من خط الحافظ ابن كثير
في كتاب مسند عمر بن الخطاب الفقهي

ب ــ الكتب التي صنفها ابن كثير، وذكرها بعض المؤرخين، وهي مفقودة

١٣ ــ تكميله كتاب ابن الزملكاني في المعجزات النبوية ودلائل النبوة:

كانت ولا تزال ــ دلائل النبوة ــ ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم موضوعاً شيقاً للمصنفين في كل عصر، وقد كان ابن الزملكاني قد اختصر من سيرة ابن إسحق، وغيرها ما يتعلق بفضائل النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يستوعب الكلام إلى آخره، فجاء ابن كثير وأكمله، جاء في البداية والنهاية (٢٥٨:٦):

كان الباعث لي على عقد هذا الباب أني وقفت على مولد اختصره من سيرة الامام محمد بن إسحاق بن يسار وغيرهما شيخنا الامام العلامة شيخ الاسلام كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي الأنصاري السماكي، نسبه إلى أبي دجانة الأنصاري سماك بن حرب بن حرشة الأوسي، رضي الله عنه، شيخ الشافعية في زمانه بلا مدافعة، المعروف بابن الزملكاني عليه رحمة الله، وقد ذكر في أواخره شيئاً من فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقد فصلاً في هذا الباب فأورد فيه أشياء حسنة، ونبه على فوائد جمة، وفوائد مهمة، وترك أشياء أخرى حسنة، ذكرها غيره من الائمة المتقدمين، ولم أره استوعب الكلام إلى آخره، فأما أنه قد سقط من خطه، أو أنه لم يكمل تصنيفه، فسألني بعض أهله من أصحابنا ممن تتأكد إجابته، وتكرر ذلك منه، في تكميله وتبويبه وترتيبه، وتهذيبه، والزيادة عليه والاضافة إليه، فاستخرت الله حيناً من الدهر، ثم نشطت لذلك ابتغاء الثواب والأجر.

١٤ ــ سيرة أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ:

ذكر ابن كثير هذا الكتاب في البداية والنهاية (١٨:٧)، وقال: «وقد ذكرنا ترجمة الصديق ــ رضي الله عنه، وسيرته، وأيامه، وما روى من الأحاديث، وما روي عنه من الأحكام في مجلد، ولله الحمد والمنة».

وأشار إلى هذا الكتاب في تفسيره (٢٢٤:٤)، فقال بعد إيراده أثراً عن أبي

بكر الصديق: «وقد أوردت لهذا الأثر طرقاً كثيرة في سيرة الصديق رضي الله عنه عند ذكر وفاته».

وقال في الباعث الحثيث (ص ١٨٣) حين تحدث عن أبي بكر: «وقد ذكرت سيرته وفضائله ومسنده والفتاوى عنه في مجلد على حدة، ولله الحمد».

١٥ ـ سيرة عمر بن الخطاب:

أشار ابن كثير في اللوحة الأخيرة من مسند عمر الفقهي (المتقدم ذكره برقم: ٧)، فقال: «وذكرنا في سيرته من أخلاقه وأحكامه وكتبه وسياسته أشياء اكتفينا بذكرها هناك عن إعادتها ههنا».

وقال في البداية والنهاية (٣:٢٧) عن أبي بكر وعمر: «وقد ذكرنا كيفية إسلامه في كتابنا الذي أفردناه في سيرته وأوردنا فضائله وشمائله وأتبعنا ذلك بسيرة الفاروق أيضاً، وأوردنا ما رواه كل منهما عن النبي صلى الله عليه وسلم من الأحاديث، وما روي عنه من الآثار والأحكام والفتاوى، فبلغ ذلك ثلاث مجلدات ولله الحمد والمنة».

١٦ ـ تذييله على تاريخ ابن أبي شامة:

ذكر هذا التذييل ابن كثير في البداية والنهاية (١٣:١٥٣) أثناء تراجم وفيات سنة (٦٣٦)، فقال في ترجمة الحافظ الكبير زكي الدين أبو عبد الله البرزالي: «وهو جد شيخنا الحافظ علم الدين بن القاسم بن محمد البرزالي مؤرخ دمشق الذي ذيّل على الشيخ شهاب الدين أبي شامة، وقد ذيلت أنا على تاريخه بعون الله تعالى».

١٧ ـ أحاديث الأصول:

في تفسيره للقرآن العظيم (١:٥٥٥) في تفسير قوله تعالى: ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ من سورة النساء، قال: «وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك، وقد ذكرنا طرفاً منها صالحاً في كتاب «أحاديث الأصول».

١٨ ـ شرحه للبخاري:

شرع ابن كثير في هذا الكتاب ولم يكمله، وقد أشار إليه مراراً في كتبه، فقال في البداية والنهاية (١١:٢٤) في أثناء ترجمة الإمام محمد بن اسماعيل البخاري:

«صاحب الصحيح، وقد ذكرنا له ترجمة حافلة في أول شرحنا لصحيحه».

وأشار إليه في تفسيره (٣:٤٥٤) و(٤:١٠٦)، ومواضع أخرى، وغالباً ما يذكر: «وفي أول شرح البخاري.. كذا».

وفي هذا الشرح يذكر ابن كثير طرق الحديث واختلاف الرواة فيه، وغير ذلك من الأبحاث.

وقد أحال إليه ابن كثير في البداية والنهاية أيضاً (٣:٣) عند الكلام عن حديث بدء الوحي، فقال: «وتكلمنا عليه مطولاً في أول شرح البخاري في كتاب بدء الوحي إسناداً ومتناً، ولله الحمد والمنة».

وقال في البداية أيضاً (١١:٣٣): «وقد بسطت ذلك في أول شرح البخاري».

وقد ذكره ابن العماد في الشذرات (٦:٢٣١)، والداودي في طبقات المفسرين (١:١١١)، فقال: «وشرح قطعة من البخاري».

كما ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة (١:٣٩٩) فقال: «وشرع في شرح البخاري».

وذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١:٥٥٠)، والبغدادي في «هدية العارفين» (١:٢١٥).

١٩ ـ الأحكام الصغرى في الحديث:

ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١:١٩)، وقد سماه ابن كثير «الأحكام الصغير» في كتابه «مختصر علوم الحديث». الباعث الحثيث (ص: ٢٠٢).

٢٠ ــ كتاب الأحكام الكبير:

وهو كتاب كبير ــ لم يكمله، ووصل فيه إلى كتاب «الحج»، وهو كتاب مبسوط أحال إليه ابن كثير في البداية والنهاية، فهو يقول مثلاً في موضوع تحويل القبلة (٣:٥٢٤): «وذلك مبسوط في التفسير، وسنزيد ذلك بياناً في كتاب الأحكام الكبير».

ويقول في كلامه عن البردة (٦:٨): «ولو تقصينا ما كان يلبسه صلى الله عليه وسلم في أيام حياته لطال الفصل، وموضعه كتاب اللباس من كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله، وبه الثقة، وعليه التكلان».

كما أحال عليه في مختصر علوم الحديث، وفي كتاب التفسير كثيراً.

فأحال عليه في التفسير (١:٧٩، ٣٢٧، ٤٥٧).

وفي الجزء الثاني (٢:٥٧، ٩٩)، ومواضع أخرى غيرها.

وقد ذكر الكتاب ابن العماد في الشذرات (٦:٢٣١)، والداوودي في الطبقات (١:١١١): «وشرع في أحكام كثيرة حافلة كتب فيها مجلدات إلى الحج».

وقال السيوطي في ذيل تذكرة الحفاظ ص (٣٦١): «وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يتمه».

٢١ ــ أحكام التنبيه:

وهو شرح لكتاب «التنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي، ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١٢:١٢٥)، فقال في أثناء ترجمته لأبي إسحاق الشيرازي المتوفى سنة (٤٧٦) هـ: «وقد ذكرت ترجمته مستقصاة مطولة في أول شرح التنبيه».

وقد ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة (١:٤٠٠)، وابن العماد في الشذرات (٦:٢٣١)، فقال: «وألف في صغره أحكام التنبيه»، وعبارة ابن حجر في الدرر «وخرَّج أحاديث أدلة التنبيه».

٢٢ ـ تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب:

ذكره ابن حجر في الدرر الكامنة (١:٤٠٠)، وهو الذي أشار إليه ابن كثير في البداية (١٣:١٧٦)، في أثناء ترجمة ابن الحاجب، فقال: «ومختصره في الفقه من أحسن المختصرات، انتظم فيه فوائد ابن شاش، ومختصره في أصول الفقه استوعب فيه عامة فوائد الأحكام لسيف الدين الآمدي، وقد منّ الله تعالى عليَّ بحفظه وجمعت كراريس في الكلام على ما أودعه فيه من الأحاديث النبوية، ولله الحمد».

وقد ذكره ابن قاضي شهبة في الطبقات (٣:١١٤)، فقال: «وخرج الأحاديث الواقعة في مختصر ابن الحاجب، وكتبه رفيقه الشيخ تقي الدين بن رافع لنفسه منه نسخة».

٢٣ ـ مختصر كتاب «المدخل إلى كتاب السنن» للبيهقي:

ذكره ابن كثير في مقدمة اختصار علوم الحديث (ص: ١٩)، ونعته بأنه من غير وكس ولا شطط.

٢٤ ـ جزء في حديث الصور:

وهو الذي رواه الطبراني، وقال عنه: حديث مشهور، وقد أشار إليه ابن كثير في التفسير (٢:١٤٦-١٤٩) وفي النهاية في الفتن والملاحم (١:٢٢٣)، وقال: نص على نكارته غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل، وأبي حاتم الرازي، وقد اختلف في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة، قد أفردتها في جزء على حدة».

٢٥ ـ جزء في الرد على حديث السجل:

ذكره ابن كثير في تفسير سورة الأنبياء (٣:٢٠٠) أثناء تفسير قوله تعالى:

﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب..﴾. [الأنبياء: ١٠٤].

فذكر الحديث الذي رواه الخطيب البغدادي عن ابن عمر، قال: السجل

كاتب النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد قال ابن كثير: هذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلاً، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضاً، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه، وان كان في سنن أبي داود، منهم شيخنا الحافظ الكبير «أبو الحجاج» الذي فسح الله في عمره، ونسأ في أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدته، ولله الحمد».

٢٦ ـ كتاب الصيام:

أفرده ابن كثير في جزء مستقل، وجمع فيه الآيات المتعلقة بالصيام، فقال في التفسير (١:٢١٥) و(٣:٥١٢): بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه ولله الحمد والمنة».

٢٧ ـ جزء في الصلاة الوسطى:

ذكره ابن كثير في تفسيره (١:٢٩٤)، فقال بعد أن استعرض أحاديث الصلاة الوسطى، و أنها العصر: «ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا، وقد أفردناه على حدة، ولله الحمد والمنة».

٢٨ ـ جزء في ميراث الأ بوين مع الإخوة:

ذكره ابن كثير في تفسيره (١:٤٥٩)، وقال: «وقد أفردت لهذه المسألة جزءاً على حدة».

٢٩ ـ جزء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها:

ذكره ابن كثير في تفسيره (٢:١٧٠)، في أثناء تفسير قوله تعالى:

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾[الأنعام: ١٢١]. ثم قال: «وقد أفردت هذه المسألة على حدة وذكرت مذاهب الأئمة ومآخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمعارضات والله أعلم»..

٣٠ ـ جزء في الأحاديث الواردة في فضل الأيام العشرة من ذي الحجة:

في تفسيره للقرآن العظيم، وأثناء تفسير قوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾.. الآية (٢٨) من سورة الحج، أورد ابن كثير الحديث الذي أخرجه البخاري، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(ما العملُ في أيّام العشر أفضلَ من العمل في هذه. قالوا: ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهاد، إلا رجلٌ خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع). فتح الباري (٢:٤٥٧).

قال ابن كثير:

«رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة بنحوه، وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح، وفي الباب عن ابن عمر، وأبي هريرة، وجابر».

ثم قال:

«وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردتُ لها جزءاً على حدة».

٣١ ـ جزء في ذكر الأحاديث الواردة في قتل الكلاب:

أشار ابن كثير إلى هذا الجزء في تاريخه (١٤:٢٧٧) معلقاً على أمر نائب السلطان بقتل الكلاب سنة (٧٤٩) بعد أن فشا الطاعون في الشام، فقال:

«وقد جمعت جزءاً في الأحاديث الواردة في قتلهم، واختلاف الأئمة في نسخ ذلك».

٣٢ ـ جزء في ذكر الأحاديث الواردة في كفارة المجلس:

في تفسيره، وأثناء ايراده الحديث الذي أخرجه أبو داود، عن عبد الله بن عمرو، أنه قال: «كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير، ومجلس ذكر الا ختم له بهن كما يختم بالخاتم: «سبحانك اللهمّ وبحمدك ولا إله إلا أنت استغفرك، وأتوب إليك».

أخرجه الحاكم من حديث عائشة وصححه من رواية جبير بن مطعم، ورواه أبو بكر الإسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير:

«وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق بها، ولله الحمد والمنة».

٣٣ ــ جزء في الرد على كتاب رفع الجزية:

قال ابن كثير في تفسير سورة البقرة رداً على زعم اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع عنهم الجزية فيه بشهادة سعد بن معاذ: «وقد وقفت أنا على هذا الكتاب فرأيت فيه شهادة سعد بن معاذ عام خيبر وقد توفي سعد قبل ذلك بنحو من سنتين، وفيه: وكتب علي بن أبي طالب» وهذا لحن لا يصدر عن أمير المؤمنين علي لأن علم النحو إنما أسند إليه من طريق أبي الأسود الدؤلي عنه. وقد جمعت جزءاً مفرداً وذكرت ما جرى فيه أيام القاضي الماوردي وكتاب أصحابنا في ذلك العصر وقد ذكره في الحاوي، وصاحب الشامل في كتابه وغير واحد وبينوا خطأه ولله الحمد والمنة».

٣٤ ــ جزء في ذكر تطهير المساجد:

جمع ابن كثير جزءاً على حدة من الأحاديث الواردة في الأمر بتطهير المساجد وتطييبها، وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات، وما أشبه ذلك.

ذكر ذلك ابن كثير في تفسير الآية (٢٥) من سورة البقرة ﴿ طهرا بيتي ﴾، وفي تفسير الآية (٣٦) من سورة النور ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له بالغدو والآصال رجال... ﴾ الآية.

٣٥ ــ جزء في ذكر فضل يوم عرفة:

في تفسيره، وعند تفسير الآية (١٩٩) من سورة البقرة: ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾، قال ابن كثير:

«روى ابن جرير ههنا حديث ابن عباس في استغفاره صلى الله عليه وسلم لأمته عشية عرفة، وقد أوردناه في جزء جمعناه في فضل يوم عرفة».

٣٦ ـ كتاب «المقدمات»:

لعله في الأصول، وقد أشار إليه ابن كثير في التفسير (١٣٨:٣)، وفي اختصار علوم الحديث: (ص: ٤٨)، فقال عن الحديث المرسل:

«أما كونه حجة في الدين فذلك يتعلق بعلم الأصول، وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتابنا «المقدمات».

٣٧ ـ الكواكب الدراري:

هو منتخب من تاريخ ابن كثير، وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (١٥٢١:٢)، وذكره البغدادي في هدية العارفين (٢١٥:١).

٣٨ ـ جزء مفرد في فتح القسطنطينية:

أشار إليه ابن كثير في التفسير (٣٦٧:١)، أثناء تفسير قوله تعالى:

﴿ إذ قال الله تعالى: يا عيسى! إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾ الآية (٥٥) من سورة آل عمران.

فقال: «إن المسلمين قد اجتازوا جميع الممالك ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله وأن الرسول قد أخبر أمته بأنهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلها، ولا يرون بعدها نظيرا، وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً».

٣٩ ـ طبقات الشافعية:

رتبه على الطبقات، لكنه ذكر فيه خلائق ممن لا حاجة لطلبة العلم إلى معرفة أحوالهم.

فلذلك جمع ابن قاضي شهبة طبقاته من كتاب ابن كثير، وأسقط من لا حاجة لطلبة العلم بهم، ذكر ذلك ابن هداية الله في الطبقات (٣:١١٤).

وقد ذكره ابن العماد في الشذرات في حوادث سنة (٧٩١) هـ.

٤٠ ــ الواضح النفيس في مناقب الإمام محمد بن ادريس:

ذكره الداوودي في الطبقات (١:١١١)، وسماه «مناقب الإمام الشافعي»، وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢:١٨٤٠).

٤١ ــ مناقب ابن تيمية:

ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤:١٢٩)، فقال في ترجمة شيخه ابن تيمية:

«وقد أفردت له تراجم كثيرة وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء وغيرهم. وسألخص من مجموع ذلك ترجمة وجيزة في ذكر مناقبه وفضائله وشجاعته وكرمه ونصحه وزهادته، وعبادته، وعلومه المتنوعة الكثيرة المجودة، وصفاته الكبار والصغار التي احتوت على غالب العلوم ومفرداته في الاختيارات التي نصرها بالكتاب والسنة وأفتى بها».

٤٢ ــ الأذكار وفضائل الأعمال:

ذكره ابن كثير في تفسيره (١:١٤)، فقال: «وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها، ههنا. وموطنها كتاب «الأذكار وفضائل الأعمال» والله أعلم.

٤٣ ــ صفة النار:

صنف ابن كثير كتاب صفة النار، وأشار إلى ذلك في تفسيره (٤:٥٤٣)، فقال في تفسير سورة القارعة بعد أن ذكر أثراً عن الأشعث بن عبد الله الأعمى: «وقد رواه ابن مردويه من طريق أنس بن مالك مرفوعاً بأبسط من هذا، وقد أوردناه في كتاب «صفة النار» أجارنا الله تعالى منها بمنه وكرمه».

٤٤ ــ مقدمة في الأنساب:

وهو مختصر من كتاب «الأشباه» لابن عبد البر، وكتاب «القصد والأمم في معرفة أنساب العرب»، أشار ابن كثير إليه في تفسيره (٤:١٣٩).

٤٥ ــ جزء في دخول مؤمني الجن الجنة:

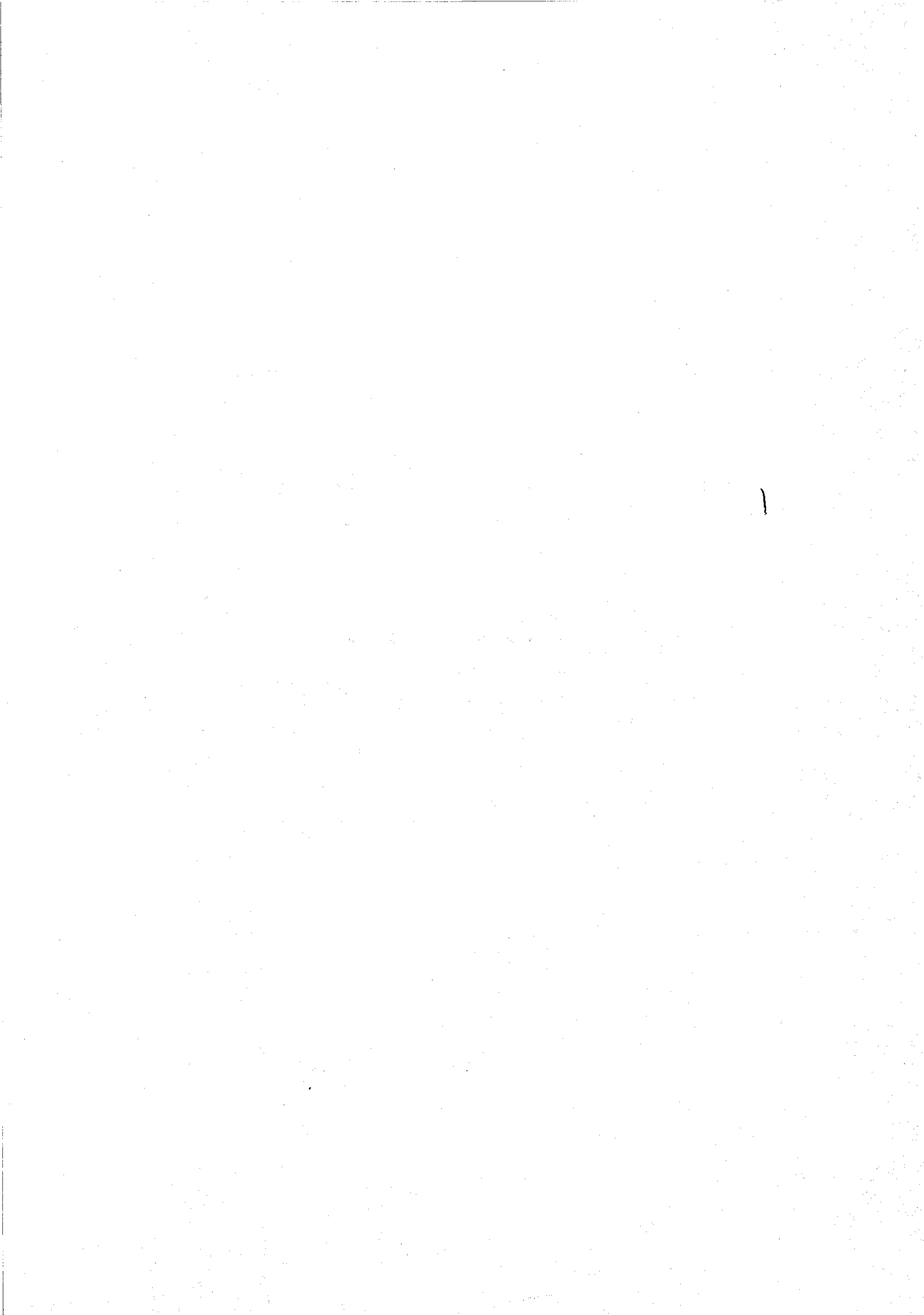
في أثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم من عذاب أليم﴾ الآية (٣١) من سورة الأحقاف، قال في تفسيره (٤:١٧١): «وقد أفردت هذه المسألة في جزء على حدة ولله الحمد والمنة».

* * *

وبعد أن طوّفنا في أفاق ابن كثير العلمية، ومصنّفاته المختلفة نعود بالتفصيل إلى كتابه العظيم النافع الذي جمع فيه أصول الإسلام ألا وهو:

«جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن».

جامع المسانيد والسنن
الهادي لأقوم سنن



جامع المسانيد والسنن في أقوال المؤرخين

١ ـ ذكره ابن حجر في «إنباء الغمر بأنباء العمر» (١:٤٧)، وقال: «كتبت منه عدة نسخ نسبت إليه».

٢ ـ وذكره الشوكاني في «البدر الطالع» (١:١٥٣)، وسماه «الهدي والسنن في أحاديث المسانيد والسنن».

٣ ـ وذكره الحسيني في ذيل التذكرة (ص: ٥٧)، فقال: «كتاب الهدي والسنن المعروف بجامع المسانيد رتبه على الأبواب وهو من أنفع كتبه».

٤ ـ وقال ابن العماد في الشذرات (٦:٢٣١): «ومن مصنفاته كتاب في جمع المسانيد العشرة».

٥ ـ وقال ابن قاضي شهبة في الطبقات (٣:١١٤): «صنف كتاباً في جمع المسانيد العشرة».

٦ ـ وقال حاجي خليفة في كشف الظنون (١:٥٧٣): جامع المسانيد، كتاب عظيم جمع فيه أحاديث الكتب العشرة في أصول الإسلام.



التوهج الإسلامي في عصر المزي وابن كثير

(عين جالوت) = ٦٥٨ في العشر الأخير من رمضان جاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار، وفرح المؤمنون بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً، وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون، وتعقبت جيوش الإسلام فلول التتار من دمشق، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وكان نصراً مؤزراً عاشت بلاد الإسلام وهي تشهد عزَّ الإسلام وقوته.

ثم تولى المجاهد العظيم ركن الدين بيبرس، فصوب الضربات القوية إلى العدو الصليبي الحاقد حتى كسر شوكته، وأوهن قواه، تمهيداً لتنظيف البلاد منه بعد ذلك على يد الأشرف خليل.

ولما استقرت البلاد، وأمِنَتْ بعد روع، واطمأنت بعد خوف عادت سيرتها الأولى في مسيرتها العلمية فأصبحت مركزاً قوياً من مراكز الحركة الفكرية وعاد النشاط إلى المعاهد والمدارس والجوامع، وتمخض كل ذلك عن علماء بارزين أثروْا الحياة الفكرية، ووضعوا المصنفات الخطيرة القيمة.

من هؤلاء كان **الحافظ المزي**.

ولد الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزّكي عبد الرحمن بن يوسف ابن علي بن عبد الملك بن علي بن أبي الزهر القضاعي الكلبي الحلبي، ثم الدمشقي المزي الشافعي بظاهر حلب ليلة العاشر من ربيع الآخر سنة (٦٥٤) = (٨ أيار ١٢٥٦ م)، ونشأ بالمِزَّة — قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق، وبها — فيما يقال: قبر دحية الكلبي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأ الفقه على مذهب الإمام الشافعي، وحفظ القرآن، وبرع في التصريف واللغة، ثم شرع في طلب الحديث بنفسه وله عشرون سنة، وسمع الكثير ورحل.

قال بعضهم: ومشيخته نحو الألف، وبرع في فنون الحديث، وأقر له الحفاظ من مشايخه وغيرهم بالتقديم، وحدث بالكثير نحو خمسين سنة، فسمع منه الكبار والحفاظ، وولي دار الحديث الأشرفية ثلاثاً وعشرين سنة ونصفاً. وقال ابن تيمية لما باشرها: لم يلها من حين بنيت إلى الآن أحق بشرط الواقف منه لقول الواقف: فان اجتمع من فيه الرواية ومن فيه الدراية قدم من فيه الرواية.

قال الذهبي في المعجم المختص: شيخنا الإمام العلامة الحافظ، الناقد المحقق المفيد، محدث الشام، طلب الحديث سنة أربع وسبعين وهلم جرا وأكثر، وكتب العالي والنازل بخطه المليح المتقن. وكان عارفاً بالنحو والتصريف، بصيراً باللغة، يشارك في الفقه والأصول، ويخوض في مضايق المعقول، ويدري الحديث كما في النفس متناً وإسناداً، وإليه المنتهى في معرفة الرجال وطبقاتهم. ومن نظر في كتابه تهذيب الكمال علم محله من الحفظ، فما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه في معناه.

وكان ينطوي على دين، وسلامة باطن، وتواضع، وفراغ عن الرئاسة، وقناعة، وحسن سمت، وقلة كلام، وحسن احتمال.

وقال ابن سيد الناس اليعمري:

«ووجدت بدمشق من أهل العلم الإمام المقدم والحافظ الذي فاق من تأخر من أقرانه ومن تقدم أبا الحجاج المزي، بحر هذا العلم الزاخر وحبره القائل من رآه: كم ترك الأوائل للأواخر، أحفظ الناس للتراجم، وأعلم الناس بالرواة من أعارب وأعاجم، لا يخص بمعرفته مصراً دون مصر ولا ينفرد علمه بأهل عصر دون عصر... وهو في اللغة أيضاً إمام... فكنت أحرص على فوائده لأحرز منها ما أحرز... وهو الذي حداني على رؤية شيخ الإسلام ابن تيمية»[*].

وقال الذهبي في «تذكرة الحفاظ» (٤:١٤٩٨): «شيخنا الإمام العالم الحبر الحافظ الأوحد محدث الشام... وأما معرفة الرجال، فهو حامل لوائها، والقائم

(*) نقله ابن حجر في الدرر الكامنة (٥:٢٤٣-٢٤٥).

بأعبائها، لم تر العيون مثله... وأوضح مشكلات ومعضلات ما سبق إليها في علم الحديث ورجاله... وكان ثقة حجة، كثير العلم، حسن الأخلاق، كثير السكوت، قليل الكلام جداً، صادق اللهجة، لم تعرف له صبوة. وكان يطالع وينقل الطباق إذ حدث وهو في ذلك لا يكاد يخفى عليه شيء مما يقرأ، بل يرد في المتن والإسناد رداً مفيداً يتعجب منه فضلاء الجماعة».

وقال شمس الدين الحسيني المتوفى سنة (٧٦٥) في الذيل على ذيل العبر (٢٢٩-٢٣٠): «وكان مع تبحره في علم الحديث رأساً في اللغة العربية والتصريف، له مشاركة جيدة في الفقه وغيره، ذا حظ من زهد وتعفف، ويقنع باليسير. وقد شهد له بالإمامة جميع الطوائف، وأثنى عليه الموافق والمخالف».

وقال الصلاح الصفدي في أعيان العصر (١٢: ل ١٢٣): «الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ الفريد الرحلة، إمام المحدثين... خاتمة الحفاظ، ناقد الأسانيد والألفاظ». وقال: «كان شيخنا الحجة جمال الدين أبو الحجاج شيخ الزمان، وحافظ العصر، وناقد الأوان، لو عاصره ابن ماكولا، كان له مشروباً وماكولا، وجعل هذا الأمر إليه موكولا». ثم أطنب في تعداد فضائله ومحاسنه وزهده وقال في حفظه: «وسمعت صحيح مسلم على البندنيجي وهو حاضر بقراءة ابن طغريل وعدة نسخ صحيحة حاضرة يقابل بها، فيرد الشيخ جمال الدين رحمه الله على ابن طغريل اللفظ، فيقول ابن طغريل: ما في النسخة إلا ما قرأه، فيقول من بيده بعض تلك النسخ الصحيحة: هو عندي كما قال الشيخ... أو في الحاشية تصحيح ذلك، ولما تكرر ذلك قلت أنا له: ما النسخة الصحيحة إلا أنت!».

وقال التاج عبد الوهاب السبكي في الطبقات (١٠: ٣٩٥-٣٩٦): «شيخنا وأستاذنا وقدوتنا الشيخ جمال الدين أبو الحجاج المزي، حافظ زماننا، حامل راية السنة والجماعة والقائم بأعباء هذه الصناعة، والمتدرع جلباب الطاعة، إمام الحفاظ، كلمة لا يجحدونها، وشهادة على أنفسهم يؤدونها، ورتبة لو نشر أكابر الأعداء، لكانوا يودونها، واحد عصره بالإجماع، وشيخ زمانه الذي تصغي لما يقول الأسماع».

ثم قال: «وبالجملة كان شيخنا المزي أعجوبة زمانه؛ يقرأ عليه القارىء نهاراً كاملاً، والطرق تضطرب والأسانيد تختلف وضبط الأسماء يشكل، وهو لا يسهو ولا يغفل، يبين وجه الاختلاف، ويوضح ضبط المشكل، ويعين المبهم، يقظ لا يغفل عند الاحتياج إليه؛ ولقد شاهدته الطلبة ينعس، فإذا أخطأ القارىء، رد عليه كأن شخصاً أيقظه، وقال له: قال هذا القارىء كيت وكيت، هل هو صحيح؟ وهذا من عجائب الأمور. وكان قد انتهت إليه رئاسة المحدثين في الدنيا».

مرضه ووفاته:

قال صهره الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير (م ٧٧٤ هـ): تمرَّض أياماً يسيرة مرضاً لا يشغله عن شهود الجماعة وحضور الدروس وإسماع الحديث. فلما كان يوم الجمعة حادي عشر صفر (٧٤٢ هـ) أسمع الحديث إلى قريب وقت الصلاة. ثم دخل منزله ليتوضأ ويذهب للصلاة. فاعترضه في باطنه مغص عظيم ظن أنه قولنج، وما كان إلا طاعون. فلم يقدر على حضور الصلاة.

فلما فرغنا من الصلاة أخبرت بأنه منقطع. فذهبت إليه فدخلت عليه. فإذا هو يرتعد رعدة شديدة من قوة الألم الذي هو فيه. فسألته عن حاله، فجعل يكرر (الحمد لله). ثم أخبرني بما حصل له من المرض الشديد. وصلّى الظهر بنفسه، ودخل إلى الطهارة، وتوضأ على البركة وهو في قوة الوجع.

ثم اتصل به هذا الحال إلى الغد من يوم السبت. فلما كان وقت الظهر لم أكن حاضره إذ ذاك، لكن أخبرتنا بنته زينب زوجتي أنه لما أذن الظهر تغير ذهنه قليلاً. فقالت: «يا أبت! أذّن الظهر». فذكر الله وقال: «أريد أن أصلي». فتيمم وصلى، ثم اضطجع، فجعل يقرأ آية الكرسي، حتى جعل لا يفيض بها لسانه. ثم قبضت روحه بين الصلاتين ــ رحمه الله ــ يوم السبت ثاني عشر صفر (٧٤٢ هـ، ١٣٤١ م، فتوفي عن ٨٩ سنة).

فلم يمكن تجهيزه تلك الليلة. فلما كان من الغد يوم الأحد ثالث عشر صفر

صبيحة ذلك اليوم غسل وكفن وصلي عليه بالجامع الأموي. وحضر القضاة والأعيان وخلائق لا يحصون كثرة. أمهم عليه القاضي تقي الدين السبكي الشافعي. ثم ذهب به إلى مقابر الصوفية، فدفن هناك إلى جانب زوجته ــ المرأة الصالحة الحافظة لكتاب الله ــ عائشة بنت إبراهيم بن صديق، غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيميه ــ رحمهم الله أجمعين («البداية والنهاية»، ج ١٤، ص ١٩١-١٩٢)(*).

مصنفاته:

صنف الحافظ المزي كتاب «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» الذي اختصره ابن حجر في «تهذيب التهذيب» وأضاف إليه كتباً أخرى.

كما صنف «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» وكنا قد تعرضنا له بإيجاز شديد في فصل «كتب الأطراف» ونعود إليه هنا بشيء من التفصيل، ولا بأس أن ندع محقق الكتاب الفاضل «عبد الصمد شرف الدين» يحدثنا عن موضوع الكتاب ووصفه ونظمه وطريقة بيان الأحاديث وطريق سرد الأسانيد، حيث قال في المقدمة (١:١٢-١٦):

الغرض الأساسي من وضع هذا الكتاب هو جمع أحاديث الكتب الستة بطريق يسهل على القارىء معرفة أسانيدها المختلفة مجتمعة في موضع واحد. ولا سبيل إلى ذلك إلا بطريقين: فإما أن يذكر متون الأحاديث حديثاً حديثاً ويذكر بعدها جميع طرقها وأسانيدها الواردة من الكتب الستة؛ وإما أن يذكر الأسانيد المعروفة ويدرج تحتها متون الأحاديث المختلفة المروية بتلك الأسانيد.

أما الطريق الأول ففيه صعوبات جمة. منها أنه يذكر الأحاديث إما على أوائل حروف المعجم فيسهل ذلك في الأحاديث القولية ولكنه يتعذر في الفعلية؛ وإما على ترتيب أبواب الفقه فيضطر القارىء إلى التفكير المتعب قبل العثور على

(*) طبقات الشافعية للسبكي (١٠:٣٩٤)، الدرر الكامنة (٤:٤٥٧)، تذكرة الحفاظ (٤:١٤٩٨)، الدارس (١:٣٥)، تاريخ ابن الوردي (٢:٢٣٢)، والنجوم الزاهرة (١٠:٧٦)، البدر الطالع (٢:٣٥٣)، مفتاح السعادة (٢:٢٢٤)، وشذرات الذهب (٦:١٣٦)، طبقات ابن قاضي شهبة (٣:٩٩)، معجم المؤلفين (١٣:٣٠٨)، مقدمة تحفة الأشراف (١:٢٤).

المطلوب. ومنها أنه إذا ذكر جميع طرق الحديث فقد يطول على القارىء تأملها كلها في آن واحد، لا سيما إذا ورد عن عدة أصحاب أو عدة رواة. وحينئذ تقل منفعة الكتاب.

ولهذا اختار عامة أصحاب كتب الأطراف الطريق الثاني، فرتبوها على الأسانيد دون المتون. وهو طريق مصون عن الخطأ، سهل المراجعة، تام الاستيعاب على طريق سائر المعاجم المفهرسة. فترى كتاب «تحفة الأشراف» معجماً مرتباً على تراجم أسماء الصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين، وأحياناً أتباع أتباع التابعين. فدونت جميع أحاديث الكتب الستة تحت هذه الطبقات من رجالها. فجاء على نسق منظم علمي بديع يقبله الطبع وينشرح له الخاطر مع سهولة التناول وكمال الإفادة. وهذا هو السر في قبول هذا الكتاب قبولاً تاماً عند الخاص والعام.

تكرار الروايات:

ولا يخفى أن ترتيب الكتاب على الأسانيد سبب إطالة ما حيث قد اضطر المصنف إلى إيراد الحديث الواحد مراراً بقدر تعدد طرقه حتى لا يفقد في موضع من مواضعه المظنون بها وأن لا يرجع الباحث عن مطلوبه خائباً. فترجحت مصلحته على مفسدته. وإذا لم يضف الشيخ عبد الغني النابلسي مؤلف «ذخائر المواريث» في أطراف الستة والموطأ (ط. مصر. ١٣٥٢ هـ، ص ٣) مع ثنائه على المصنف إذ قال: «وجمع (أي المزي) أطراف الكتب الستة أكمل جمع، فشرح صدر الطالبين وأطرب السمع. ولكنه أطال إلى الغاية وأسهب، وركب في تكرار الروايات كل أدهم وأشهب». وقد سلك النابلسي في «أطرافه» مسلك الاختصار إلى الغاية فرد مقتني كتابه متعبين خائبين.

وحيث أن هذا الترتيب ــ أي ترتيبه على الأسانيد مع تكرار الروايات ــ هو المعقول المناسب اتبعه سلف المصنف أبو القاسم ابن عساكر في كتابه في أطراف السنن الأربع، كما اتبعه بعده الحافظ ابن حجر في ترتيب كتابه «إتحاف المهرة في أطراف العشرة».

تفصيل عن نظم الكتاب:

قسم المصنف جميع أحاديث الكتب الستة مسندها ومرسلها ــ وعددها ١٩,٥٩٥ مع المكررات ــ إلى ١٣٩٥ مسنداً، منها ٩٩٥ منسوباً إلى الصحابة رجالاً ونساء ــ رضوان الله عليهم ــ مرتباً أسماؤهم على حروف المعجم، عن النبي صلى الله عليه وسلم. والباقي من المراسيل وعددها ٤٠٠ منسوباً إلى أئمة التابعين ومن بعدهم على نسق حروف المعجم أيضاً. أما أرقام المسانيد والأحاديث فليست من أصل كتاب المصنف، بل من ترقيمنا.

هذا هو التقسيم العمومي لأحاديث الصحاح الستة، ومنه يعرف عدد لأحاديث المروية عن كل صحابي على حدة. فمنهم من له حديث واحد، ومنهم من له حديثان، فأكثر وأكثر.

وللمصنف تقسيم آخر للمكثرين من الصحابة. وذلك بأنه يقسم مروياتهم على تراجم جميع من يروى عنهم من التابعين وبعض الصحابة، كل ذلك على نسق حروف المعجم. وله تقسيم ثالث لمرويات كل تابعي تحت كل صحابي مكثر إذا كثرت الروايات عن ذاك التابعي حيث يقسمها على تراجم من يروي عنه من أتباع التابعين. وإذا وجد أحداً من هؤلاء الأتباع من له عدة تلاميذ يروون عنه قسم مروياته تقسيماً رابعاً على تراجم أتباع أتباع التابعين، فيترجم مثلاً: حماد بن سلمة، عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة.

وقد التزمنا في طبعتنا للكتاب بتمييز هؤلاء الطبقات من الرواة المترجمين بعضهم عن بعض بتنوع الحروف وعلامات مخصوصة عند طبع تراجمهم. فتمتاز أسماء التابعين عن غيرهم بحروف كبار مسبوقة بنجمة، وأسماء أتباع التابعين بحروف صغار سمينة مسبوقة بنجمتين، وأسماء أتباع أتباع التابعين كذلك ولكنها مسبوقة بثلاث نجمات. وهذا التنويع قد زاد طباعة الكتاب بهاء وجمالاً، كما أنه أنزل أصحاب كل طبقة مقامهم فضلاً وكمالاً.

إن أول شيء تراه فوق كل صفحة من المطبوع بحروف بارزة اسم الصحابي المسند إليه أحاديث تلك الصفحة، مصحوباً بذكر من يروي عنه. وقد ألحقنا في

أول هذا المجلد فهرساً كاملاً لأسماء جميع من ترجم لهُ المصنف فيه مع قيد الصفحات وعدد أحاديث كل مترجم.

طريق بيان الأحاديث:

اتخذ المصنف حروفاً على وجه الاختصار كرموز لأسماء مؤلفي الأمهات وغيرها يستعملها بدل أسمائهم ــ كـ«خ» للبخاري ــ كما شرحها في مقدمته. وستجدها مشروحة في ذيل كل صحيفتين من مطبوعنا تسهيلاً للمراجعة.

يبدأ المصنف كل رواية بلفظ «حديث» جلياً مكتوبة فوقه بالحمرة رموز مخرجيها في نسق معين هكذا: البخاري (خ وخت)، فسلم (م)، فأبو داود (د ومد)، فالترمذي (ت وتم)، فالنسائي (س وسي)، فابن ماجه (ق). وكتبت الروايات في أصله متصلة بغير فصل بينها (أنظر صورة المخطوطة «ك»). وتجد في مطبوعنا كل رواية مبدوأة من سطر جديد مع رقمها المسلسل ورموزها على اليمين بالهامش.

أما قاعدة المصنف في ترتيب سياق الروايات تحت كل ترجمة فيقدم ما كثر عدد مخرجيه على ما قل عددهم فيه، ولا عبرة بموضوع الأحاديث أو لفظها. فما رواه الجماعة الستة يسبق ما رواه الخمسة، وما رواه الخمسة يسبق ما رواه الأربعة، وهكذا إلى ما رواه الواحد. ويراعي في كل ذلك النسق المذكور آنفاً، أي أولية مرويات البخاري وآخرية مرويات ابن ماجه. وعلى ذلك تصرفنا ــ نادراً ــ في تقديم بعض الروايات على بعض إذا خولفت هذه القاعدة في أصول الكتاب.

وبعد كتب لفظ «حديث» ينقل المصنف طرفاً من أول الحديث بقدر ما يدل على بقية لفظه، ومن هنا سمي الكتاب بـ«الأطراف». والقطعة المنقولة إما من قوله صلى الله عليه وسلم إن كان الحديث قولياً، أو من كلام الصحابي إن كان فعلياً، أو بالإضافة كقوله «حديث العرنيين». ويتلوه في الغالب لفظ «... الحديث»، أي اقرأ الحديث إلى آخره. وقد طبعنا كل نوع بما يناسبه من علامات الترقيم.

ومن عادته أنه يبين اختلاف الروايات أحياناً، ويسرد قطع الحديث المختلفة إن اجتمعت في حديث واحد بقوله: «وفيه كذا». وربما اختصر العبارة إلى الغاية، أو حذف بعض ألفاظه، فكملناه بين القوسين. وربما ذكر الحديث بالمعنى دون اللفظ، أو بلفظ غير لفظ المتن.

طريق سرد الأسانيد:

وبعد فراغ المصنف من إيراد طرف من الحديث يأخذ في بيان أسانيده عن جميع من خرجه فرداً فرداً في نسق الرموز التي رمز بها في الابتداء. فيبدأ بكَتْبِ أول تلك الرموز بالحمرة (وفي طبعتنا بحرف بارز) عبارة عن اسم أول مخرِّجيه، ويتبعه باسم «الكتاب» الذي ورد فيه ذاك الحديث من أصل ذاك المخرِّج، متلواً بإسناده عن فلان، عن فلان، منتهياً إلى اسم المترجم بقوله: «عنه به»، أي بهذا الإسناد كما في الترجمة. وهكذا بجميع رموز ذاك الحديث. وإن تكرر الحديث في أكثر من «كتاب» من أصل المخرِّج ذكر جميع تلك «الكتب» مع أسانيدها. مثاله: **خ** في الصلاة (أي في كتاب الصلاة) عن فلان، عن فلان، إلخ؛ وفي الأطعمة عن فلان، عن فلان، إلخ.

فإن تعددت طرق حديث واجتمع بعض رواة الحديث على شيخ مشترك بينهم ساق الأسانيد إلى أولئك الرواة المشتركين فقط، ثم قال في الأخير: «ثلاثتهم» أو «أربعتهم» عن فلان، أي عن الشيخ المشترك. وكثيراً ما يجمع هكذا بين الرواة المشتركين من أصول شتى، ثم يختم أسانيدهم على شيخ مشترك بينهم.

وقد جزم العلامة أبو الطيب العظيم آبادي في آخر «عون المعبود بشرح سنن أبي داود» (ط. دهلي ١٣٢٢ هـ) بأن مراد المنذري والمزي بقولهما عن حديث «أخرجه النسائي» سننه «الكبرى» دون «الصغرى». والدليل على صدق ما قال أنا وجدنا المصنف يعزو كثيراً من أحاديث النسائي إلى «كتب» لا وجود لها في «الصغرى»، منها كتاب التفسير، وفضائل القرآن، والعلم، والمواعظ، والرقائق، والنعوت، والسِيَر، والوفاة، والمناقب، والاعتكاف، والوليمة، واللقطة،

والفرائض، والعتق، وإحياء الموات، والطب، والرجم، والتعبير، والحدود، والشروط، والخصائص، كما يرى القارىء في هذا المجلد.

وهذا يخالف ما ينسب إلى القاضي تاج الدين السبكي (م ٧٧١ هـ) تلميذ المصنف من إطلاق قوله: «سنن النسائي التي هي إحدى الكتب الستة هي الصغرى لا الكبرى، وهي التي يخرجون عليها الأطراف والرجال». ولهذا استدرك عليه الجلال السيوطي بقوله: «وإن كان شيخه المزي ضم إليها الكبرى» («تدريب الراوي»، ط. ١٣٧٩ هـ، ص ٤٩).

أما قول العظيم آبادي بأن «كل حديث هو موجود في السنن الصغرى يوجد في السنن الكبرى لا محالة، من غير عكس» فلا يصح على إطلاقه. بل نجد في الصغرى ما ليس في الكبرى، كما صرح بذلك النسائي في عدة تراجم الصغرى، كما بوب بقوله: «ما جاء في كتاب القصاص من (المجتبى) مما ليس في (السنن)» (آخر كتاب القسامة والقود والديات، باب ٤٣)، وما أشبهه. وهو كثير في «المجتبى» مما يشعر بأنه قد أضاف بعض الأبواب إلى (المجتبى) من بعد انتقائه من سننه الكبرى، فتأمله.

ومما لا مراء فيه أن النسائي صنف أولاً «السنن الكبرى»، ومنها اختصر «الصغرى» كما يؤخذ من اسمها «المجتبى». قال الحافظ ابن كثير: «وقد جمع السنن الكبير، وانتخب منه ما هو أقل حجماً منه بمرات، وقد وقع لي سماعهما» («البداية والنهاية»، ج ١١، ص ١٢٣).

ولا يمكن القطع بأن النسائي هو الذي باشر اختصارها بنفسه، أو أمر به بعض تلاميذه، فإن المشهور أنه اختصرها على طلب أمير الرملة منه أن يجرد له من الكبرى ما صح منه، ولكن الحافظ الذهبي لم يعبأ بهذه القصة، بل قال إن ابن السني (راوي النسائي م ٣٦٤ هـ) اختصر السنن وسماه «المجتبى»، وإنه وقع له من طريقه ما اجتباه من السنن («تذكرة الحفاظ»، ج ٣، ص ٩٤٠). وكذلك نسب التاج السبكي اختصارها إلى ابن السني». أ. هـ.

وأضاف المزي ـــ بعد ذلك ـــ جزءاً لطيفاً تتبع فيه أشياء من كتاب النسائي، رواية ابن الأحمر.

وذكر ابن حجر في مقدمة «النكت الظراف على الأطراف» أنه وجده بخط المصنف، ثم شاهد نسخة ابن كثير من «تحفة الأشراف» عليها هذا اللحق بخط المصنف.

وكثيراً ما يستدرك المصنف على الحافظ أبي القاسم ابن عساكر روايات النسائي ثم يقول: «حديث س في رواية ابن الأحمر ولم يذكره أبو القاسم». وأغلب هذه الأحاديث من «السنن الكبرى». فعلم منه اختصاص ابن الأحمر برواية السنن الكبرى عن النسائي.

ابن الأحمر الأندلسي ينقلها إلى الأندلس:

وهو محمد بن معاوية بن عبد الرحمن... بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم أبو بكر المعروف بابن الأحمر الأندلسي المتوفى سنة ٣٥٨ هـ، مكثر ثقة جليل. رحل قبل الثلاثمائة، وسبب رحلته إلى المشرق خروج قرحة بأنفه أو ببعض جسده لا مداوي لها بالأندلس، بل ولا بالمشرق إلا بالهند. فوصل إلى طبيب هندي وتم برؤه على يديه، ثم انصرف واشتغل في رجوعه بطلب العلم وروايات الكتب، فحصل له علم جم وبورك له فيه. وسمع أبا عبد الرحمن أحمد ابن شعيب النسائي، وهو أول من أدخل الأندلس مصنفه في السنن، وحدث به، وانتشر عنه. (راجع «بغية الملتمس» لأحمد بن يحيى بن عميرة الضبي م ٥٩٩ هـ، ط. مجريط (Madrid) ١٨٨٤ م، ص ١٧-١١٦). وقال ابن العماد الحنبلي: «كان عنده السنن الكبير للنسائي» («شذرات الذهب» ج ٣، ص ٢٧).

فلعل نسخها لا تزال توجد في ديار الأندلس، أو المغرب، إما عند أفراد العلماء أو في دور الكتب. فليلتفت علماء الغرب خاصة في التفتيش عن فقيد علم الحديث والرواية المستتر عن أنظار العالم، وهو «السنن الكبرى» للإمام النسائي. وتجدوننا منتظرين الإفادة منهم عنها بشوق منهمر ولهف مستمر.

ومن المؤكد أن نسخها كانت موجودة في عهد ابن عساكر (م ٥٧١)، والمنذري (م ٦٥٦)، والمزي (م ٧٤٢)، وابن كثير (م ٧٧٤)، والحافظ ابن حجر (م ٨٥٢). أما السيوطي (م ٩١١) فلا يمكننا الجزم بذلك. فتتبعنا وجودها لغاية ألف سنة من الهجرة على الأقل، ولا وجه في الظاهر لانعدامها بتاتاً في ظرف القرون الأربعة الأخيرة.

ابن حجر العسقلاني يثني على تحفة الأشراف:

قال ابن حجر في «النكت الظراف»:

أما بعد، فإن من الكتب الجليلة المصنفة في علوم الحديث كتاب «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» تأليف شيخ شيوخنا الحافظ أبي الحجاج يوسف بن الزكي: عبد الرحمن بن يوسف المزي، وقد حصل الانتفاع به شرقاً وغرباً، وتنافَسَ العلماء في تحصيله بُعداً وقُرباً».

فاختصره مؤرخ الإسلام الذهبي في مجلدين، وأبو العباس أحمد بن سعد الأنْدَرشي (م ٧٥٠)، وسماه «العمدة في مختصر الأطراف»، وكتب علاء الدين مغلطاي (م ٧٦٢) استدراكاً عليه، ذكر ابن حجر أن فيه أوهاماً، ثم استدرك الحافظ العراقي (م ٨٠٦) بعض ما استدركه على هامش نسخته، أتمها ابنه ولي الدين العراقي (م ٨٢٦) في جزء لطيف مضيفاً إلى استدراكاته بعض ما جمعه علاء الدين مغلطاي، ثم قيد ابن حجر كل ذلك وأضاف إليهاما استدركه هو في «النكت الظراف» المطبوع مع تحفة الأشراف.

وجمع الحافظ محمد بن فهد المكي (م ٨٧١) بين كتابي المزي، وابن حجر بكتابه «الإشراف على الجمع بين النكت الظراف وتحفة الأشراف».

بين الحافظين: المزي وابن كثير:

لازم ابن كثير شيخه جمال الدين المزي، وبه انتفع، وعليه تخرج، وقرأ عليه «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، لا بل ووضع ابن كثير عليه كتاب «التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل» جمع فيه بين تهذيب الكمال

لشيخه المزي، وميزان الاعتدال لشيخه الذهبي مع زيادات وتحريرات وتقييدات في الجرح والتعديل.

وابن كثير يصف شيخه، فيقول:

«وقد كان شيخنا الحافظ الكبير الجهبذ أبو الحجاج المزي تغمده الله برحمته من أبعد الناس عن هذا المقام ومن أحسن الناس أداء للإسناد والمتن بل لم يكن على وجه الأرض ــ فيما نعلم ــ مثله في هذا الشأن أيضاً وكان إذا تغرب عليه أحد برواية شيء مما يذكره بعض الشرح على خلاف المشهور عنده يقول هذا من التصحيف الذي لم يقف صاحبه إلا على مجرد الصحف والأخذ منها»(*).

ويروي عنه حديثاً فيقول: «قد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي قراءة عليه وأنا أسمع، أخبرنا أبو إسحاق المدرجي، أخبرنا زاهر بن أبي طاهر الثقفي، حدثنا زاهر بن أبي طاهر الشحامي، أخبرنا أبو سعد الكنجد روذي أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبو العباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيث عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال: قال لي ابن جريج: يا حسن حدثني جدك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدت، فسجدت الشجرة بسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة. اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وضع بها عني وزراً، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قام يقرأ السجدة ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة، رواه الترمذي عن قتيبة، وابن ماجه عن أبي بكر الخلاد كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»(**).

(*) الباعث الحثيث ص: ١٧٤.

(**) تفسير ابن كثير (٤:٣١).

وقد يعرض عليه إسناد بعض الأحاديث فيعرف ابن كثير وجه الصواب، يذكر «ابن كثير» عن «أمالي.. أحمد بن سليمان النجاد هذا الحديث»: حدثنا الحسن ابن أسلم بن سهل بحشل، حدثنا علي بن سليمان وهو أبو الشعثاء الحضرمي. ـــ شيخ مسلم ـــ حدثنا أبو معاوية قال: سمعت الأعمش يقول: تروح إلينا جني فقلت له: ما أحب الطعام إليكم؟ فقال الأرز: قال: فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً. فقلت: فيكم من هذه الأهواء التي فينا؟ قال: نعم فقلت: فما الرافضة فيكم؟ قال: شرنا.

قال ابن كثير: عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزي فقال: هذا اسناد صحيح إلى الأعمش(*).

وإذا كان إسناد هذا الحديث صحيحاً إلى الأعمش ـــ كما يقول المزي ـــ فإن متنه غريب. وفي النفس من هذا الحديث شيء.

وقد يكون الحديث غير مقبول فيسأل فيه شيخه، فالحافظ أبو بكر البيهقي يقول: «أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن نعيم وكيل المتقي ببغداد، حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوي الضرير حدثنا علي بن عمرو الأنصاري، حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً.

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما ... يقال الشيء كان إلا تحققا

وابن كثير يسأل فيقول: سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي عن هذا الحديث فقال: هو منكر ولم يعرف شيخ الحاكم، ولا الضرير(**).

وقد لا ينبه الشيخ على سند أو متن يجب الوقوف عنده ولذا يعتب ابن كثير على شيخه في حديث ذكره في «الأطراف» وهو الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب.

(*) المرجع السابق (٤:٤٣٠).

(**) تفسير ابن كثير (٣:٥٧٩).

وقد علق البخاري على هذا الحديث بقوله: قال لي أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري قال: سمعت سعيداً يخبر بهذا قال: وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه. ورواه ابن الهاد عن ابن شهاب عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي قال الحاكم: أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهـاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري.

ويعلق ابن كثير على هذا بقوله: «كذا حكاه شيخنا أبو الحاج المزي في «الأطراف» وسكت ولم ينبه عليه. وفيما قاله الحاكم نظر. فإن الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد عن ابن الهاد عن الزهري نفسه والله أعلم»(٥).

المصاهرة بين المزي وابن كثير:

فإذا انتقلنا من الشيخ جمال الدين المزي إلى زوجته الشيخة أم فاطمة: عائشة بنت إبراهيم بن صديق، فنراها عالمة جليلة، وامرأة صالحة كريمة، عديمة النظير في نساء زمانها، يؤرخ ابن كثير وفاتها في تاريخه (١٨٩:١٤)، فيقول في وفيات سنة ٧٤١:

وفي أول شهر جمادى الأولى توفيت الشيخة العابدة الصالحة العالمة قارئة القرآن أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق زوجة شيخنا الحافظ جمال الدين المزي عشية يوم الثلاثاء مستهل هذا الشهر وصلى عليها بالجامع صبيحة يوم الأربعاء ودفنت بمقابر الصوفية غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمهم الله. كانت عديمة النظير في نساء زمانها لكثرة عبادتها وتلاوتها وإقرائها القرآن العظيم بفصاحة وبلاغة وأداء صحيح، يعجز كثير من الرجال عن تجويده، وختمت نساء كثيراً، وقرأ عليها من النساء خلق وانتفعن بها وبصلاحها ودينها وزهدها في الدنيا، وتقللها منها، مع طول العمر بلغت ثمانين سنة أنفقتها في طاعة الله صلاة وتلاوة، وكان الشيخ محسناً إليها مطيعاً، لا يكاد يخالفها لحبه لها طبعاً وشرعاً فرحمها الله وقدس روحها، ونور مضجعها بالرحمة آمين.

---

(٥) تفسير ابن كثير (١٠٧:٢).

وللمزي ولد يدعى زين الدين عبد الرحمن، وكان شيخاً بدار الحديث، ذكره ابن كثير في تاريخه (١٤: ٢٢٧). في وفيات سنة (٧٤٩).

وتزوج ابن كثير من زينب بنت شيخه المزي وكانت عالمة حافظة للقرآن الكريم، من أسرة نقيّة طاهرة، وقد خَرَجَتْ من بيتِ محدث كبير إلى بيت عالم محدث، وقد ذكرها ابن كثير في خبر مَرَض أبيها ووفاته (١٤: ١٩٢)، ولها أخت تدعى فاطمة زوجة الفقيه تقي الدين محمد بن صدر الدين سليمان الجعبري الذي أرخ ابن كثير وفاته في تاريخه (١٤: ٢١١)، في سنة (٧٤٤).

هكذا دخل ابن كثير في هذه الأسرة العلمية وكان شيخه المزي يقدره، ويأخذ برأيه، ويوجه فكره.

كيف نبتت فكرة «جامع المسانيد والسنن»؟

يدين ابن كثير في وضع هذا الكتاب إلى شيخه الحافظ جمال الدين المزي، مما لا ريب فيه أن تطور فهرسة الأحاديث النبوية بطريقة صنع الأطراف لها قد نضج على يد الحافظ المزي بمؤلفه النفيس «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» الذي وضعه للكتب الستة ولواحقها.

والعمل الذي شرع الحافظ ابن كثير به عمل واسع مترامي الأطراف، وعملية خطيرة أقدم عليها شيخنا في أخريات حياته، فهو آخر كتاب صنفه وقد كلفه عناء كبيراً، وجهداً فائقاً، إلا أنه مما لا ريب فيه أنه تفوق به على شيخه المزي، وبذه فيه.

وهو آخر ما صنف ابن كثير بدليل أنه دعا الله أن يقيّضَ له من يكمله، وكأن قد، وقد كان على نحو ما سيأتي تفصيله.

ولكن كيف نبتت فكرة وضع هذا المصنف الشامل؟

كان الحافظ ابن كثير قد استوعب تحفة الأشراف استيعاباً وافياً، وكان يحتفظ بنسخته من التحفة، وقد وضع عليها بعض التقييدات، واستدرك عليها، على سبيل

المثال الحديث الوارد في مسند أنس بن مالك من التحفة (١٧٢:١)، ورقه (٥٦٥ ألف)، أخرجه البخاري في التفسير وهو قصة الرُّبيِّع بنت النضر، عن محمد؛ عن الفزاري عن إبراهيم بن محمد، عن حميد الطويل، عن أنس، وقد ألحقه ابن كثير، على هامش نسخته، وعليه تعليقُه ولم يكن بأصل التحفة.

(ومنها) الحديث الذي رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري عن أنس، وهو حديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله ابن رواحة بين يديه... الحديث.

(ومنها) حديث رواه أبو داود في البيوع، باب في الخرص عن يحيى بن معين، عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة ـ ألحقه ابن كثير وقال ابن حجر في النكت الظراف (٥٩:١٢): نقلته من خط الحافظ ابن كثير، فليحرر.

وكانت نسخة ابن كثير هذه من التحفة هي المعتمدة في نشر تحفة الأشراف، وقد كتبت بخط متقن جميل فرغ من نسخها في (١٣) شعبان سنة (٧٧٤)، نفس سنة وفاة الحافظ ابن كثير، بل شهرها، وفي آخرها ما نصّه «بلغت المقابلة على الأصل نسخة شيخنا المرحوم عماد الدين بن كثير رحمه الله». كتبه أحمد بن الحُباني.

وابن الحُباني هذا تلميذ الحافظ ابن كثير، هو الحافظ أحمد بن إسماعيل بن خليفة بن عبد العال الدمشقيّ صاحب التصانيف المتوفى (٨١٥) هـ. المترجم في الضوء اللامع وغيره.

وكلنا نعرف ما لأهمية مسند الإمام أحمد في دواوين السنة، وقد تمنى الحافظ الذهبي أن يُقَيِّضَ الله لهذا المسند من يرتبه ويخدمه، فقال: لعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامي من يخدمه ويبوّب عليه، ويتكلم على رجاله، ويرتب هيئته ووضعه، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوي، وقل أن يثبت حديث إلا وهو فيه. قال: وأما الحسان فما استوعبت فيه. بل عامتها إن شاء الله تعالى

فيه. وأما الغرائب وما فيه لين فروى من ذلك الأشهر، وترك الأكثر مما هو مأثور في السنن الأربعة، ومعجم الطبراني، الأكبر، والأوسط؛ ومسندي أبي يعلى، ومسند البزار، ومسند بقي بن مخلد، وأمثال ذلك.

وقال: ومن سعد مسند الإمام أحمد أنه قل أن تجد فيه خبراً ساقطاً.

ذكره الحافظ ابن الجزري في المصعد الأحمد، وأضاف:

«أما ترتيب هذا المسند، فقد أقام الله تعالى لترتيبه شيخنا خاتمة الحفاظ الإمام الصالح الورع، أبا بكر محمد بن عبد الله بن المحب الصامت، رحمه الله تعالى، فرتبه على معجم الصحابة، ورتب الرواة كذلك، كترتيب كتاب الأطراف، تعب فيه تعباً كثيراً.

ثم إن شيخنا الإمام مؤرخ الإسلام، وحافظ الشام عماد الدين أبا الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، رحمه الله تعالى، أخذ هذا الكتاب المرتب من مؤلفه، وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير، ومسند البزار، ومسند أبي يعلى الموصلي، وأجهد نفسه كثيراً وتعب فيه تعباً عظيماً، فجاء لا نظير له في العالم».

والحافظ ابن كثير كان يحفظ المسند عن ظهر قلب، وكان يحفظه معه: ابن قيم الجوزية، وشيخهما ابن تيمية، ولا يمكن الجزم بغير هؤلاء.

وكان هناك محاولة أخرى نهض بها الشيخ الإمام الصالح العالم أبو الحسن علي ابن زكنون الحنبلي، فقد رتب مسند الإمام أحمد على ترتيب صحيح البخاري.

اذن فقد استبان منهج العمل أمام الحافظ ابن كثير ألا وهو تفريغ مسند أحمد على تحفة الأشراف وبنفس طريقتها.

ولكن هل يرضى أفق المحدث العظيم بذلك؟ أم أن أفكاره لا تزال معقودة في سماء خياله، ولا تزال تهطل عليه بقطرها الذي لا ينضب ولا ينفد، وقد مد في جوانب عقله الخصيب، وصورته الحديثية الاستفادة من بقية كتب الحديث.

أليس المعجم الكبير للطبراني وهو مصنف أساساً على أسماء الصحابة قين أن يضاف إلي جامع المسانيد؟ وحتى يبدو العمل متألقاً وشاملاً فلنُضِفْ إليه مسند البزار، من الزوائد على الكتب الستة، وكذا مسند أبي يعلى الموصلي.

وليكن كل هذا في قالب أسماء الصحابة، وليكن أسد الغابة لابن الأثير هو أساس العمل.

اذن فهذه خطة ابن كثير في كتابه.

فهل استطاع الواصفون أن يصفوا منهجه أم تعثروا في ذلك؟ رغم أن تلميذ ابن كثير قد ذكر ذلك في المصعد الأحمد ونقلناه آنفاً من أنه أخذ كتاب ابن المحب مرتب أطراف مسند أحمد وأضاف إليه أحاديث الكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير، ومسند البزار، ومسند أبي يعلى الموصلي. (ذكره ابن الجزري).

فالشيخ أحمد شاكر طبع مسند أحمد، وبأوله وضع المصعد الأحمد لابن الجزري. سنة (١٣٦٥) هجرية، ومرت عليه هذه العبارة، وبعد عشر سنين في ذي العقدة (١٣٧٥) هـ يبدأ بطبع تفسير ابن كثير وأثناء تعرضه لمصنفات ابن كثير يقول عن جامع المسانيد (١: ٣٥-٣٦):

جامع المسانيد والسنن. ذكره الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم (الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن)، وأنه «جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبزار وأبي يعلى وابن أبي شيبة مع الكتب الستة». ولست أدري حقيقة هذا الوصف. فإن المؤلف رحمه الله لم يتمه. ثم المقدار الذي عمله لم يوجد منه إلا سبعة مجلدات بدار الكتب المصرية. وقد صورت المجلد الأخير منها. وفيه معظم (مسند أبي هريرة)، رتب فيه الأحاديث من مسند أحمد على أسماء التابعين الرواة عن أبي هريرة على حروف المعجم. وأول هذا المجلد أثناء حرف الجيم، وأول الأسماء فيه «جعفر بن عياض المدني عنه»، يعني عن أبي هريرة. وآخره «آخر مسند أبي هريرة». وهو في ٢٦٩ ورقة. وقد درسته طويلاً، بعملي في «مسند أبي هريرة» من مسند الإمام أحمد. ولم أجد فيه إشارة إلى «البزار وأبي يعلى وابن أبي شيبة»

ولكن تكثر الإشارة فيه إلى الكتب الستة. ولست أدري خطته فيه بالدقة. فإنه محتاج إلى دراسة وافية، بعد تصوير سائر المجلدات الموجودة. ومجموع أوراق المجلدات السبعة ــ على ما فيها من خروم ــ: ٢٢٨٠ ورقة.

وغيره كثير ممن تعرضوا للكلام حول جامع المسانيد، والوحيد الذي استطاع أن يأتي بوصف صحيح دقيق هو الدكتور /اسماعيل سالم عبد العال بكتابه الممتع ابن كثير ومنهجه في التفسير المطبوع ١٩٨٤ بالقاهرة.

* * *

وصف النسخة المخطوطة

اعتمدت في نشر الكتاب على نسخة دار الكتب المصرية رقم (١٨٤) حديث، ووصفها كما يلي:

المجلد الأول:

يتكون المجلد الأول من (٣٨٥) قطعة، مقاس ١٩×٢٦ سم، ويبدأ بأول الكتاب، وينتهي بأحاديث رواها ربيعة بن عباد الديلي.

وتشتمل الصفحة على (٢١) سطراً، بكل سطر حوالي (١٢) كلمة، وبأول هذا المجلد خطبة الكتاب، وهو بخط نسخي جيد، وعليه بعض الحركات، وميزت العناوين بمداد ثقيل أحمر.

وتاريخ النسخ (٧٨٣) هجرية.

المجلد الثاني:

يتكون هذا المجلد من (٣٢٦) قطعة، مقاس (١٩×٢٦) سم، ويبدأ بمسند ربيعة بن عثمان بن ربيعة التيمي، وينتهي بمسند: عبد الأعلى بن عدي، وقال في آخره: «يأتي في الجزء الخامس والثلاثين من اسمه: عبد الله».

وفي اللوحة الأخيرة:

فرغ منه كاتبه الفقير إلى الله تعالى علي بن سعد الطرابلسي في الثلث الأخير من ليلة الاثنين من جمادى الأولى سنة (٧٨٣) وشاهداً في الوقف (   ) المنصوري قدس الله روحه وبل بالرحمة ثراه ورضي عنه وأرضاه، غفر الله له ولوالديه ولمالكه ومن كان السبب في تأليفه وكتابته آمين يا رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

وتشمل الصفحة (٢١) سطراً، بكل سطر حوالي (١٢) كلمة وقد ميزت أسماء الرواة بالمداد الأحمر، وقلّ الضبط حتى كاد ينعدم عن الجزء الأول.

المجلد الثالث:

يتكون من (٣٤٠) قطعة، مقاس ١٩×٢٦ سم بنفس مزايا المجلد الثاني، ويبدأ بمسند: عبد الله بن أبي أحمد بن جحش الأسدي، وآخره مسند غيلان بن سلمة الثقفي في نهاية حرف الغين، وتاريخ نسخه يوم السبت عاشر جمادى الآخرة من سنة (٧٨٣).

المجلد الرابع:

يبدأ بحرف الفاء، بمسند فاتك بن عمرو الخطمي، وينتهي بأحاديث أبي أمامة، ويتكون من (٣٥٦) قطعة، مقاس (١٩×٢٦) سم، وجاء في آخره: «تم الجزء بحمد الله وعونه فصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، و:

ان تجد عيباً فسد الخللا فجلّ من لا عيب فيه وعلا».

المجلد الخامس:

ويبدأ بأحاديث أبي سلمة عن أبي أمامة، وفي هذا الجزء تنتهي المسانيد على الكنى، ويبدأ بسرد المجاهيل ويصل في نهاية هذا المجلد إلى عبد الله بن عميرة عن زوج ابنة أبي لهب (مجهول).

وفي آخره: آخر الجزء الخامس والثمانين، وبتمامه تمام الخامس، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

يتلوه في السادس: عبد الله بن كعب.

ثم جاء في لوحة أخيرة ملحقة بهذا المجلد:

رأيتُ بخط المصنف على كتاب ابن الصامت يقول اسماعيل بن كثير ألهمه الله رشده وغفر له ولطف به: فرغت من هذا الكتاب في ليلة الأحد العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وسبع مئة هجرية خارجاً عن مسانيد المكثرين مثل: أنس، وجابر، وسعد بن مالك أبي سعيد الخدري، وعبد الله بن مسعود،

وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة، وعائشة رضي الله عنهم.

وهذا المجلد يتكون من (٣٥٠) لوحة، قياس (١٩×٢٦) سم، ونرى في هذا المجلد أن تحريك الحروف قد زاد عن الأجزاء السابقة.

المجلد السادس منه:

لا يبدأ هذا المجلد حيث انتهى المجلد السابق لكنه يبدأ بمسند النساء، ويستمر إلى آخر مسند النساء عند اللوحة (١٨٢)، وعندها يبدأ مسند أحد المكثرين الذين نوه عنهم بآخر المجلد الخامس، وهو أنس بن مالك، ولكنه ينتهي برواية حميد بن أبي حميد، عن أنس وبه نقص من آخره، حيث يبلغ عدد لوحاته (٢٥١) قطعة، مقاس (١٨×٢٥) سم بخط نسخ جيد، وجاء في آخر مسند النساء عند اللوحة الأخيرة منه:

قال ولد المصنف: رأيت بخط والدي ـــ تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته ما صورته:

> **«الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، يقول اسماعيل بن كثير ألهمه الله رشده وغفر له ولطف به: فرغت من هذا الكتاب في ليلة الأحد العاشرة من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وسبعمائة هجرية خارجاً عن مسانيد المكثرين مثل أنس، وجابر، وسعد بن مالك أبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة، وعائشة رضي الله عنهم، وأرجو من الله تيسير ذلك، وهو أخف مؤنة وأيسر مما تقدم، ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً على كل حال، ونسأله العون إنه حسبي ونعم الوكيل، وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم».**

المجلد السابع:

هذا مجلد يشمل مسند عبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود من المكثرين اللذين ذكرهم آنفاً، ويتكون من (٣٢٦) لوحة، يستغرق مسند ابن عمر منه (٢٢٨) لوحة والباقي في مسند عبد الله بن مسعود.

المجلد الثامن:

يشمل هذا المجلد (٢٧٢) قطعة، ويبتدىء برواية التابعي جعفر بن عياض عن أبي هريرة، وينتهي بآخر مسند أبي هريرة، وتاريخ النسخ (٧٨٩) على ما جاء في آخره، وهو مقاس (١٩×٢٨) سم، بخط نسخي لا بأس به.

الجزء الثالث من النسخة المغربية:

تتكون هذه النسخة من (٢٦١) ورقة وتشمل المجلد الثالث من جامع المسانيد لابن كثير، وتشتمل على مسانيد الصحابة من حرف السين إلى العين، فيبدأ بمسند سهل بن أبي حثمة، وينتهي بمسند عمارة بن عقبة بن أبي معيط، وجاء في آخره:

«تم الجزء الثالث بحمد الله ومنه وحسن توفيقه وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، يتلوه في الرابع: عمار بن ياسر رضي الله عنه.

فرغ من كتابته محمد بن الحسن بن علي البدراني في ليلة يسفر صباحها عن يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر الله المحرم سنة (٨٣٠) ولله الحمد والمنة على كل حال.

ومسطرته (١٨×٢٦,٥)، (٢٩) سطراً بكل صفحة، وبخط نسخي جيد[*].

(*) في فهرس المكتبة الأزهرية جاء عن جامع المسانيد ما يلي:
جامع المسانيد والسنن، الهادي لأقوم سنن. وهو المسند الكبير لابن كثير، وهو العلامة الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير، القرشي البصري الدمشقي الشافعي، المولود سنة ٧٠١ هـ. (سنة ١٣٠٢ م)، والمتوفى سنة ٧٧٤ هـ (سنة ١٣٧٢ م) أوله: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب والحكمة. الخ. جمعه من البخاري ومسلم، ومن سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة، ومن مسند الإمام أحمد وأبي بكر البزار وأبي يعلى الموصلي، والمعجم الكبير للطبراني، وشرط أن يترجم صحابي له رواية عن رسول الله ﷺ مرتباً ذلك على حروف المعجم.

. . . .

ـــ الموجود منه الجزء الخامس من نسخة في مجلد بقلم معتاد قديم، به آثار رطوبة وترميم وخرم، وبأوله نقص، في ٢٢٧ ورقة، ومسطرته ٢١ سطراً ـــ ٢٥ سم [٣٥] ٢٥٤.

وقد اطلعت على هذه النسخة، فلم أجدها من كتاب «جامع المسانيد» لابن كثير، فلعلها للخوارزمي كما أن هنالك جزءاً من جامع المسانيد في مكتبة الأوقاف ـــ بغداد لم نستطع الحصول عليه.

تحديد النقص في الكتاب

في المجلد الأول من جامع المسانيد عند اللوحة (١٩٦) عندما جاء مسند جابر ابن عبد الله، قال: «كتبنا مسنده على حدة».

وفي المجلد الثالث، عند اللوحة (٧٩)، قال: مسند عبد الله بن عباس أفردنا له مسنداً على حدة.

وعند اللوحة (٨٢) من المجلد الثالث، قال: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص أفردنا له مسنداً على حدة.

عند اللوحة (٢٢٠) من المجلد الثالث، قال: «مسند علي بن أبي طالب أفردته مع الخلفاء الراشدين».

وعند اللوحة (٨١) من المجلد الثالث، قال: أبو بكر الصديق يأتي في الكنى، وقد ذكره شيخنا في الأطراف في الأسماء، أوردت مسنده على حدة في مجلد مرتباً على أبواب الأحكام، وكذلك مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ثم قال في الكنى، عند اللوحة (٤٥) من المجلد الخامس: أبو بكر الصديق في مسند الخلفاء الراشدين.

وعند اللوحة (٨٣) من المجلد الثالث، قال: عبد الله بن عمر، سيأتي مسنده على حدة.

وعند اللوحة (٨٩) من المجلد الثالث، قال: عبد الله بن مسعود له مسند مستقل على حدة.

وعند اللوحة (١٦٩)، من المجلد الثالث، قال: عثمان بن عفان أحد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، الأربعة أفردته معهم.

وعند اللوحة (٢٤١) من المجلد الثالث، قال: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين

تقدم مسنده مع الخلفاء الأربعة، وقد أوردنا له مسنداً آخر مرتباً على أبواب الفقه بما عنه من الأحاديث والآثار، ولله الحمد والمنة.

عند اللوحة (١٩٩) من المجلد الخامس، قال: أبو سعيد الخدري «كتبنا مسنده على حدة».

وعند اللوحة (٧٤) من مسند النساء، قال: عائشة بنت أبي بكر الصديق، أم المؤمنين، مسندها على حدة.

فهل صنف ابن كثير هذه المسانيد؟

ولكي يستبين لنا ذلك في وضوح نستطيع أن نستقرىء تاريخ ابن كثير في المجلد الأخير، لقد انتهت رحلة هذا الشيخ الجليل، وكان قد أضرّ في آخر عمره، فأقعده العمى عن متابعة مهمته في متابعة الأحداث وكتابة التاريخ عند سنة ٧٦٧ هـ بل إن المتتبع للجزء الرابع عشر من كتاب (البداية والنهاية) يجد بعض النصوص تشير إلى أنها من كتابة أحد تلاميذه، في حوادث هذه السنة ٧٦٧ هـ نقرأ ما يلي:

درس التفسير بالجامع الأموي:

«وفي صبيحة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة سبع وستين وسبعمائة حضر الشيخ العلامة الشيخ عماد الدين بن كثير درس التفسير الذي أنشأه ملك الأمراء نائب السلطنة الأمير سيف الدين منكلي بغا رحمه الله تعالى من أوقاف الجامع، الذي جددها في حال نظره عليه أثابه الله، وجعل من الطلبة من سائر المذاهب خمسة عشر طالباً، لكل طالب في الشهر عشرة دراهم، وللمعيد عشرون، ولكاتب الغيبة عشرون، وللمدرس ثمانون، وتصدق حين دعوته لحضور الدرس، فحضر واجتمع القضاة والأعيان، وأخذ في تفسير أول سورة الفاتحة، وكان يوماً مشهوداً، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعفة»(*).

(*) البداية والنهاية (١٤:٣٢١).

ويقول تلميذه الحافظ شمس الدين بن الجزري في المصعد الأحمد (٣٩-٤٠) عن جامع المسانيد:

وأجهد نفسه كثيراً وتعب فيه تعباً عظيماً، فجاء لا نظير له في العالم، وأكمله إلا بعض مسند أبي هريرة، فإنه مات قبل أن يكمله، فإنه عوجل بكف بصره، وقال لي رحمه الله تعالى: لا زلتُ أكب فيه في الليل والسراج ينونص حتى ذهب بصري معه، ولعل الله يقيض له من يكمله، مع أنه سهل، فإن معجم الطبراني الكبير لم يكن فيه شيء من مسند أبي هريرة رضي الله عنه.

وكلام ابن الجزري منصب على مسند أبي هريرة فقط.

والفترة التي بين انتهاء تصنيف جامع المسانيد سوى مسانيد المكثرين حتى أضرَّ ابن كثير في حدود الثلاث سنوات فقط.

فلعله صنف مسند أنس الذي وجدنا منه قطعة فقط، ومسند عبد الله بن عمر كاملاً، وكذا عبد الله بن مسعود، ومسند أبي هريرة. ولم يتم الباقي.

أما الإشارات التي وردت في الكتاب مثل ما ورد في مسند: ٨١٢ ــ صخر ابن حرب، لوحة (٢٢٦) من المجلد الثاني، قال: حديث هرقل يأتي في مسند عبد الله بن عباس.

ــ وكذا عند اللوخة ٢٦٢، من المجلد الثالث قال: وقد ذكرته في مسند عمر بن الخطاب، وهو أليق من ذكره في مسند طلحة.

ــ كذا عند اللوحة (٢٧٦) المجلد الثالث، قال: وقد ذكرناه في مسند عمر بن الخطاب. [راجع: ٨٦٦ ــ مسند عاصم بن عمر].

فهل هذه الإرشادات تدل على أنه صنف هذه المسانيد أم أنها ذكرت جرياً على عادة المزي في تحفة الأشراف عند العزو إلى مكان آخر؟.

لا ريب أنه أضاف تحفة الأشراف إلى مسند أحمد، ونقل هذه العبارات بحذافيرها.

اذن فيمكن القول إن الحافظ ابن كثير لما صنف كتابه خارجاً عن مسانيد المكثرين استطاع فيما بعد أن يصنف بعض المسانيد، وترك البعض الآخر.

بالإضافة إلى ذلك فقد فقد من كتابه أشياء صنفها خاصة ما بين المجلد الخامس، والسادس، حيث انتهى المجلد الخامس بآخر الجزء (٨٥)، وبدأ السادس بالجزء (٨٩) أي أن هناك ثلاثة أجزاء ــ حسب تصنيف ابن كثير مفقودة من المجلد وتقدر بحوالي (٧٥) لوحة.

ــ كذا المجلد المشتمل على مسند أبي هريرة فقد أوله وضاع، وبقي منه الجزء الموجود وسبق لنا وصفه.

اذن يمكن حصر الجزء الناقص كما يلي:

١ ــ من مسانيد المكثرين:

ــ مسانيد الخلفاء الراشدين الأربعة.

ــ مسند جابر بن عبد الله.

ــ مسند عبد الله بن عباس.

ــ مسند عائشة أم المؤمنين.

ــ مسند أبي سعيد الخدري.

ــ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص.

٢ ــ تكملة لبعض المسانيد:

ــ تكملة مسند أنس من رواية التابعي حميد إلى آخر المسند.

ــ مسند أبي هريرة الخرم الموجود.

٣ ــ (٧٥) لوحة من مجلد (لعله مفقود) تشمل المجاهيل من عبد الله بن كعب إلى آخر المجاهيل.

* * *



«خصائص جامع المسانيد والسنن»
وتبيين خطة ابن كثير في تصنيفه

١ ـ صنف ابن كثير هذا الجامع على المسانيد والمتون وليس الأطراف، حيث يورد متن الحديث كاملاً، اللهم إلا المطولات جداً فقد يشير إليها إشارة على أن بعض هذه المطولات يكون قد تقدم من رواية أخرى.

٢ ـ يبدأ ابن كثير جامعه بتفريغ كتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لعز الدين بن الأثير علي بن محمد الجزري المتوفى (٦٣٠)، فيورد اسم الصحابي، ثم حديثه، وغالباً ما يكون هذا الصحابي ليس له إلا حديثاً أو حديثين، يوردهما من أسد الغابة، وقد ينقل تعليق ابن الأثير على الحديث أو الحديثين، وقد يورد ترجمة موجزة له.

٣ ـ فإن كان لهذا الصحابي أحاديث وردت في مسند أحمد يبدأ بترتيب هذه الأحاديث من رواية التابعين عنه على الأحرف الأبجدية متبعاً نهج الحافظ المزي في تحفة الأشراف.

وقد تتكرر متون الأحاديث عند الإمام أحمد فيوردها كلها.

٤ ـ وبعد أن يورد أحاديث مسند أحمد ينظر إن كان لهذه المتون روايات عند أصحاب الكتب الستة، يعني ـ يقابله على تحفة الأشراف.

ـ فإن كان لهذا المتن والإسناد رواية عند البخاري ومسلم، قال: أخرجه الشيخان، أو قال: أخرجه الجماعة، ثم يورد طريق إسناد الجماعة مختصراً من تحفة الأشراف.

ـ وإن أخرجه أبو داود، أو الترمذي، أو غيرهما فإنه يذكر ذلك، مختصراً أيضاً، فيقول: أخرجه أبو داود عن شيخه فلان...

٥ ــ فإن انتهى من سرد أحاديث مسند الإمام أحمد لهذا الصحابي من رواية هذا التابعي، وبقي أحاديث ليس لها مطابق من تحفة الأشراف، أوردها، ثم عقب ذلك بقوله: تَفَرَّدَ بِهِ.

وهذه العبارة تقتضي أن هذا الحديث لم يروه غير الإمام أحمد = أي أنه من زوائد الإمام أحمد على تحفة الأشراف.

٦ ــ وعلى هذا النحو إذا بقي أحاديث من تحفة الأشراف من رواية هذا التابعي عن هذا الصحابي، فإنه يبدأ بإيرادها بعد الأحاديث التي تفرد بها الإمام أحمد عن الكتب الستة، مخرجاً لها من تحفة الأشراف أيضاً.

٧ ــ ويضاعف من روعة هذا الجهد الذي يبذله المصنف أنه بعد ذلك يبدأ بسرد الأحاديث الموجودة في المعجم الكبير للطبراني، وهي زوائد على مسند أحمد، والكتب الستة. وغالباً ما يعطي لهذه الأحاديث أرقاماً، فيقول:

أحاديث أخر من رواية التابعي عن الصحابي، (الأول) ثم يبدأ بكتابته، ثم (الثاني)، وهكذا، ولا ينسى أن يذكر الإسناد، فإن اتفقت جملة أحاديث بإسناد واحد، استخدم لفظ: (وبه)، يعني بهذا الإسناد المتقدم في الحديث الذي قبله.

٨ ــ وعلى هذه الشاكلة أضاف أحاديث البزار من مسنده، وهي الأحاديث التي وجدها في مسند البزار ولم ترد لا في مسند أحمد، ولا في تحفة الأشراف، ولا في المعجم الكبير للطبراني.

٩ ــ فإذا بلغ ابن كثير هذه الغاية كان طبيعياً أن يضيف مسند أبي يعلى، فإذا به يستعرضه، ويأخذ منه الأحاديث التي رواها في مسنده، ولم ترد لا في مسند أحمد، ولا في تحفة الأشراف، ولا عند الطبراني، ولا عند البزار، بل هي من مسند أبي يعلى فقط.

١٠ ــ فإذا اشترك مثلاً الطبراني، والبزار، وأبو يعلى في رواية حديث أشار إلى ذلك، وان اشترك اثنان فقط منهم وضح ذلك، وان رواه واحد منهم فقط، قال مثلاً: رواه أبو يعلى عن... ويسرد الإسناد.

١١ ــ فإذا انتهى من سرد للأحاديث التي رواها أبو يعلى انتقل إلى تابعي آخر روى عن هذا الصحابي، وهكذا حتى يستنفد رواية كل من روى عن هذا الصحابي، من صحابة، أو تابعين، أو معروفين بالكنية، فالنساء، فكنى النساء.

١٢ ــ فإن كان الحديث قد تقدم من رواية صحابي آخر أشار إلى ذلك، أو سيأتي في رواية صحابي آخر، أشار إلى ذلك أيضاً.

١٣ ــ وعلى هذا النحو يتم بقية الكتاب، حتى إذا ما وصل إلى المجاهيل، فإنه يجمعهم من أسد الغابة، ومسند أحمد، وتحفة الأشراف.

١٤ ــ أما مسانيد المكثرين وعندنا مسند عبد الله بن عمر (كاملاً)، وكذا مسند عبد الله بن مسعود، وحوالي ٩٠٪ من مسند أبي هريرة، وربع مسند أنس ابن مالك، فإنه يسلك طريقاً مختلفاً بعض الشيء عما سلكه شيخه المزي في تحفة الأشراف.

لقد قسم المزي مرويات الصحابة على تراجم جميع من يروي عنهم من التابعين وبعض الصحابة، كل ذلك على نسق حروف المعجم، وله تقسيم ثالث لمرويات كل تابعي تحت كل صحابي مكثر إذا كثرت الروايات عن ذاك التابعي حيث يقسمها على تراجم من يروي عنه من أتباع التابعين. وإذا وجد أحداً من هؤلاء الأتباع من له عدة تلاميذ يروون عنه قسم مروياته تقسيماً رابعاً على تراجم أتباع أتباع التابعين، فيترجم مثلاً:

**** حمَّاد بن سلمة، عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة**

أو

**** معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة.**

وهذا التقسيم الرباعي قليل في تحفة الأشراف، والأكثر (الثلاثي)، وهو الأعم.

ولكن ابن كثير يختصر هذا الطريق.

ونراه لا يقسم على أتباع التابعين.

فإن قال إسحاق بن عبد الله عن أنس فهو يسرد كل الأحاديث التي رواها إسحاق دون اعتبار لتقسيم رواية إسحاق على أتباع التابعين.

بينما في تحفة الأشراف يقسم رواية إسحاق بن عبد الله على رواية أتباع التابعين فتصل معه إلى ثلاثة عشر قسماً.

ويقصد ابن كثير من ذلك إلى الاختصار وتجميع الروايات.

ولا بأس أن أقدم مثالاً على ذلك.

الحديث رقم (٢٨) من مسند أنس بن مالك في طبعة جامع المسانيد هذه، ويقع في المجلد (٢١)، قال ابن كثير ــ ثم يروي هذا الحديث من مسند أحمد حيث يقول:

٢٨ ــ حدثنا إسحاق بن سليمان، سمعت مالك بن أنس، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك قال: «كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه جذبة حتى رأيت صفح ــ أو صفحة ــ عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جذبه، فقال: يا محمد، أعطني من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء».

رواه البخاري عن يحيى بن بكير، وإسماعيل بن أبي أويس، وعبد العزيز بن عبد الله الأويسي.

ومسلم عن عمرو بن محمد الناقد، عن إسحاق بن سليمان. أربعتهم عن مالك به.

ورواه مسلم أيضاً، وابن ماجة، عن يونس عن ابن وهب، عن مالك به.

ورواه مسلم من حديث عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، وعكرمة بن عمار، وهمام بن يحيى، كلهم عن إسحاق بن عبد الله به مثله أو نحوه.

فهذا الحديث من مسند أحمد (٣:١٣٩)، وأورده المزي في تحفة الأشراف في أربعة مواضع من رواية إسحاق بن عبد الله، عن أنس:

ـ فأورده في رقم (١٧٩) من رواية الأوزاعي، عن إسحاق، عن أنس... أخرجه مسلم فقط.

ـ وأورده المزي في رقم (١٨٨)، من رواية عكرمة بن عمار اليمامي، عن إسحاق، عن أنس... أخرجه مسلم فقط.

ـ وأورده في (٢٠٥) من رواية الإمام مالك، عن إسحاق، عن أنس، أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجة.

ـ وأورده المزي في التحفة أيضاً برقم (٢١٨) من رواية همام بن يحيى العَوذي البصري، عن إسحق، عن أنس، أخرجه مسلم فقط.

فهو أربعة أحاديث عند المزي في تحفة الأشراف، وحديث واحد عند ابن كثير في جامع المسانيد.

١٥ ـ أمر آخر سبق أن تعرضنا له في وصف النسخة الخطية، فإن ابن كثير اختلف عن شيخه المزي في ترتيب الكتاب إلى مقلين ومكثرين، فصنف أولاً المقلين، ثم فرغ للمكثرين.

ومفهوم المكثر عنده ما زادت روايته عن الألف أو أقل بقليل كما في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، فإن أحاديثه حوالي (٨٧٩)، حسبما صنفنا لإكمال النقص، بينما هو يذكر في المقلين أبا ذر، وأحاديثه تزيد عن المئتين، وكذا سعد بن أبي وقاص، وأبا أمامة الباهلي، ويضع أبا بكر الصديق مع المكثرين بينما أحاديثه (١٢٨) حديثاً.

١٦ ـ في مسألة الأسماء والكنى لا يلتزم بما أورده شيخه بل يتبع الأسماء والكنى من مسند الإمام أحمد؛ فمثلاً دينار في تحفة الأشراف، وهو عند أحمد أبو عبد الله في الكنى، فيأتي في جامع المسانيد في الكنى عن سعد، وهكذا.

١٧ ــ عثرت أثناء قراءة نص جامع المسانيد وتخريجه بوجود نصوص يذكر أنها من مسند أحمد وليست في المتن المطبوع، مثل الحديث رقم (٧٤٩٢) عن عمرو ابن مرة، والحديث (٧٦٩٧) أتذكرين يوم همدان... أما انه خير لمن اتقى منهم. رواه فروة بن مسيك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال عنه المصنف: تفرد به أحمد.

ومثل ذلك في مسند عمرو بن مرة الجهني أورد له من مسند أحمد عدة أحاديث، قال عنها: تفرد به، وليس له في مسند أحمد المطبوع سوى حديث واحد.

انظر مسند أحمد (٤:٢٣١)، وجامع المسانيد المجلد العاشر ١٣٨٠ ــ مسند عمرو بن مرة، ح ٧٤٩١ م ــ ٧٤٩٢، ٧٤٩٣، ٧٤٩٤، ٧٤٩٥،...

١٨ ــ نادراً ما ينقل ابن كثير من مصادر أخرى غير التي التزم بها، وقد وجدت بعض الأحاديث القليلة، فمثلاً الحديث رقم (٦٥٢٠) في مسند عروة البارقي أخذه من مسند الطيالسي، وكذا أخذ منه الحديث (١١٦٤٨) في مسند أبي رهم (المجلد: ١٤)، وهو في مسند الطيالسي (ص: ١٨٩)، ومن مستدرك الحاكم الحديث (٣١٤٢) عن سعد بن تميم: أي الناس خير؟ قال: أنا وأقراني، وفي مسند أنس أخذ من المختارة للضياء، ولا يطرد هذا على قاعدة، ولكن قد يذكره بالصدفة.

١٩ ــ أحياناً ــ لأهمية ذلك ــ ينقل تفصيل التخريج من تحفة الأشراف، ويسبقه بلفظ: قال شيخنا، أي المزي، هذا عندما يود ذكر اختلاف الروايات لحديث ما.

٢٠ ــ ابن كثير يختلف في جامع المسانيد عن تحفة الأشراف أنه يخرج الحديث، فيذكر من أخرجه وبالألفاظ التامة دون الرموز، ويسوق الأسانيد كذلك.

٢١ ــ نقده لبعض الأحاديث:

عندما يمر مع ابن كثير حديث في سنده ضعيف، أو في متنه نكارة، فإنه يذكر ذلك.

وقد تردد ذلك كثيراً في ثنايا كتابه:

ـ الحديث (٢٨٢٦) في المجلد الرابع، وهو حديث: ما بعث الله نبياً إلا عاش نصف الذي عاشه النبي الذي كان قبله!.

فقال: يقتضي ذلك أن عيسى عاش (١٢٦) سنة، وهذا خلاف المشهور أنه رفع وله (٣٣) سنة، ثم إذا أضيف العدد على هذا الوجه أدى إلى تضعيف أحاديث لا تنحصر.

ـ وانظر تعليقه أيضاً على الحديث (٧٨٦١) في مسند قتادة بن النعمان.

ـ الحديث (٧٨٦١)، إن الله لما قضى خلقه استلق، فوضع إحدى رجليه على الأخرى... قال عنه: هذا إسناد غريب جداً، وفيه نكارة شديدة، ولعله ملق من الإسرائيليات اشتبه على بعض الرواة فرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت فعل مثل هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح، وبعض العلماء كره هذه لأن فيها انكشاف العورة لا سيما لمن ليس عليه سراويل. والله أعلم.

ـ الحديث (٨٩٥٢) في مسند معاوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين اتخذوا آيات الله دولاً، وعباد الله خولاً، وكتابه دغلاً... قال عنه: هذا الحديث منكر جداً، وأبو قبيل عنده مناكير كثيرة فالله أعلم.

ـ حديث رقم (٩٣٧٨) فيما رُوِي عن مكلبة بن ملكان وزُعم أن له صحبة، وأنه روى في فضل الشيب في الإسلام.... وهو حديث طويل، قال:

قال الحافظ أبو الحسن بن الأثير رحمه الله في كتابه أسد الغابة بعد إيراد ما تقدم أخرجه أبو موسى، ولو كان تركه لكان أصلح، وكذلك يقول إسماعيل بن كثير القرشي إن هذا المذكور بهذه الترجمة لا وجود له، والله أعلم وإن كان له وجود فليس بصحابيّ قطعاً لضعف الإسناد إليه، ولو كان مثل هذا جاء إلى حدود الثلاثمائة تداعى على السماع منه الأئمة والحفاظ من أهل ذلك القطر ولرحل إليه أهل الدنيا من سائر أرجائها، ومدينة خوارزم كان بها من الأئمة وغيرهم في هذا

الخبر وقبله وبعده ولم يذكره أحد منهم ولا روى عنه سوى مظفر بن عاصم هذا، وهو مجهول الحال والعين أيضاً، ومثل هذا لا يوثق بخبره بل يتعين رده وإنكاره والله أعلم.

ـ الحديث (٨٣١٩): إذا قلَّ الدعاء نزل البلاء، وإذا جار السلطان احتبس المطر... قال: وأخلق بهذا الحديث أن يكون موضوعاً.

ـ الحديث (٨٣٦٥)، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخيل فيها شيء؟ قال: لا، إلا ما كان منها للتجارة.

قال عنه: [في إسناده] الشاذكوني ضعيف لا يعبأ به وإن كان حافظاً ومقارباً للأئمة في الطلب، وعليه، لم يُقتد بـه.

ـ الحديث (٨٣٧٠): إن سَرَّكم أن تقبل صلاتكم فليؤمكم خياركم فإنهم وفودكم... قال:

وقد رواه الشيخ أبو عمر بن عبد البر، وكأنه وقع في مسنده عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي، حدثني مرثد، فقال: هذا عندي وهم وغلط لأن من قتل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدركه القاسم، ولا يجوز أن يقول فيه: حدثني لأنه منقطع، أرسله القاسم، والله أعلم.

ـ الحديث (٨٦٣٤) رواه الطبراني عن ابن لهيعة، عن أبي قبيل، عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن معاذ بن جبل، فذكر حديثاً فيه ذكر مقتل الحسين وذم يزيد بن معاوية، والوليد بن يزيد، وأنه فرعون هذه الأمة وفيه نهاية بني أمية، وولاية بني العباس، وقال عنه:

وهـو من غرائب الأحاديث بل من منكراتها، وربما يرتقي منعكساً إلى الوضع أدخله الرافضة في حديث ابن لهيعة، وكان قد ساء حفظه بل لحقته غفلة وزوال عقل لفقد بعض ماله وكتبه، وأبو قبيل الحضرمي شيخه يأتي في هذا الباب بمنكرات لا تؤثر، والله أعلم.

ـ حديث (١٢٠٥٠) في مسند أبي قدامة الأنصاري، قال: ذكره ابن منده في الصحابة، وذكر أنه شهد أحداً. وأنه قُتِلَ بصفين مع علي، ثم روى بإسناد له مظلم لا يساوي مداده. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي يوم غدير: خُم: من كنت مولاه فعلي مولاه. الحديث.

ـ الحديث (١٣٢٠٨) في مسند أبي معن (آخر) غير منسوب أورد أحاديث، ثم قال: قال الحافظ أبو موسى: «أبرأ إلى الله من هذا الإسناد...» قال ابن كثير: قلت: وأنا ابن كثير «وأنا».

ـ حديث (١٢٢١٦) أطعمني جبريل الهريسة، قال: وهذا منكر جداً.

ـ حديث (١١٩٤٣) في مسند أبي غليظ بن أمية بن خلف الجمحي... بحديث هذا أول طير صام عاشوراء رواه أبو داود...، قال عنه: وبالجملة، فهذا حديث منكر جداً، ومن رواته من لا يعرف حاله ولا عينه.

وهذا قليل أوردناه، وعلى هذا المنوال يتعرض لبعض الأحاديث، وليست في مسند أحمد، ولا في الكتب الستة.

٢٢ ـ تباركه ببعض الأحاديث:

فقد جاء في الحديث (٨٠٧٩) في مسند كعب بن مالك الأنصاري: والحديث في مسند أحمد، ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وهو:

إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه.

هذا حديث عظيم الإسناد والمتن إذ فيه بشارة لكل مؤمن أن نفسه حين تقبض من جسده تصير طائراً في الجنة، يأكل من ثمارها، ويشرب من أنهارها إلى يوم القيامة، فيرجع بإذن الله إلى جسدها الذي كانت تغمره في الدنيا.

عملي في الكتاب

كان اتصالي بكتاب جامع المسانيد والسنن عام (١٩٧٦) بدار الكتب المصرية، وقتئذٍ قرأت جزءاً كبيراً من النسخة الخطية المحفوظة بالدار، وكنت أكتب موجزاً عنها في مذكرة مفردة، ثم بدأت أجمع المعلومات عنها من مصادرها وبدا لي ما للكتاب من أهمية بالغة، فالحديث النبوي الشريف له المنزلة الثانية بعد القرآن الكريم في تشريع الإسلام، وهي منزلة كان من الطبيعي أن تجعل المسلمين منذ عهد الرسول عليه السلام يهتمون بروايته اهتماماً بالغاً، وكان الصحابة المدد الذي لا ينضب لحكايته، حتى إذا ذهبوا خلفهم التابعون يحكون منه ما سمعوه عنهم، وظل ينتقل من جيل إلى جيل أو قل من ألسنة جيل إلى ألسنة جيل حتى اليوم، فهو حديث، وهو سُنَّةٌ، حضَّ الرسول صلى الله عليه وسلم على نقلها، فقال: «اللهم أرحم خلفائي» فسئل: من خلفاؤه؟ فقال: «الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس».

وفي خطبة حجة الوداع: «نضَّرَ الله امرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأدَّاها؛ فربَّ حاملِ فقه إلى من هو أفقه منه».

ولكن النقص يعتور الكتاب، ولا بد من البحث الطويل المضني عن نسخ مخطوطة أخرى، فشددت الرحال إلى مكتبة جامعة برلين بجمهورية ألمانية الاتحادية وبدأت بقراءة فهارس الكتب العربية بها، ومنها إلى (جوتنجن)، و (أرلانجن)، ولايدن بهولندة، وبدأت في مراسلة أهل العلم، والمكتبات الخطية، وأرسلت إلى صاحب تاريخ التراث العربي ــ عن طريق مكتبة (بريل) فلم يتبين له أمرها.

وكل ما عثرت عليه كان جزءاً من الكتاب من مكتبة جامعة الرباط يساوي سدس الكتاب، ومسند عبد الله بن عمر ومعه ابن مسعود، زيادة على نسخة دار الكتب الخطية.

ومع كل ما كان يظهر من صعوبة العمل في الكتاب إلا أن الله ألهمني أن أبدأ بانتساخ ما أقدر عليه، وفي أثناء ذلك استطعت أن أحدد النقص في المخطوطات (انظره في باب هل صنف ابن كثير هذه المسانيد؟ من هذه المقدمة).

ولما أتممت انتساخ المجلد الأول وهو يربو على الـ (٣٥٠) لوحة وضح لي منهج ابن كثير في تصنيف كتابه، وبدأت أجزاء من طبعة الهند من «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» للحافظ المزي في الصدور بعناية الفاضل: عبد الصمد شرف الدين.

بدأت بتحقيق الكتاب متبعاً الخطوات التالية:

١ ــ مقابله نصوص مسند الإمام أحمد على المسند المطبوع وتوجيه الاختلاف في بعض الألفاظ التي ذكرها ابن كثير من حفظه ــ فقد قدمت أنه أحد ثلاثة كانوا يحفظون المسند ــ وكنت دوماً أرجح ما ورد بالمسند المطبوع ــ خاصة ما طبعه الشيخ أحمد شاكر من هذا المسند.

٢ ــ مقابلة النصوص على تحفة الأشراف: متناً، وسنداً، ورواية، واعتماد التحفة في تصحيح الأخطاء الواقعة في مخطوطة جامع المسانيد لعلمنا أن الحافظ ابن كثير ينقل منها رأساً ــ خاصة أن النسخة المخطوطة من تحفة الأشراف المعتمدة في الطبع هي نسخة ابن كثير.

٣ ــ لم أجد ضرورة للتوسع في الحواشي بذكر الخلافات اللفظية لأن أكثرها يكمن بخطأ في المخطوطة، فكانت المهمة الأولى تصحيح النص.

٤ ــ وضع عناوين جديدة لم ترد بالمخطوطة وهي أسماء رواة عن الصحابي، ووضعها متعين، وإهمالها خطأ جسيم وإن لم ترد بالمخطوطة، وغالباً ما أنقل اسم الراوي من تحفة الأشراف، فأضعه في موضعه داخل حاصرتين.

٥ ــ متابعة أسماء الصحابة الرواة من المصدر الأساسي الذي اعتمده ابن كثير وهو «أسد الغابة» لابن الأثير، مع الجزء الثالث من ثقات ابن حبان

المشتمل على أسماء الصحابة الرواة، والإصابة لابن حجر، وأحياناً الاستيعاب والتجريد.

٦ ــ إضافة اسم الصحابي داخل مستطيل «هذه الإضافة ليست بالمخطوطة» لكنها من توضيح اسم الصحابي كاملاً ولقبه، اعتمدت فيها على أسد الغابة، والإصابة، وفوقها رقم للصحابي الراوي متسلسل إلى آخر الكتاب حيث بلغ (٢٧٠٢) صحابي ــ عدا المكرر ــ وعدا المكثرين.

٧ ــ أثناء المقابلة بين النسخ المخطوطة، وتحفة الأشراف وجدت أن المصنف لم يذكر بعض الأحاديث، فأضفتها من التحفة وأشرت إلى ذلك في الحاشية، وهذه الأحاديث تأخذ رقماً مكرراً، فإن كان المكرر أكثر من حديث اعطي أرقاماً حرفية: أ، ب، ج...

٨ ــ مسألة رقم الحديث سيرى مطالع هذا الديوان أنني أثبت رقم الحديث أمام متنه، وأحياناً أمام سنده، والحقيقة أن بعض الأحاديث كانت ترد بمتنها فقط، وبعضها بسندها، فاضطربت بين الأمرين، كنت أود وضع الرقم أمام أول السند، فأفاجأ بمتون لا إسناد لها، فرجحت وضع الرقم أمام المتن مطلقاً لتسهل عليَّ فهرسة أطرافه أيضاً ولكن هذا لم يطرد على حال وبقي متأرجحاً إلى نهاية المجلد السادس عشر، ثم أثبته غالباً أمام أول السند. وهو عيب في الكتاب لكنه لا يؤثر لا على المتن، ولا على الإسناد، ونسأل الله التوفيق.

٩ ــ ضبطت أغلب أحاديث الكتاب من مصادرها المخرجة منها.

١٠ ــ صنعت فهرساً للرواة التابعين عن الصحابة، وفهرساً لأطراف الحديث، وذلك من المجلد الأول حتى السادس عشر.

١١ ــ إكمال نقص الكتاب ومنهج ذلك:

■ سبق أن ذكرت وحددت مقدار النقص في الكتاب، وسيكون قليل الأهمية إن صدر بهذا النقص فعزمت أن أنهج نهج ابن كثير في تصنيف النقص في الكتاب حتى يصدر كاملاً.

■ ووجدت أمامي كما هائلاً من مسند كل صحابي يلزم ترتيبه على طريقة منهجية ترتبط بالإسناد على الطبقات أساساً، وكان هذا أساسياً في تنسيق أحاديث المكثرين.

■ إن العناية والدقة والالتزام عناصر جوهرية ينبغي أن تتوفر في هذا البحث، وكل البحوث التي انهارت كانت تفتقد عنصر العناية العلمية، والدقة التصنيفية، يؤدي بها ذلك إلى أن تصبح طوائف من المعارف، منها ما يرتبط بها ومنها ما لا يرتبط بها تماماً، أو قل منها ما يرتبط بها ارتباطاً دقيقاً، ومنها ما يرتبط بها ارتباطاً واهياً، وليس ذلك فحسب، فإن كثيراً منها يسوده التشويش وتشيع فيه الفوضى، لذلك كان من الضروري أن يقسم الموضوع إلى تابعين، وتابعي التابعين، حتى يتميز، ويصبح لكل راوٍ موضوع دائرة أو منطقة خاصة تروى بها أحاديثه، وتوضع بدقة.

غير أن هذا وحده لا يكفي، لأن هذه الدوائر والمناطق فيها ضرب من الإتساع، وتظل مهددة بأن تتحول إلى مجموعات تُجمع لها مادة من هنا وهناك دون تحديد دقيق.

■ فكان من الضروري وضع تنظيم محكم، يتبع من راو إلى راو.

■ فكانت البداية توزيع أحاديث مسند الإمام أحمد على التابعين أولاً، ثم تضييق هذه الدائرة، وإعادة توزيع أحاديث التابعي ـــ إن كانت كثيرة ـــ على أتباع التابعين الراوين عنه.

■ ومع المقابلة على تحفة الأشراف أبدأ بإثبات الأحاديث التي رواها الإمام أحمد، وشاركه فيها أصحاب الكتب الستة، ثم التي شاركه فيها بعضهم، ثم التي شاركه فيها أحدهم.

وبعد إثبات هذه الأحاديث من مسند أحمد، لا داعي لتكرار المتون من الكتب الستة، بل يكتفى بالإشارة إلى أنه رواه الجماعة، أو البخاري، ومسلم، أو الأربعة، أو أحدهم.

■ فإن بقي ــ بعد ذلك ــ أحاديث من مسند أحمد وليست عند أحد من أصحاب الكتب الستة، فإنها توضع بعد ذلك، ويعقبها لفظ: «تفرد به». ويعني أن الإمام أحمد تفرد بإخراجها عن أصحاب الكتب الستة.

■ فإن وصلت إلى هذه الغاية أضفت أحاديث الشمائل للترمذي، أو غيرها في مكانها.

■ وعلى هذا النحو بدأت بإضافة أحاديث الطبراني، فأمسك الحديث من المعجم الكبير للطبراني بيدي، وأقابله على الأحاديث المثبتة من مسند أحمد، وتحفة الإشراف، فإن ورد بهما فلا ضرورة لإثباته، وإن لم يكن موجوداً، أثبته في موضعه.

■ أما إضافة أحاديث مسند البزار، فقد اكتفيت بما صنفه الهيثمي في زوائد البزار بأن أقابل ما ورد من هذه الرواية التي أنا بصددها على زوائد البزار وأثبت الأحاديث غير الموجودة فقط في الكتب المتقدمة.

■ وعلى هذه الشاكلة تمت إضافة أحاديث أبي يعلى من مخطوطة المقصد العلي، ثم من مسند أبي يعلى الذي بدء بطبعه حديثاً.

■ على هذه الأسس كنت أصنف أحاديث أتباع التابعين، عن التابعين عن الصحابي المكثر، ثم أنتقل إلى غيره، وهكذا حتى تنتهي رواية أتباع التابعين عن التابعي، فانتقل إلى تابعي آخر، حتى نهاية مسند الصحابي.

■ بهذه الطريقة التي شرحتها وضعت مسانيد الخلفاء الراشدين الأربعة، وقد شغلت الأجزاء (١٧-١٨-١٩-٢٠)، وقد ضممت مسند عثمان إلى مسند أبي بكر في المجلد السابع عشر، وأفردت مسند عمر في المجلد الثامن عشر، وشغلت أحاديث الإمام علي الجزأين (١٩-٢٠).

وأما مسند أنس فقد أوضحت سابقاً أن الموجود منه حتى رواية حميد عن أنس، وقد ذكر قليل منها، فأفردت الموجود من المخطوطة في المجلد الحادي والعشرين، وصنفت النقص، وأفردته في المجلدين (٢٢-٢٣)، فبلغت أحاديثه (٣٤٧٨) حديثاً.

وجاء بعده مسند جابر بن عبد الله، وقد صنفته بأكمله وشغل الجزأين (٢٤-٢٥) واشتمل على (١٩٥١) حديثاً.

وجاء بعده في المجلد السادس والعشرين مسند عبد الله بن عمرو بن العاص، وقد وضعته بنفس المنهج، فاشتمل على (٨٧٩) حديثاً.

أما مسند ابن عمر الذي شغل المجلدين (٢٨-٢٩)، وقبله مسند ابن مسعود في المجلد (٢٧)، فقد صنفهما ابن كثير.

وصنفت بعد ذلك ـــ مسند عبد الله بن عباس، في المجلدات (٣٠، ٣١، ٣٢)، واشتمل على (٣٨٧٩) حديثاً.

وبعده مسند سعد بن مالك أبي سعيد الخدري في المجلد (٣٣)، واحتوى على (١٢٩٣) حديثاً.

أما مسند أبي هريرة، فقد صنفه ابن كثير، وناقص من المخطوطة حوالي (٢٠) لوحة من أولها، فقدت فأعدت بناءها استكمالاً لمسند أبي هريرة، وذلك من أول المسند حتى رواية جبر بن عبيدة الشاعر، عن أبي هريرة، وهذه الأحاديث = (١١٠) حديثاً، من مجموع مسند أبي هريرة الذي اشتمل على (٣٧٩٣) حديثاً.

أما بالنسبة لمسانيد الصحابيات فقد صنفه ابن كثير كله سوى مسند عائشة، وقد وضعته فشمل على (٣٧٩٩) حديثاً شغلت المجلدات (٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠)(٥).

١٢ ـــ تخريج أحاديث الكتاب وتبيين موضع كل حديث في مكانه من هذه الكتب العشرة، والاعتماد على مجمع الزوائد للهيثمي في أحاديث الزوائد.

١٣ ـــ ترجمة موجزة للصحابي، أو ذكر مصدرين من مصادر ترجمته على الأقل.

---

(٥) بذلك يكون النقص في الكتاب قد اكتمل سوى (٧٥) لوحة بها بقية المجاهيل من عبد الله بن كعب للآخر أرجو أن يوفقني الله لوضعها وسوف الحقها ـــ فيما بعد في قسم مستقل يلحق بالمجلد الخامس عشر، ولله الحمد والمنة.

١٤ ــ عمل فهارس لأطراف الأحاديث من المجلد ١-١٦، وزيادة فهرس فقهي ابتداء من المجلد (١٧) حتى الأخير، والمتون تلتقي في فهرس الأطراف.

١٥ ــ طريقة التخريج: كان مهماً عزو الحديث لمصدره الصحيح، ثم التعليق عليه إن لزم الأمر.

١٦ ــ هذا الكتاب أهم ديوان جمع فيه المصنف أحاديث الصحابة كلهم على منهج واضح قوي، تكلم عن بعض الأحاديث ان لزم ذلك، وهو موسوعة حديثية كاملة لا تحتاج إلى غيرها.

١٧ ــ لا يظن أحد أن استكمال النقص الذي صنعته التزاماً بالسنة النبوية وشغفاً بها، وإقراراً لعين حافظ محدث مؤرخ مفسر من علماء المسلمين، وتخريج أحاديثه أن هذا شيء سهل، فكثير من الأسماء كانت تختلط ولا بد من حصرها من الكنى والآباء والأبناء، وترتيبها ترتيباً صحيحاً. بالإضافة إلى صخامة هذا العمل وتشعب طرقه، وعمل فهارسه، وترقيم أحاديثه...

لقد كان كدحاً وعناء أن أحدد هدف ما أبحث عنه، وأن يتحول هذا إلى تجارب علمية قويمة منظمة تسودها وحدة الموضوع بحيث تصبح مرتبة، ويصبح الخيط الذي يربطها لا عقد فيه ولا نشاز.

لما تصورت إمكانية استكمال جامع المسانيد، كنت أحلم، ولما شرعت في العمل بتحول هذا الحلم إلى عمل دؤوب، وسهر متواصل، كانت الأيام تترى لا أرى نهارها من ليلها، ولا فجرها من عشاءها، كلها اعتكاف وعمل، حتى منَّ الله واكتمل هذا الديوان العظيم الذي أرجو أن تقر به أعين العلماء، وينظروا إليه بعين الإنصاف لوجه الحق وحده.

إن عملاً مترامي الأطراف كهذا لا بد أن تقع هفوات به، فلكل صارم نبوة، ولكل جواد كبوة، لقد وضع بعضه في ظروف قاسية انطوت على معاناة أليمة، وتراكم الأيام والأشهر والسنين، فرحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي.

* * *

وبعد؛ يشمل هذا الكتاب في شكله النهائي ما يربو على أربعين ألف حديث بالمكرر، وهي كل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقنن اليوم في كتاب واحد، في هذا الديوان الحديثي الهادي لأقوم سنَن.

من هذا الديوان يستطيع كل ملتمس ضوء أن ينال ما يصبو إليه. فقد اشتمل على كل أبواب الفقه الاسلامي، وَنَسَخَ غيره من كتب الحديث، وصار المرجع الأول لما فيه من تبيين وتعليق على أكثر أحاديثه.

إن عدد المسلمين في العالم اليوم أربى على المليار في (٤٥) دولة إسلامية في العالم(*) تنطق هذه الملايين كلمة التوحيد خمس مرات على الأقل في اليوم والليلة، وتشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله، وتتوجه في صلاتها خمس مرات في اليوم إلى قبلة واحدة، وتصوم في شهر واحد، هذا على تعاقب الأيام والدهور إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومن عليها.

ولقد كنت دائم التفكير فى أن الإسلام دين الوحدة، ودين الجماعة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾. [الأنبياء: ٩٢].

فما دام المسلمون يؤمنون بالله ويوحدونه، ويؤمنون بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ويؤدون صلاتـهم، وزكاتهم، ويتوجهون إلى بيت واحد، فما بال أحوالهم تتردى، ويطمع بهم عدوهم؟ وما بالهم شتى، وقد كانوا جميعاً؟ وكيف استطاع الاسلام أن يخترق نصف المعمورة، وتصل سنابك خيول المسلمين إلى مسافة [١٠٠ ـــ كيلومتر] من باريس، ويستوطنوا أغلب إيطاليا، وجانباً من سويسرة، وغيرها؟

حق علينا أن نلتمس لهذا السؤال جواباً.

إن المسلمين في عصور تقدمهم، وسيادتهم العالم لم يختلفوا في الإيمان، ولا في العقيدة، وإنما اختلفوا في الرأي والمذهب حول شئون الحياة الدنيا، وأطبق عليهم الجهل بالكتاب والسنة، أو بعدوا لسبب أو لآخر عن مصادرهم الأصيلة، فانحرفوا

(*) منظمة المؤتمر الإسلامي في تقرير لها نشرته الصحف.

بتأويلات النصوص القرآنية، انحرافاً شديداً، وبعدوا عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وصاروا يبحثون عن مصادر أخرى تؤيد وجهة نظرهم فيما يعترض من مشكلات.

وقد اختلف العلماء من قبل، واختلف الأئمة الأربعة مذهباً، وهم الأئمة أولو الورع والتقى، واختلف تلاميذهم، فأخذ أهل المصر تارة برأي التلميذ، ولم يأخذوا بقول الإمام، ومع ذلك لم يطعن في إيمانهم أحد، ولا في عدالتهم.

كان ذلك في عصر ساد فيه العلم، وكان الناس يقدرون العلم والعلماء، ويحترمون صاحبه ما قصد به وجه الحق.

«كان ذلك والأمة الإسلامية في أوج مجدها، وعظيم سلطانها، تدوي كلمتها في الشرق والغرب، ويحسب العالم كله لها حساباً».

«فلما حلتّ بالأمة الاسلامية نكبات الشقاق وقام الثائرون في أنحائها يبتغي كل مجد نفسه، وسلطانها، بدأ الجهل يفتك بالعقول، والجمود يفتك بالأرواح، وبدأ الناس يرتابون في مقصد صاحب الرأي ويحسبونه لا يدين به عن عقيدة حرصاً منه على خير إخوانه المؤمنين، وإنما يبديه دعاية لنفسه، ويتخذ من النداء به وسيلة إلى السلطان، هنالك عم الناس الفزع من اجتهاد هؤلاء المجتهدين، وقعد بهم هذا الفزع عن تبين الحق في آرائهم، فرموا الاجتهاد بالمنقصة، وطرحوه وراءهم ظهرياً، وقالوا: لا رأي إلا ما رأى الآباء، ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مهتدون﴾. [الزخرف: ٢٢]. أ. هـ.

ودار الزمن دورته، وتطورت أساليب الحياة والمعاملات، فكان لا بد أن ينهض العلماء ويلتمسوا خطوط الإسلام العريضة، وأن يستمدوا من القرآن والسنة ما يعترض حياة المسلم المعاصر، فيقدموا لهم ما يتعلق بالحياة المادية ومعاملات الناس فيها مما يجري في أمور دنياهم.

أصحاب عقيدة التوحيد حين يفيئون اليوم إليها وحين يرفعون رايتها وحدها،

يستطيعون أن يقدموا للبشرية أعظم من الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية، يقدمون تحرير الإنسان، بل ميلاده.

يقدمون إنساناً عزيزاً كريماً، ينهض بالخلافة في الأرض، وهو في أوج كرامته، ليس عبداً للآلة أو البشر.

لقد قصرت الحضارة الغربية عن إسعاد الإنسانية: أن جعلت أساسها الحياة الاقتصادية، ولم تقم للعقيدة وزناً في الحياة، إنها جرّت الشقاء على الانسان بما يعانيه من محن حيث قلبت حياته إلى حيوانية ضارية تعتمد على النضال في الغابة، فجعلت القوة الحيوانية هي الأساس، يرقب الخصم خصمه ليأخذه على حين غفلة، بلا إخاء ولا تراحم.

وفي يد المسلمين اليوم كتابٌ خالدٌ، وثروة حديثية، على المسلمين أن يتنبهوا إلى هذه الثروات التي في أيديهم من توحيد، وربانية، وشمول، وإيجابية تساهم في تحريرهم من كل غل، ثم هذه المبادىء الإيمانية التي تقوم عليها فروض الإسلام من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، قد ضمن الإسلام لمن يتمسك بها أن يكون الإنسان الكامل، وما كان عليه المسلمون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي الصدر الأول، ينهض دليلاً أكيداً على هداية الإنسان طريقه القويم.

اللهم صلّ على سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، اللهم وبارك على سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله،

وصل الله على خيرته المصطفى من خلقه لوحيه، المنتخب لرسالته، المبعوث رحمة للعالمين، المرفوع ذكره في الأولى، الشافع المشفع في الأخرى.

صلى الله عليه، كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كَتَبَهُ: الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي

في القاهرة ــ مدينة نصر ــ العمارة ٨ ــ شارع يوسف عباس ــ الشقة ١٠٠٥

في يوم الأحد ١٩ رمضان ١٤٠٧

المصادف ١٧ أيار ١٩٨٧

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة